المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثاني عشر بعد المئة

١ يناير سنة ١٩١٨ — ١٩ صفر سنة ١٣٣٦

التكافل الاشتراكي

نظرية مهمة في النظام الاجتماعي

المبحث الاول في تحليل النظرية

٢ — هل التكافل ممكن في عالم الاجتماع ؟ (١)

أعتقد أنّ عنوان هذا البحث ، وهو مصوغ في صورة استفهام ، ليس بمحكم الوضع . على أنه يقتضي ما يقوم في الاجتماع الانساني من ضروب التنافس ، بل من ضروب التناحر الذي لا مبرّر له بوجهٍ من الوجوه ، أظن أنّ هذا السؤال طبيعي ومعقول .

هل يمكن أن يقوم النظام الاجتماعي على صورة تكافلية ، تشعر معها جميع أطراف الجمعية بأنها كافلة ومكفولة معاً ، وبحيث يكون منشأ هذا الشعور ضرورة حيوية تجعل الكفالة المتبادلة بين أطراف الجمعية أمراً يتعلق بتثبيت كيان الجمعية ذاتها وبقائها باعتبارها وحدة كاملة ؟ مطلب عسير . غير أني أرى أنه ضروري لهناء الجمعيات البشرية وتحقيق حرياتها الضرورية في وقتٍ واحد : حرية الفرد وسعادة الجماعة .

على أني لا أريد أن أتطرف في توسيع المعاني التي تحتملها الكلمات ، فاذا قلت « حريّة الفرد » فمعناها تحرر فكره وإرادته مع تحديد مسئوليته ، واذا قلت « هناء الجماعة » فمعناه بلوغ الحد الممكن منه سد الحاجات المشتركة ماديّة وأدبيـة وعقلية ، في حدود البيئة والقوانين

(١) نشر البحث الاول في عدد ديسمبر — ١٩١٧

الطبيعية ، عبارة القوى التطورية التي تكتنف المجتمع البشري .

نعقب على هذا السؤال بآخر : هل هنالك منافاة بين حرية الفرد وسعادة الجماعة ؟ أو بعبارة أخرى : هل هنالك منافاة بين تهيئة الفرصة للفرد كي ينمّي كفاياته ومواهبه بطرقه الذاتية ، وبين قيام جمعية يسودها السلام بحيث تصبح مكفيّة الحاجة بعيدة عن مقاصد الاستبدادية ، سواء أكان ذلك من ناحيتها على الفرد أم من ناحية الفرد عليها ؟ أعتقد أنه لامنافاة البتة .

وإذن نتساءل من أين أتت ظاهرة المنافاة التي نشعر بها إذا ما تأملنا في المجتمعات التي لاتزال ترزح تحت وراثة العصر الاقطاعي ، والمجتمعات التي انقلبت دكتاتوريات شيوعية أو اشتراكية ؟ أما الأولى ، فيتجلّى فيها استبداد الفرد بالجماعة ، وأما في الثانية ، فاستبداد الجماعة بالفرد !!! أو بالحري استبداد باسم الجمعية يمثله فرد أو بضعة أفراد ، يقنّعونه بعبارات وهمية أو معنونة بعناوين طارئين ، وإن تظلل فيها التناقض ، كقولهم مثلاً «دكتاتورية الجماهير» أو «دكتاتورية الذهاء» وهي منطقيّاً أفرغ عبارة شهدها تاريخ الفكر بل هي أكبر سخرية عرفتها الانسانية .

نشأت المنافاة في الجمعيات الأولى ، جمعيات الاستبداد الفردي ، من نظامات ورثت من العصور المظلمة أيدتها شرائع وضعت وفق نظام قائم بالفعل . ونشأت في الجمعيات الثانية ، جمعيات الاستبداد الجماعيّ ، بحكم نشوئها في عالم تظلله وراثات العصر الاقطاعي من ناحية ، وخطأ الاعتقاد بأن الحرية الفردية منافية لسعادة الجمعية من ناحية أخرى .

يعسر عليّ في هذا المقام أن أعود الى عصور الاقطاع فأشرح نظامها الطبقيّ ، أو أن أسوق الكلام في الدرجات التي انتهى بها ذلك النظام الى نشوء التوميات وتطور الفكرة في الحريّة . غير أن ما لاسبيل الى إهمال الكلام فيه ، هو إظهار السبب في بقاء الوراثات التي خرج بها الانسان من تلك العصور ، واستقرار النظامات الحاضرة عليها مع ظهور فسادها ظهوراً لا سبيل الى نكرانه . السبب في هذا واضح كل الوضوح ! تواطؤ الأقوياء هم الذين شرعوا لأنفسهم ، وهم الذين شرعوا للمستضعفين في الأرض ، أو كما صوّر ذلك طاغور في إحدى مسرحياته إذ قال : إن الضعفاء في هذه الدنيا قليلو الحيلة . أما الأقوياء فقساة غلاظ الأكباد .

لم يشهد التاريخ الانساني من نظام تفاوتت فيه الطبقات تفاوتها في العصر الاقطاعي . فبعد أن قطع الإنسان من عمره دهراً في ظل الديمقراطية اليونانية ، ثم في ظل الحكم الروماني الذي ذاعت فيه روح القانون مصوباً في قالب قريب جداً من القالب الذي نعهده في

قوانين العصر الحديث ، حطّ الهمج على الامبراطورية الرومانية من فجاج الشرق وراحوا يعبثون في انحائها تخريباً ، وتناسوا القانون الروماني ، وإن اعتنقوا النصرانية التي هي دين الرومان ، وفي أثرهم قام عصر الاقطاع الذي هو الى الحكم القَبَلِيّ البدائي أقرب شيء . ومن ثنايا هذا الحكم نشأ ، بالرغم من أنه نظام طبقي ، نظام القوميات ، بعد أن دبّ الاضمحلال في حكومات العصر الاقطاعي وطغى مدّ الحضارة بعد عصر النهضة على ذلك النظام . غير أنّ دولات الاقطاع قد ورّثت النظام القومي كثيراً من تركتها ، ومن ذلك نظام تفاوت الطبقات قائماً على الثروة والجاه ، وعلى نبالة الدم والشرف الموروث ، وبالحري القوة ، ومنه أيضاً نظام الملوكيات الكبرى التي كان مثالها الأكبر ، ملوكية لويس الرابع عشر في فرنسا .

وفي ظل هذه الملوكيات وضعت القوانين التي احتكمت في الأمم طوال عصور ، حتى ظهر عجزها عن مسايرة مقتضيات الحضارة الحديثة بعد نشوء العصر الانتاجي ، وإن شئت فقل عصر الانتاج الآليّ ، فمضت تتطور شيئاً بعد شيء تحت ضغط الظروف المدنية .

احتفظت هذه الشرائع بمظهرين كان لهما أكبر الأثر في تكوين تاريخ أربعة قرون بدأت بالقرن السادس عشر وانتهت صورة منهما بنهاية القرن التاسع عشر . المظهران : حماية الملكية ، وحماية الدين . فانه في جميع الحركات التحرّرية التي ظهرت في المانيا والبلاد المنخفضة وفرنسا وانجلترا مالأ الملوك رجال الدين ، ومالأ رجال الدين الملوك ، احتفاظاً بسلطان الدنيا وسلطان الآخرة ، فكان ذلك أشبه بعهد غير مكتوب يرمي الى استذلال الطبقات المستغلّة لمصلحة الملوكيات ومصلحة الكنائس .

في ثورة الفلاحين الكبرى التي قامت في المانيا في عصر لوثر أيّد ذلك المنشق الكبير الأمراء في سبيل القضاء على الثورة ، ورأى رأي العين أكبر المذابح وأعظم الآثام ترتكب أمام ناظريه ، وهو ثابت العقيدة في أن الثورة على أولي الأمر شيء يأباه الدين وتمقته النصرانية . ذلك بأن الاعتقاد بأن حق الملك حق إلاهي ، يتبعه دائماً اعتقاد أن خضوع الشعب أمرٌ إلاهي أيضاً ، وأن الخروج عن طاعة ملك يحكم في الأرض بتوكيل من الله ، ردّة عن الدين وخروج على الإرادة الأزلية .

على هذا نجد أن تأييد النظام القائم ، الذي هو من ميراث عصر الاقطاع ، بالقانون وبالشريعة ، إنما يأتي تأييده من اعتقاد انه نظام أبدي سرمديّ ، الخروج عليه خروج على إرادة الله ، بل إنه خروج على سلطة الملك وسلطة الكنيسة . ونرى أيضاً أن الشرائع التي تؤيده قد استمدت من نبعين : الأول سلطة الملك التي هي سلطة إلاهيّة ، وسلطة الكنيسة

التي هي كفيلة الارادة الازلية . ومن الصراع الذي قام بين هذا الاعتقاد ، واعتقاد أن الحرية حق طبيعي للأمم ، تكونت حركة التحرير الاوربيّ . صراع بين الشعوب وبين ادعاء الحق الالاهي في الملك من جهة ، وصراع بين الشعوب وبين ادعاء حق الديمونة في الكنائس من جهة أخرى .

* * *

تنقل هذه الحقائق الى الذهن صورة جمعية فقدت كل سبيل يسلّم بها الى حياة فيها رتابة وفيها سلام . حياة لا هي حياة تنافس أفسحت فيها الحرية الفردية المجال لتنمية كفايات الفرد ، ولا هي حياة تكافلية تلقي في روع الفرد انه عضو في جمعية تحرص على مصالحه ، وتُشعر الجمعية بأن الفرد وحدة ضرورية من وحداتها التي تؤلفها . حياة مُثل فيها سيف الملك على الرقاب ، وحل فيها سيف الكنيسة على الأرواح . حياة جمدت فيها الشرائع وجمدت فيها القوانين ، وباسم الملك الموكل عن الله عمل السيف وعملت المقصلة والمخلعة وغيرها من آلات التعذيب والقتل ، وباسم الكنيسة ، التي احتلت مكان الديّان الأعظم ، أقيمت المحارق لقاتهم المراطقة والأحرار . وباسم الله حكم الملوك ، وباسمه حكم رجال الدين ، أهنع حكم جرى على جماعات بشرية خلال كل الأزمان التي كان للانسان فيها أثر فوق هذا الثرى .

غير أن الروح التي نقلها القانون الروماني إلى أقوام أوربا ، وكانت قد كمنت واستذلت في عصر الاقطاع ، لم تمت فأخذت تنمو وتفرّخ في العقول وتغزو الأفكار ، تؤيدها فكرة الحرية التي هي مكمّلة للقانون ، تخرجت الشعوب الغربية الحديثة من تلك الغمرة الشديدة بنظام القوميات ، وهو لنظام خطا بالانسان خطوات كبيرة نحو حياة التكافل الاشتراكي .

وأني لأعتقد ان كلّ نظام جديد حلّ مكان نظام ورثه الحضارة عن عصر الاقطاع ، إنما هو خطوة نحو التكافل الاشتراكي . فموت الفكرة في حق الملوك الإلهي ، وفصل الدين عن الدولة ، ورد السلطة الدينية الى حدودها الروحية ، وقيام الأنظمة الديمقراطية ، وحلول القوانين الوضعية محل الارادات البشرية والقدسية وتنظيم الجمعيات بطريق التشريع خاضعاً لسلطان البيئة والضرورة ، كل هذه مظاهر تدل على ان الحضارة أخذت تخطو بخطى وئيدة ، ولكنها ثابتة ، نحو نظام التكافل الاشتراكي ، وهو النظام الذي يحدّد حقوق الفرد وحريته ، ويرمي إلى سعادة الجماعة ، بحيث يكفل للفرد المشاركة في سعادة الجمعية ، وتكفل الجمعية للفرد الحرية اللازمة لتنمية كفاياته لخيره وخيرها .

لقد دلت الخطوات التي خطاها النوع البشري انه انما يتجه بحضارته نحو نظام « التكافل الاشتراكي » وأرى أن المدنيات التي ازدهرت في الاعصر القديمة ، انما يعود ازدهارها في أكثر الأمر الى شيوع روح « التكافل » فيها وأن انحلالها يرجع الى ضعفه .

وبالرغم من اني أعتقد واثقاً أن تعليل نشوء الحضارات وانحلالها من أعسر مطالب علم الاجتماع والتاريخ ، إلاّ ان الصورة التكافلية في حضارة بذاتها ، هي الصورة التي تبرز في كل مرافق الحياة فردية واجتماعية ، وأن ضعف التكافل في حضارة يظهر بارزاً أيضاً في أزمان انحلالها . لا يدل ذلك على ان حياة التكافل نظام يمكن ان يستحدث في الجمعيات المتمدينة لاغير ، بل يثبت انه قد قام بالفعل في كثير من أدوار الحضارة . حدث مرات في مصر القديمة وبابل وأشور والكلدان ، وظهر في مدنية اليونان ومدنية الرومان ، وكان أكبر مظاهره وحدة تجمع بين الأغراض والمثاليات ، وتربط بين مرافق الفرد وحاجات الجماعة ، وغايات لا يجد فيها الفرد منافاة لصوالحه وفرديته ، ولا تلحظ فيها الجماعات طغياناً من ناحية الفرد على مقومات سعادتها . ورأينا أن الحضارات في حال انحلالها تبرز لنا مخصصيات تحاول الطغيان ، لا لصالح الفرد ولا لصالح الجمعية ، ولكن لصالحها الذاتي ، ورأينا الأهداف التي ساق الجمعية نحوها أهدافاً خلت من كل ما يتعلق بحاجات الفرد أو بسعادة الجمعية ، فتنحل الوحدة التكافلية التي ارتكزت عليها الحضارة في عصور ازدهارها ، فتنحدر نحو الانحلال والفساد . وإذن فازدهار الحضارات وفسادها ، راجع إلى قوة التكافل من ناحية ، والى ضعفه من ناحية أخرى .

نضيف الى ذلك ظاهرة أخرى نستنتج منها ان « التكافل » أول مقوّم لحياة الجماعات ولنمو الحضارات . فإن الواقع ان الاجتماع الانساني بيئة تحيا فيها الجماعة . بيئة فيها كل المقومات التي لكل البيئات الطبيعية . وما من عامل من عوامل البيئة الطبيعية إلاّ وتجد له نظيراً في البيئة الاجتماعية . فكما أن الحي يحتاج في بيئة الطبيعة الى عوامل تجعل حياته مستطاعة وفي درجة من الاعتدال يشعر معها بان الحياة لذة لا عبء ، كذلك يحتاج المجتمع الى عوامل تجعل حياته كذلك . فان الحيّ ان احتاج في البيئة الطبيعية الى الغذاء والى الهواء والى الملبس والى الارض والجبل والشمس والنبات والحيوان ، كذلك المجتمع يحتاج في بيئته الاجتماعية الى الحرية والعدل والقانون والفكر والوحدة والتماسك والمثل الأعلى والسلام . وعلى الجملة يحتاج الى صورة من التكافل تشعر الفرد بأن الجمعية ضرورية لهُ ، وتشعر الجمعية بأنّ الفرد من ضروراتها ، على صورة ينتفي معها كل ضروب التغالب من ناحية الفرد على الجمعية ، ومن ناحية الجمعية على الفرد .

في الجمعيات البدائية أقامت الضرورات ضروباً من التكافل المعاشي ، ظهرت آثارها جلية واضحة في حياة العائلة والأسرة [1] والقبيلة . وقد تظل حياة هذه النظامات الاجتماعية قائمة ردهة ما دام أساس معاشها تكافلياً . فاذا دب فيه خلل من عوامل الفساد وأخصه طغيان المصلحة أو التطفل ، انحلت عقدة التكافل وفسد النظام العائلي أو الأسري أو القبلي. وكذلك قد تجمع الضرورة بين جملة قبائل ، فينشأ بينها نوع من التكافل يؤلف شعباً أو أمة ، تجتمع على نظامات تكافلية ، فتزدهر الحياة وتضرب في التقدم. حتى اذا دب الفساد في ذلك النظام التكافلي ، انحلت الوحدة وحال لون الحياة ووقف التقدم . وبالحري انحلت الحضارة التي قامت أول شيء على مبدأ التكافل .

ونحو أية صورة من صور الاجتماع الانساني ، إنما تقوم على التكافل . ذلك المبدأ الذي نشهده شاملاً جميع أجزاء الطبيعة ونواحيها . فالحياة الطبيعية ، هي عبارة عن تكافل يربط بين جميع أجزاء الجسم . فاذا انحلت وحدة التكافل في ناحية اعتل الجسم ، واذا امعنت في الانحلال حصل الموت والدثور . وكذلك المجتمع ، اذا انحلت في ناحية من نواحيه عقدة التكافل وأمعنت في الانحلال فسد ودثر . ذلك بأن المجتمع كلٌّ مترابط الأجزاء ، مثله في ذلك كمثل الكُلِّ الاحيائي أي الطبيعي . وبذلك نرى مدنيات قد قضي نحو الزوال والانحلال وظاهرها قوي سليم وجميع أجزائها هامدة البناء . ولكن قلما ندرك أين يقع السبب في انحلالها . لأن ذلك انما يعود إلى انحلال عقدة التكافل في ناحية من النواحي الحيوية من بنائها ، الضرورية لازهارها وتقدمها .

* * *

من الأمثال التي نضربها على انحلال عقدة التكافل تخلف القوانين والشرائع عن مسايرة الحس الأدبي في جماعة من الجماعات . ذلك بأن الحس الأدبي من الأشياء التي يصيبها التطور ويقع عليها التدرج والنشوء . وكذلك هي من الأشياء التي تصيبها الرجعي والانتكاس . فان الحس الأدبي لأمة من الأمم قد يتأثر بالوضع السياسي كل التأثر . فهو مع الاستقلال والحرية والسلام ، غيره مع الغزو الأجنبي والاستبداد والارهاب . فهو في الحال الأولى تقدمي مثالي ، وفي الثانية تأخري خسيس .

في الحالة التي يسبق فيها الحس الأدبي قوانين أمة وشرائعها تبدأ عقدة التكافل في الانحلال ، اذا لم تتطور الشرائع بمقتضى الحس الأدبي . وفي حالة تنكس الحس الأدبي ، وهي

(١) العائلة غير الاسرة ؛ فالعائلة هي الزوج والزوجة والاولاد ، اما الاسرة فهي هؤلاء وما يتفرع من ذوي القربى

حالة تظهر فيها الشرائع كأنها سابقة لحس الجمعية الأدبي ، تحدث فوضى في الأخلاق والمعاملات، من شأنها أن تقف حائلاً بين ترقيه الحس الأدبي وإمكان تطبيق الشريعة ذلك بأن أقوم الشرائع، شريعة تساير الحس الأدبي للمجموع الأعظم من المحكومين .

ومن الأمثال التي نضربها أيضاً الأمعان في الافراطات بأنواعها . فالافراط في الغنى الفردي أو الفقر الفردي ، والافراط في الاستبداد واقعاً من ناحية الفرد أم من ناحية الجمعية ، مضافاً الى ذلك افراطات التحزب واختلاف الرأي والافراط في عدم الموازنة بين الضروريات والكماليات ، كل ذلك عوامل من شأنها أن تفك عقدة التكافل في الجمعية .

حتى الافراط في العلم قائماً الى جانب افراط في الجهل ، من شأنه أن يؤثر في عقدة التكافل، فيخلخل من تماسكها . فان ذلك من شأنه أن يقصر فائدة العلم على أقلية ممتازة ، في بحر خضم من جهالة جماهير لا تعي فائدة العلم . وبذلك يطرد الجهل العلم ، كما تطرد العملة الرديئة العملة الحسنة من سوق التعامل ، وهو قانون اقتصادي معروف . لهذا يجب ، احتفاظاً بعقدة التكافل في أمة من الأمم أن تتقارب حيثياتها ليمكن الانتفاع بالمواهب والكفايات على أكمل الوجوه المستطاعة . وهذا ما حفز الأمم المتحضرة على تعميم التعليم والتدرج به الى أعلا درجة ممكنة في مجموع الأمة احتفاظاً بوحدة تكافلها . فان الأفكار والمشارب والميول كلما تقاربت في مجموع السكاني ، ازدادت أوجه التكافل وبان أثرها الفعال في تصرف الفرد وفي تصرف الجمعيات .

ومن ذلك أيضاً انحطاط المثل التي تحتذى في مرافق الجمعية . فالسياسي الأناني أو الزعيم الأناني أو التاجر الغاش أو رجل الدولة الدنيء أو الصحفي المتجسر أو الموظف المرتشي أو الزوج العابث أو الزوجة الخائنة ، كل من هؤلاء عش فساد ينشر صفاته تلك في محيطه . فاذا تفشى ذلك المثل متنقلاً من فرد الى فرد ، تكونت دلى أثر ذلك خلايا الفساد ، وبدأت تحلل من عقدة التكافل الجماعي . وعلى العكس من هؤلاء نظراؤهم من ذوي الاستقامة والميول المثالية . فان أثرهم في تكوين خلايا صالحة من شأنه أن يقوي عقدة التكافل ، التي فيها أسمى المعاني المستفادة من التماسك الاجتماعي .

حكومات الفرد المستبدة هي من عوامل التصدع الاجتماعي بما تحدث من انحلال في رابطة التكافل . فالفرد المستبد ينفد أول ما ينفد متعته الخاصة واحتفاظه بسلطانه ، فيضطر أن يستحدث من حوله بيئة من التطفل يتخذ رجالها عيوناً وأوصاداً على الأمة ، فيجنح هؤلاء الى الحيلولة بين المستبد وبين الحقائق تزلفاً وقربى ونشداناً للمصلحة، فتضع الحكومة ضرباً من الطغيان المستند الى التطفل على جسم الأمة . وما من صورة من صور الانحلال هي

أبشع من هذه الصورة ولا أنكى أثراً في الحاكمين والمحكومين على السواء. لهذا نرى أن تاريخ كل الحكومات الاستبدادية، عبارة عن بناء فارغ ظاهره المجد والعظمة والثبات، فإذا هب عليه أدنى انهيار وانفجر. وما تاريخ هذه الاستبداديات الفردية الا تكراراً لصورة واحدة، قيام فانهيار، ثم قيام فانهيار، وهكذا دواليك، مما يثبت بشكل قاطع، أن جميع مقومات التكافل الاجتماعي تكون معدومة في مثل هذه الحكومات.

كذلك يستحيل طبعاً أن يقوم في مثل هذه الدول الاستبدادية حكومة صالحة. لأن الغرض الأصلي من الحكومة مفقود فيها فقداناً كلياً.

ولن يعثر في الاستبداديات أي شعور بالوطنية كما عرفها بعض الأمم الغربية الحديثة. وعندي أن الوطنية ليست هي حب المكان ولا حب البيئة الطبيعية، ولا حب الهواء والطين، وإنما هي عبارة عن شعور بالتكافل الاجتماعي يحس معه الفرد بأنه في مجتمعه هذا أعز مكاناً وأشرف موضعاً منه في أي مجتمع آخر. فالوطنية إذن ليست طبيعية، وإنما هي وليدة الظروف الاجتماعية. وإن كان للبيئة الطبيعية فيها أثر، فهو أثر ثانوي صرف.

ضرب المثل بالوطنية الانجلوسكسونية، واتخذت مثلاً يحتذى بين جميع أمم الغرب. وإذا سمعنا من هؤلاء القوم أنهم يحاربون من أجل الحرية، فلنصدقهم، وإن كانوا بدئيا يدافعون عن حريتهم كبد إعاشوا في ظله طوال حياتهم الحضارية.

* * *

منذ القرن الثالث عشر، أي منذ أن انتزعوا «الماغنا كرتا» أي العهد الكبير من ملكهم المستبد، وتاريخ الانجلوسكسون سلسلة موصولة الحلقات من مظاهر الشعور بالرابطة التكافلية التي تربطهم. يدل هذا على أنهم ظلوا طوال عصرهم مناضلين عما يضفي عليهم التكافل الاجتماعي من قوة. وإذا كان الشعور بالضعف هو الضعف بعينه، كذلك الشعور بالقوة هو القوة بعينها. وهذا يجري على كل المشاعر الاجتماعية وأخصها الشعور بالتكافل على بلوغ صورة من الحياة لها مثالياتها العليا ولها غاياتها المنشودة.

وكل الحروب الأهلية التي وقعت في جزيرة الانجلوسكسون إنما كانت حروباً هب فيها أغلبية الشعب دفاعاً عن وحدته التكافلية إزاء القوات التي حاولت أن تحل هذه الوحدة لتفسح الطريق أمام استبدادها. ونظرة واحدة في تاريخ أوليفر كرومويل وأنصار الحرية إزاء ما حاول الملك شارل الأول من طغيان عليها، يشعرك شعوراً كاملاً بأن هؤلاء الانجلوسكسون هم أعمق شعوب الأرض إحساساً بضرورة التكافل الاجتماعي، والدفاع عنه إزاء كل العوامل التي تحله وتفسده.

في خلال ثمانية قرون طوال ، منذ القرن الثالث عشر الى القرن العشرين ، وتاريخ هذا الشعب ينطق بأفصح عبارة ، أن حياته كانت حياة تكافل اجتماعي ، استطاعت أن ترد عن الجمعية عاديات الاعداء وعاديات الملوك وعاديات الكنيسة ، وأنه في طوال ذلك الزمن الذي قضاه بين مدّ وجزر ، وأخذ ورد ، لم تخب جذوة الشعور بضرورة ذلك التكافل ساعة واحدة . وأن ما تقرأ في تاريخ الانجلوسكسون من آيات البطولة الفردية ، ليتضاءل ويذل الى جانب ما تقرأ في مجموعه من روائع الحياة التكافلية في أجلى معانيها وأبرز صورها . وتلك عندي هي الوطنية الصحيحة .

يقولون إنّ الأقليّات أشد وطنية من الأكثريات ، وإنها أنشط وأمعن في العمل وأصحّ عزيمة وأصدق نظراً في الحقائق . وعندي أن هذه الأشياء ما هي إلاّ مظاهر لحقيقة كبرى تصدر عنها ، هي أن الأقليات أشد شعوراً بضرورة الحياة التكافلية من الأكثريات

الأقليات أشد شعوراً بالأخطار التي تكتنفها ، فاذا لم تتكافل فنت وبادت أو اندمجت في الأكثرية وانمحى أثرها . هي لذلك تنزع طبيعةً الى التكافل المعاشيّ ، الذي هو الطريق الوحيد الذي يُستليم بها الى الصلابة والقوّة ، لتستطيع أن تقاوم تيار الأكثريات

ومثل الأمم المستبد بها كمثل الأقليات . فان الاستبداد والضغط كما يقولون يولّد الانفجار . وكل الانفجارات التي تشهدها في أمم استبدّ بها هي في الحقيقة مظهر الشعور بالتكافل الذي يستحدثه الاستبداد . فالأمة المستبد بها تشعر كأنها قلّة من حيث القوة الى جانب المستبدين بها . وهذا الشعور من شأنه أن يولّد إحساساً بالحاجة الى التكافل دفاعاً عن كيانها ، وإلاّ مضى بها ذل العبودية وأتى عليها سيف الاستبداد .

* * *

كثيراً ما نقرأ في التاريخ الذي كتبه المحدثون كلمة « تنكّس » Decline وكلمة انحلال Degeneration يصف بهما المؤرخون حالات كانت سبباً في ضياع حضارات أو امبراطوريات أو دوَل . فاذا قرأت كتاباً واسع الجنبات مثل كتاب « غبون » في انحلال الدولة الرومانية ، رأيته يستقصي أسباب ذلك في نشوء حالات مقت بتلك الامبراطورية الشاسعة الأطراف ، كهبوط الهمج وسط أوربا ونشوء النصرانية والاسلام ، ثم يعطف حيناً الى وصف الحالات الخلقية والمدنية في الدولة . وعندي ان جميع ذلك ظواهر ترجع الى ان الرومان بعد ان فتحوا الدنيا ودان لهم العالم أصبحوا أقل شعوراً بضرورة التكافل منهم في أول نشأتهم . والسبب الأكبر في ذلك انشقاق أحدثها الدين النصراني . واليه يعود السبب الأكبر في حل رابطة التكافل الاجتماعي التي مكنت الرومان في الأرض من قبل . وأشد

ما تكون عوامل الانحلال أثراً في الجماعات اذا رجع سببُها الى عقائد ايمانية تتعلّق بأوسع أمل يعقده الانسان على صلته بالغيب والخلاص في الآخرة .

ولقد أرى ان الفساد الاجتماعي أو الانحلال كما يقولون هو مظهر لحقيقة أعمق بكثير من المرائي الفسادية أو الانحلالية الظاهرة ، حقيقةٌ أن العقدة التكافليّة التي توثّق للجماعات في الحياة تكون قد مضت في التحلحل من غير أن يظهر لها أي أثر بادىء الامر ، فاذا تقدم بها الزمن وتشعبت أسبابها في جسم المجتمع ، أخذ يعيبه ، كما تعمل النار الحديد ، فاذا تمت ميوعته كان في مستطاع أية قوة أن تصبه في القالب الذي تختاره .

* * *

ان رجال الدولة[1] وبخاصة في هذا العصر الديمقراطيّ ، ينبغي لهم أن ينظروا في ذلك أول شيء ، ويوجهوا كل همهم الى لحظ الأسباب التي تزيد الاحساس بالتكافل في الأمة قوة ، ويردون عن الجمعية كل الأسباب التي من شأنها ان تحلّل عقدة ذلك التكافل . عليهم أن يعرفوا أن الجسم الاجتماعي قابل للتشكل ، لا جسماً جامداً ، وان المجتمع يتطور ، وان تطوره أسهل سبيلاً وأقصر زمناً من تطور الفرد الاجتماعيّ ، وان توالي حدوث المؤثرات التي من شأنها أن تزيد المجتمع تكافلاً ، يجب ان تستجمع وتستغل للصالح العام . وأن من واجبهم أن يحولوا دون حدوث المؤثرات التي من شأنها ان لا تجعل تكافل المجتمع مستطاعاً ، أو على الأقل تحول دون بلوغ التكافل في المجتمع الحدّ المرغوب فيه .

لذا وجب ان يكون رجال الدولة من العلماء الذين مكن لهم العلم من ادراك شتى الصور التي تتقلب فيها الجماعات ، لا من أولئك الذين تمر بهم الأحداث فلا يدركون منها شيئاً . ولقد يكون لحدث صغير الشأن من الآثار ما تنهار أمامه ثابت النظامات ، وقد يمر حدث كبير فلا يخلف من ورائه شيئاً . وإنما تقاس قيمة الأحداث بملابساتها . وأوجب واجبات رجال الدولة ان يقفوا على هذه الملابسات ليحولوا بين المجتمع وعقاء الرجات العنيفة والفورات الحاطمة .

أمّا رجال السياسة[2] ، وهم في الواقع انتهازيون عُبّاد ظواهر ، فهم أقل شأناً من أن نتكلم فيهم . وغالب الظن ان أوانهم قد فات وزمانهم مضى . فهم في هذا العصر أشبه بالآثار المستحجرة من بقايا الأحياء في باطن الأرض ، قيمتهم في انهم آثار ، لا في أن لهم قوة مؤثرة في الوجود .

اسماعيل مظهر

(١) Statesmen (٢) Politicians

وسائل النجاح[1]

اذا كنت تريد النجاح في الحياة ، وأن يكون نجاحك سريعاً ، فعليك باتباع هذه الوسائل ، وسوف يكون النجاح مؤكداً .

وأول ما يجب عليك ، أن تسأل نفسك دائماً عن هدفك في الحياة ، دون أن تتحول عن معاودة هذا السؤال — لأن الحياة ، لا تهب شيئاً ، اذ لم يكن للمرء هدف محدد ، سواء كان هذا الهدف خطيراً أو متواضعاً .

اثبت في مفكرتك ، هذا الهدف ، ليكون تحت بصرك دائماً ، اكتب ما سوف تحققه في مطلع العام الجديد ، ونظم ما تريد عملة على الشهور والاسابيع والأيام . وعاود تلاوتها ، عند نهوضك في الصباح ، وإيوائك الى النوم .

* * *

وقد تسمع ، ممن لم يظفروا بالنجاح ، أعذاراً أبرزها ، عدم وجود الوقت — : فهذه القصة قد كنت أود أن أكتبها ، وهذه الصورة قد كنت أشتهي أن أرسمها ، وهذا العمل قد كنت أحب أن أفرغ منه ، لولا أن وقتي لا يتسع !

ومن المؤكد ، أن الوقت لا يتسع لكل ما تصبو إليه ، ولكن من الممكن تنظيم الوقت ، فقد كان وقت كثير من كبار الرجال مثل وقتك تماماً : كان بيكون محامياً ، وكان بيبز ، موظفاً في البحرية ، وكان ملتون معلماً ، وكان شكسبير يشتغل بالمسرح ، ولكنهم أتوا بالمعجزات ، لأنهم عرفوا كيف ينظمون أوقاتهم .

* * *

وقد تسمع كثيراً من الناس يقولون : لا نستطيع أداء هذا العمل ، ولا طاقة لنا به ، وهذا القول يتم على الكسل العقلي أو على قلة الثقة بالنفس ، وذلك لأن الإنسان يمكنه أن

---

[1] لارموند باركر — من مجلة السيكولوجي

يصل الى أكثر من مقدرته ، اذا وجدت الرغبة ، ووجدت الثقة ، فالذي لا يمكنه السباحة إلا مسافة قصيرة ، قد يستطيع أن يسبح مسافة أطول ، في حالة الضرورة كنجاة حياته أو نجاة حياة الآخرين من الغرق .

وقد يتساءل بعضهم ؟ لماذا ينجح بعض الناس دائماً . ويصدم آخرون بالخيبة ، والجواب على ذلك ، أن الاولين ، عرفوا مبدأ النجاح ، فما هو هذا المبدأ ؟ وأنى يكون ؟

والمبدأ قارٌ في النفس ، ويمكن إبرازه بالقراءة ، ودرس الكتب النافعة دراسة صحيحة ، ومن وحي هذه القراءة ، يتفتح الذهن ، ويشرق فيه النور .

ولا يجوز القناعة بالقراءة ، بل لا مفر من تأمل كل ما تقع عليه العين ، في تدقيق ، وتعمق ، ولا بد من توسيع أفق الرؤية ، وذلك لأن الروّاد الذين قادوا البشرية في طريق التقدم ، كانوا من ذوي الآفاق الواسعة .

فينبغي أن تنظر خارج نطاق نفسك ، وأن تواجه الحياة ، مواجهة واقعية ، وأن تقبس مما ترى ، وسيلة لتحقيق هدفك ، ثم سائل نفسك عن الوسائل المجدية النافعة ، لعملك ، وبيتك ، ومجتمعك ، وما يمكنك القيام به في الحال .

* * *

ومن الخطأ ، أن توزّع نفسك بين عملين أو أكثر ، بل اجتهد دائماً ، أن تقوم بأداء عمل واحد منهم ، وإذا كان لا مناص من أداء جملة أعمال ، فمن الخير ، أن تخصص ، وقتاً لكل عمل على أن تركز ذهنك ، وكل انتباهك للعمل الأول ، ثم تتجه إلى الثاني على مقتضى الأهمية .

وفي الحياة ، تطالعك أسماء لامعةٌ تُعد حجةً في النواحي الصناعية أو المالية ، أو الفنية أو التجارية ، وهنا يجمُل بك أن تقف برهة محدثاً نفسك ، لم لا أكون واحداً بين هذه الأسماء ؟ وأنه ليمكنك أن تكون خبيراً في عملك ، خطيراً كان أو تافهاً .

وسبيل ذلك ، هو أن تشغف بالعمل الذي تقوم به ، وأن تحصل على المعارف والمراجع من كل ناحية ، وأن تجعله هوايتك في جدك ولهوك ، وأن تتناوله في دقة وحصافة وذكاء . ودع الناس بعد ذلك يقولون ، إنك صرت حجة ، في عملك ، لا بالضجة تثيرها ، ولكن بالكلمة الهادئة النامّة عن مدى عرفانك ، ولا ريب أن العمل المتقن يتم على صاحبه ويكشف عن أهليته .

وفضلاً عما تقدم ، عليك أن تقابل مخاوفك بعقيدة الاختيار ، وقوامها ، أنك صيد حظك وأن مشكلاتك لن تقف حائلاً دون أهدافك ، وعليك أن تتجاهل مخاوف الغد ، حتى يأتي الغد وهذه المخاوف سوف تنقشع اذا لاقيتها بعزيمة وشجاعة ، وبسمة متفائلة . واذكر أن اليوم هو الغد الذي كنت تخشاه بالأمس ، فلا تبال الغد ، وأضىء في الحاضر الذي تعيش فيه .

واعلم أن هذا وقت العمل ، وكل محاولة حاضرة لا تعد متأخرة ، مهما كان عمرك ، ففي سن العشرين تكون متمتعاً بقوة الشباب ، ولكن التجربة تعوزك ، وفي سن الثلاثين أو الأربعين تصيب كثيراً من المعارف والتجارب ، وبالها من عون عظيم ، ويمكنك أن تبدأ العمل في مثل هذه السن اذا عاودت روح الشباب في سن العشرين. والوسيلة الناجعة الوحيدة هي أن تبدأ ، وتدبر ، ثم تعمل .

والوقت الراهن أنسب الأوقات للعمل ، فدع التأجيل جانباً ، ولا تذكر الفرص التي ضاعت ، والعمر الذي مضى ، وواجه سوء الحظ بقوة الاحتمال ، وهو دواء ناجع يزيل الحظ التعيس .

ويحسن بك أن تتعرف حياة طائفة من الرجال والنساء الناجحين في الحياة ، وأن تحلل أدوار حياتهم ، وسوف تتيقن من شيء واحد ، هو أنهم بدأوا بالقيام بعمل من الأعمال ، قد يكون كتاباً جديداً ، وقد تكون صورة فنية ، وقد يكون محلاً متراضعاً ، وقد تكون طريقة في الاختزال جديدة ، أو طرازاً للثياب طريف ، أو ما الى هذه الشئون .

وأيًّا كان العمل الذي قاموا به ، فانهم فكروا ، ودبروا ، ونفذوا . فهنري فورد ، صار شهيراً بسيارته ، ولورد بيفربروك بصحفه ، وجورج بلاك ، باخراجه المسرحي .

وكان يمكن لهؤلاء أن ينجحوا في فروع من العمل أخرى ، لأنهم دانوا بمبدأ « البدأ والتدبير والعمل » فاذا انتويت القيام بعمل ، فلا تعتمد على أحد ، ولا تتابع طريقته ، ولكن تعلّم ، وانهض وابدأ ، واجعل الآخرين ، يعتمدون عليك ، واذكر أن العمل هو الصلاة الوحيدة التي تؤدي الى الهدف ، وتثمر الجزاء .

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

مؤسستان ثقافيتان

للفكر في لبنان

لا أكون مجاملاً أو متجنياً على الحقيقة إذا قلتُ إن النهضات الثقافية تجد في لبنان القوّة والنشاط كما يجدها العليلُ حين يعطاف في ربوعه ، فيعود أوفر ما يكون نشاطاً وقوّة ، وأظهر ما يكون شباباً وفتوّة .

فلقد كان لبنان — ولا يزال — موضع ازدهار الثقافة . وإنه لتقوم الآن في ظلاله حركةٌ مباركةٌ بعيدةٌ عن زُلفى الجماهير واقتناص الظروف . تنهض هذه الحركة في مكمن ، وتعمل في هدوء المتدين وإيمانه دون جلبةٍ أو ضوضاء . لا تفرّق في عملها بين أثر وأثر ، ولا تنظر الى هذه الآثار من خلال أسماء أصحابها ، ولذلك كان لزاماً عليّ أن أشير هنا الى هذه الحركة المباركة ، وأن أسجّل لها فضلها ، وأن أشير — بصفة خاصة الى الظاهرة الطيبة التي تلازم هذه الحركة ، وليس لها مع الأسف وجود لدينا — وهي الروح التعاونية بين رجالات الأدب والفكر هناك ، فهم يكوّنون جماعاتٍ تختلف أسماءً ولكنها في الحقيقة موحّدة الغاية تكاد تكون موحّدة الشخصيات ، تنظر الى قيم الأشياء لا إلى أسماء واضعيها والرغبة في استغلال هذه الأسماء .

وقد ظهرت بهذه الروح التعاونية الطيبة صحفٌ ، في مقدّمتها مجلة (الأديب) تعمل مضحية في سبيل هدفها بكل ما أوتيت من قوّة لتؤدّي رسالتها . ولعلّ التشجيع الذي لقيته والشعور الذي بدا نحوها منذ أشهر قلائل يعدُّ خير تقدير لتضحياتها .

* * *

وآخر ما ظهر لهذه الحركة — وهو ما أردنا الإشارة إليه — هاتان المؤسستان الفكريتان القائمتان على دعائم قوية من عقول متكرةٍ وأذهانٍ واعيةٍ وأبصار متفتحةٍ وقلوبٍ نابضة بالحياة عامرةٍ بالإيمان في مستقبل الثقافة العربية .

الأولى (دار العلم للملايين) يرأسها الأستاذ منير البعلبكي ويديرها الأستاذ بهيج عثمان وتشرف عليها لجنة من العلميين وقد اجتمع لها رصيدٌ وافرٌ من قادة الفكر هناك أمثال الأساتذة رئيف خوري، وعمر فرّوخ، ومارون عبّود، وسهيل إدريس، ونقولا فياض، وغيرهم وكلٌّ منهم غنيٌّ عن التعريف. وقد استطاعت هذه الدار الفتية خلال فترة قصيرة من الزمن أن تثبت وجودها وحيويتها وتستأثر بإعجاب المقدّرين لجهودها، وأن تخرج لقرّائها في العالم العربي ألواناً متعددة من الثقافة في النواحي السيكولوجية والجنسية والسياسية والأدبية، وأن تضع رسائل قيمة عن أعلام الحرية لتكون دروساً لأبناء الشرق في الوقت الذي تتفتح فيه الأبصار لنور الحرية وترهف الأسماع لندائها في كل مكان.

وتُعنى هذه المؤسسة بما تقدّمه من ألوان الثقافات بحيث تزوّد القارئ العربي بالعلم المبسط عامة على إنشاء شخصيته إنشاء جديداً يقوم على المعرفة والتفكير والوعي القومي.

ولم يقف جهودها عند إبراز مؤلفات أو ترجمات أبنـاء القطر الشقيق بل تعدّاه الى غيره من الأقطار العربية، وكان لمصر نصيبٌ من هذه الرعاية.

* * *

أما المؤسسة الثانية فهي ذلك المشروع الذي دعا إليه الأديب المفكر اللبناني الأستاذ ميشال أسمر فلقي من التشجيع ما حمله على مواصلة السعي في سبيل تحقيق الفكرة التي تقوم عليها هذه المؤسسة (الندوة اللبنانية) التي تساعد الراغبين في مواصلة ثقافتهم العامة في جوّ من العلم الصحيح وإخراجهم من الجمود العقلي على أيدي أصحاب الاختصاص وقادة الرأي في لبنان، فإنّ هناك لكل راغب متعةٍ ما يهيّئه الحصول على بغيتـه من أندية رياضية ودُور ترفيه إلاّ الندوة التي تثقّف العقل تثقيفاً صحيحاً فقد حرم الراغبون فيهـا من وجودها حتى استطاع الأستاذ ميشال أسمر تأسيسها، واجتمع له فيها من خيرة رجال الفكر والأدب والفنّ ما تفخر بهم العروبة جمعاء قبل أن يفخر بهم لبنان. ثم أخرج لهذه الندوة نشراتٍ تضمّ كلٌّ منها بعض ما أُلقي في الندوة من محاضرات. وقد ضمت النشرة الأولى ثلاثاً من أنفس المحاضرات لثلاثة من ألمع المفكرين: الأول الأستاذ كمال جنبلاط وزير الاقتصاد الوطني والزراعة والشؤون الاجتماعية عن رسالته كنائب. والثاني الأستاذ الجاحظ الكبير

فؤاد إفرام البستاني عن لبنان في ما قبل التاريخ . والثالث الشاعر الكبير الأستاذ أمين نخلة عن الحركة الفنية في لبنان في العقد الأول من القرن العشرين .

وستتابع الندوة نشر محاضراتها التي أعدت لها من رجال الفكر ما يضمن تحقيق الغاية الكريمة التي أسست من أجلها .

***

وما دمت بصدد تسجيل هذه الحركات الثقافية ، وما دام قد ذكر اسم الأستاذ فؤاد إفرام البستاني ، وفضله على الأدب العربي — قديمه وحديثه — غير منكور ، فانه لجدير هنا أن أسجل شيئاً آلمني لا استطيع كتمانه وتقرير الحق فيه لأن الحق فوق كل اعتبار .

فلقد وقع لي أخيراً أن اطلعت على جزء من سلسلة « الروائع » التي أخرجها الأستاذ فؤاد البستاني . وهذا الجزء خاص بالكلام على ابن بطوطة ورحلته . وقرأت المقدمة النفيسة التي كتبها عن هذا الرحالة وعن قيمة رحلته وعناية المستشرقين بها ، وذلك التبسيط والتلخيص الوافي الذي قام به الأستاذ البستاني لهذه الرحلة ، فعجبت أن أجد شيئاً يعدم شعوري ، ذلك أن اثنين من كبار رجال وزارة المعارف في مصر — وقد انتقل أحدهما الى جوار ربه — قد وجدا من مقدمة البستاني عوناً لهما عند ما كلفا تهذيب هذه الرحلة فنقلاها بشيء من التحوير قليل في بعض الألفاظ ، على أنهما لم يستطيعا أن يسيرا في طريق خاصة فسايرا البستاني في طريقة العرض مما يدل على أنهما قد أخذا عنه دون أن يشيرا الى هذا الرجل بكلمة أو يشيرا الى الطريقة التي اتبعها في تبسيطه لهذه الرحلة على أقل تقدير ليكون إنصافاً لهذا الرجل على عمله وهو عمل ليس بالهين . فأردت أن اتخذ من هذه المناسبة وسيلة لتقرير حق لا يقرُّ لنا في السكوت عليه ضمير حي ، ولا يمنعنا من اثباته واذاعته موت أحدهما رحمه الله وأمد في أجل زميله فلكلٍّ منهما فضله ، لعلَّ وزارة المعارف ترى الاشارة الى عمل البستاني وفضله عند إعادة طبع تهذيب رحلة ابن بطوطة فيؤدَّى للحقيقة والتاريخ واجبهما وهو واجب جدير بالرعاية .

حسن كامل الصيرفي

الله

وفلسفة الوجود

منذ مدة غير بعيدة كتب الأستاذ العقاد مقالاً في مجلة الرسالة بعنوان « عقدة فلسفة » (أو ما هو بهذا المعنى) ثم أصدر كتابه عن الله . وفيه بحث مستفيض عن الوجود منذ شرع الانسان قديماً يفكر في سرّ الوجود الى يومنا هذا . فقد استعرض فيه أقوال السحرة والكهنة والحكماء والفلاسفة والفقهاء واللاهوتيين والعلماء المتقدمين والمتأخرين . فما أغفل نظرة تناظر في أصل الوجود ، وخالق الوجود ومدبر الوجود ، ولا أهمل عقيدة لمعتقد أو حكيم أو كاهن أو فكرة لمفكّر أو فلسفة لفيلسوف أو رأياً لعالم . سرد جميع نظريات البشر في موضوع الله والوجود وعجمها . وما أكثرها نظريات وما أعقدها تراكماً وما أهدها تضارباً ، وما أشقها تحليلاً وتصريفاً ، وأصعبها تعبيراً

الوجود وسبب الوجود كانا ولا يزالان حيرة هذا الانسان منذ تفتحت بصيرته وبدأ عقله يتعقل وذهنه يستنير بنور الهدى ، ووجدانه يتعجب بعجائب هذا الكون ومدبر حركته

عجائب حركات هذا الكون طرقت باب كل عقل ، وحاولت بعض العقول تفسيرها بكل ما أوتيت من علم سابق وقوّة تفكير حاضر . ولكل ذي فكر رأي فيها خاص به . فتعددت الأفكار والنظريات في هذا الموضوع بتعدّد المفكرين . فلا ترى مفكرين أو نظريتين أو عقيدتين متوافقتين .

لا نستطيع أن نستخرج من توالي المباحث في أصل الوجود ، وتعاقب العقائد في حقيقة الله تعريفاً لله ومعرفة لصبغة الوجود إليه .

ما هو الله ؟

لكل قبيل من الناس الإلهُهُ ، ولكل قوم في كل عصر الإلهُهُ . الله المصريين الفرعونيين شيء ، والله البابليين شيء ، والله الاسرائيليين شيء الخ . حتى الله الاسرائيليين لعهد موسى هو غير الإلهيم اليوم .

كان الله الإسرائيليين إنساناً عظيماً يكلم موسى على جبل الطور . ويمكن أن يستدرك

هذا القول بأن هـذا التكليم مجازي . فما هو إلاَّ إيحاء . ولكن ما فوق بأن الله كتب بأصبعه وصاياه على اللوحين الحجريين مرتين . وكان في جبال نبو جنوبي القدس بعثة أميركية يهودية تبحث عن تابوت العهد الذي يتضمن هذين اللوحين في احدى المغاور حيث خبأ أرميا ذلك التابوت من وجه نبوخذ ناصر الذي فتح القدس وساق اليهود مسبيين الى بابل .

كانت هذه البعثة بعد الحرب الكبرى السابقة تبحث عن هذا التابوت لأنهم يقولون إن الله لا يسمح بعودة اليهود الى فلسطين ما لم يجدوا تابوت العهد هذا. والى اليوم لم يجدوه .

هذا هو الله الاسرائيليين . وكان اللهيم قائد جيش الاسرائيليين الأعلى (جنرالیسّمو) وقد لقبوه يَهْوَه رب الجنود . وكان يقودهم في الحرب تلقاء الأمم المجاورة لهم .

والله عند الكتابيين الآن يختلف باختلاف عقائدهم الدينية . فهو عند اليهود الآن أرق قليلاً مما كان ، ولعله أصبح أقرب الى الروح منه الى المادة . وعند المسيحيين في وحدانيته التثليث . وعند المسلمين هو الله الواحد الأحد الذي لا شريك له .

وقدرة الله وارادته في الأديان الثلاثة تختلفان بعض الاختلاف من حيث شأنهما في الحرية والاختيار والمعجزات والقضاء والقدر الخ .

وفي كثير من العقائد ترى الله عقلاً أو ذاتاً عقلية . والراجح أنه صائر في المستقبل الى انه فكرة سامية في عقول الأنام .

ولا أدلَّ على جهل الورى حقيقة الله وصفاته من اختلافهم فيها واحتدام نقاشهم بدأنها حتى اضطرامهم في الحروب بسببها .

اثبات وجود الله

كم حاول اللاهوتيون والفلاسفة ان يثبتوا وجود الله بالبراهين العلمية والمنطقية فكانت براهينهم تترنَّح تحت وطأة النقد .

لا يثبت وجود الله ولا تظهر حقيقته بالبراهين العلمية ولا بالفلسفة والمنطق . ولا تنحصر معرفته بالفلاسفة والحكماء . وإنما يثبت وجود الله بالهدى والايمان لأي إنسان، عالماً كان أو ساذجاً ، وقد قالها القرآن الشريف بصراحة ووضوح : —

« من يهدي الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشداً » . « إنك لا تهدي من أحببت . ولكن الله يهدي من يشاء »

« قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء »

« ما كان لنفس ان تؤمن إلاَّ باذن الله »

« قل ان الهدى هدى الله »

وكثيرٌ من أمثال هـذه الآيات التي تدلك على ان الله لا يعرف بالفلسفة والعلم . وإنما يهتدى إليه باذنه تعالى ومشيئته فقط . لا بثبت بالوعي والوجدان .

وفي رسالة بولس الرسول لأهل رومية الاصحاح الثامن والعدد ٢٩ — ٣٠ ما يؤكد لك ان الله منـذ الأزل عيّـن المؤمنين وعين الجاحدين : — « الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم .... والذين سبق فعينهم فهؤلاء دعاهم أيضاً . والذين دعاهم فهؤلاء برّرهم أيضاً . والذين برّرهم فهؤلاء مجدهم أيضاً » .

اذاً فما فائدة اجتهاد العلماء والفلاسفة واللاهوتيين في اثبات وجود الله لاناس لم يأذن الله لهم بالإيمان ولم يهدهم الله ، ولم يسبق الله أن عينهم للايمان وبرّرهم منذ الأزل

تقرأ في سياق مباحث الأستاذ عن محاولة أولئك الفلاسفة تعريفاً لله واثباتاً لوجوده فترى فيها من السخافات ما لا يقوم على منطق سليم ولا يصدر عن ذهن صاف وعقل مستقيم

واذا كان في رأي بعض الفقهاء انه « لا يعرف الله غير الله » فكيف يستطيع الفلاسفة أن يعرفوا ويمرّفوا ما يستحيل أن يقع في دائرة حكمتهم وفلسفتهم . ولماذا اعتاف الفكر في هذا الاجتهاد ؟ .

الله هداية لا فلسفة .

الوعي الكوني

أستأذن الأستاذ في أن اشترك معه في البحث عن بعض المواضيع لعلّي في هذا الاشتراك حافزاً لفريق من القراء الى البحث والتفكير في موضوع جدّ خطير .

ملاحظة طفيفة — الوعي كلمة طرأت حديثاً على اللغة العربية في مباحث الفلسفة العقلية أو علم العقل . وهي تقابل في نظر علماء هذا العصر كلمة Consciousess الانكليزية ، ولكن الكلمة العربية في عرف علماء العقل القدماء لهذا المعنى هي «الوجدان» ومعناها «أن تدرك أنك تدرك وانك موجود » . « والوعي » في معجمات اللغة مصدر الفعل « وعى » بمعنى احتوى . فاذا كان الجمع اللغوي يقرر هذا المعنى فلا بأس بها . وانما نريد اصطلاحاً مقرراً يجري عليه جميع العلماء والكتاب

يريد الأستاذ أن يقول إن ادراك الانسان للوجود ادراك وجداني — ادراك « بالوعي الباطني » كالغريزة والسليقة . أي ان هذا الادراك من طبيعة الخلق البشري . والأستاذ لا يسلم بتعريف الشيء الموجود بانه « الشيء الذي ندركه بالحواس أو بالعقل أو بالبصيرة » لأن هذا التعريف يطلق في نظر الأستاذ وجود الشيء على مدركه . وبرفضه لذلك يصبح الشيء غير موجود اذا كان المدرك غير موجود

وفي رأيه ان الموجود يعرف بأنه « غير المعدوم »

أني لأجل الأستاذ الكبير عن الاقناع بهذا المنطق الكلامي.

أي معنى تفيده عبارة « غير المعدوم » زيادة على « الموجود » . أليست عبارة « غير المعدوم » مرادفة لكلمة « الموجود » لا مفسرة لها ؟ بل أليست كلمة « موجود » أوضح من عبارة « غير المعدوم » ؟ أتعرف الشيء بما هو أخفى منه ؟ وماذا نستفيد من القول « ان ما ليس بمعدوم فهو لا محالة موجود » ؟ أما هو تحصيل أقل من الحاصل ؟ وهل المعدوم وجود ؟ . وما لا وجود له كيف تعرف به وكيف تجعله أداة تعريف ؟ !

ثم يسترسل الأستاذ في مثل هذا المنطق الى أن يقول : « من الواجب ان نسلم بقيام موجودات لا تحيط بها الحواس والعقول يعني موجودات مجهولة ، لأن انكارها جهل لا يقوم على دليل . ولأن وجودها يمكن وليس بالمستحيل ، بل هو ألزم من الممكن (كذا) على التحقيق »

بالله ما هي هذه الموجودات المجهولة التي يشير اليها الأستاذ ؟ والتي يمكن وجودها ولا يستحيل ؟ لأن كان يعرف موجوداً يجهله غيره فليس هذا بمجهول لأنه يوجد شخص يعرفه وهو الأستاذ . فليعرفنا الأستاذ به وليقل لنا ما هو ؟ وان كان حسنا أو عقلنا يدلنا عليه فما هو بمجهول أيضاً .

هل المجهول تعريف ؟ هو كالمعدوم الذي استخدمه آنفاً لاثبات الموجود . فله إذن أن يقول : إن المجهول هو غير المعلوم . فاذا يفيدنا هذا القول عن المجهول ؟ أم انه يفرض فرضاً موجودات لا دليل حسي ولا عقلي عليها ، وينهاك عن أن تنكرها لئلا تكون جاهلاً ويحي ؟ أنكر ماذا ؟؟؟ أأنكر وجود المجهول ؟ أي مجهول هذا ؟ وهل للمجهول وجود ؟ أعني المجهول المطلق الذي يجهله كل عقل.

هذا هو منطق الذين يتطوحون في الفروض الى ما وراء الطبيعة .

مثال ذلك يقولون : لا تستطيع أن تنكر وجود الكهربائية أو المغنطيسية إذا كنت تجهل ماهيتها . أجل ليس ضرورياً أن أعلم ماهيتها لكي أعترف بوجودها . يكفي أن أعرف مفاعيلها الدالة عليها لكي أقر بوجودها . كذلك « الحياة » لا أعرف سرها ولكني لا أستطيع أن أنكر وجودها لأني أرى مفاعيلها من ولادة ونمو وتوليد وموت . ولأني أشعر وأعرف أني انا حي .

وقد تقول لي : يجب أن نسلم بوجود عالم آخر وراء هذه العوالم التي نشعر بوجودها بواسطة حواسنا وعقولنا وأدوات رصدنا . ولا نستطيع أن ننكر ذلك العالم المفروض وان كنا لا نشعر بشيء من أعراضه ولا نحس بوجوده بمشاعرنا وأدوات رصدنا .

وأنا أسألك بدوري . ما هو هذا العالم الذي تفرضه ؟ أن كان من طبيعة عوالمنا هذه فخواصه كخواص عوالمنا هذه من حركة واشعاع الخ . وإذن فلا بدّ أن نحسّ به بواسطة حواسنا وبراصدنا مهما توارى وبعد . وإذن أيضاً فلا بد أن يكون من جملة عوالمنا فهو موجود بوجودها . وإن كان بعيداً من عوالمنا بحيث لا تصل إليه مشاعرنا وأدوات رصدنا ، فكيف عرفته أنت ؟ وإن كنت تفرضه قياساً على العالم الموجود فأنا أظل أنكره الى أن تأتيني بدليل محسوس على وجوده . وإلاّ ففي امكاني أن أفرض ألف فرض ولا دليل حسي عليها وأقول لك لا تستطيع أن تنكر وجودها

وإن قلت أن عالمك المفروض يختلف عن عوالمنا التي نحس بوجودها يختلف بخواصه عنها كل الاختلاف فلا تقع خواصه تحت حواسنا ، ومع ذلك توجب علينا أن نعترف بوجوده . فأسألك هل تستطيع أن تصف هذا العالم المجهول ولو بصفة واحدة مدركة حسّاً وعقلاً ؟ طبعاً لا تستطيع أن تصف المجهول وإنما أنت تفرضه فرضاً

إذن فلك أن تفرض ما تشاء من فروض مجهولة غير محسوسة وغير معقولة وأن توجب عليّ أن أسلم بوجودها وتحظر عليّ انكارها . ولكن بكل أسف أقول ليس لك هذا السلطان أن تفرض وتحتم بالتسليم .

وقد تأتيني بمثل لفرض لا دليل عليه والعلماء فرضوه ويسلمون بوجوده وهو الأيثر . فهو فرض غير أكيد الوجود . نعم انه فرض لا دليل ايجابي عليه . ولكنه يفسر كثيراً من ظاهرات الطبيعة . وكثير منها لا يفسر إلاّ بفرضه كالامواج الكهرطيسية التي تقتضي وجود شيء متموّج هو الايثر المفروض ، ولكن لا دليل على وجوده إلاّ هذا الدليل السلبي . ومع ذلك ينكر بعض العلماء وجوده . وبعضهم يقولون لا غنى عنه وان كنا لا نجد دليلاً حسيّاً عليه . وما فرضناه إلاّ ليكي نفسر به الظاهرات الطبيعية . فهو كالكمية التي تضاف الى جانبي معادلة جبرية ليكي يسهل حل القضية الرياضية بها . فالكمية تسهل الحل ثم تخرج من المعادلة كما دخلت من غير أن تفسدها . أو هو كالوسيط الكيماوي الذي يستخدم للحل والتحويل والتركيب ثم يخرج كما دخل ، كالماء مثلاً الذي يستخدم في استخراج الايثر الكيماوي من الكحول (السيرتو) ثم يخرج كما دخل

هكذا الايثر الكوني يدخل في تفسير الظاهرات الطبيعية ثم يخرج منصوراً . وعلى الرغم من فائدته العظيمة هذه في التفسير والتعليل ينكر العلماء وجوده لأنهم لم يستطيعوا اثباته عمليّاً أو معمليّاً بالبرهان الحسي . فاذا كان هذا هو شأن الايثر الكوني الذي هو بركة ونعمة للعلوم الطبيعية وقد أنكروا وجوده ، فما تقول بالمجهول الذي لا دليل على

وجوده لا حسي ولا عقلي ولا بواسطة كالوسيط السكي في الجبر وكالوسيط الكيماوي في الكيمياء ؟

أوليس غريباً أن يقول الأستاذ لنا « إن انكار الموجودات التي لا تحيط بها الحواس ولا العقول جهل لا يقوم عليه دليل » بالله ما معنى هذا القول : ليس في الدنيا شيء يثبت نفسه بنفسه (Self Evidence) مثل الجهل . ثم كيف نعرف بوجوده اذا لم تحط به حواسنا وعقولنا ؟

كيف تطلب يا أستاذ من المنكر بينة . وفي الفقه العالمي « البينة على المدعي وما على المنكر الاّ اليمين — أو الايمان » .

نعود الى الوعي الكوني

غرض الأستاذ أن يقول لنا إن هناك موجودات نعرفها بالفطرة أو بالغريزة أو بالبديهة وما الى ذلك ، فلا ضرورة للحس والعقل لادراكها .

كذلك يستنكر الأستاذ أن نعرف الموجود « بالشيء الذي ندركه بالحس أو بالعقل أو بالبصيرة » . ويريد أن يجعل الوجدان الكوني أو « الوعي الكوني » وحياً أو على الأقل معجزة طبيعية في الانسان . يعني أن معرفة الوجود خلقة فينا أو بديهة في الانسان . لانه ما دام الموجود غير معدوم فهو موجود . ولأن الأستاذ يخشى أنه إذا كان كائن لا يحس ولا يعقل وليس بذي بصيرة ينتفي الموجود من الوجود بتاتاً متى كان لا يحس بوجوده .

طبعاً اذا لم يكن ثمت عاقل يحس ويعقل ويستنتج فلن يكون الوجود موجوداً . يكفي أن يكون الأستاذ وحده ، وإن أمكن أن أكون أنا أيضاً معه — موجودين بحسنا وعقلنا لكي يعتبر الوجود موجوداً . وإلاّ فلا وجود ولا موجود ما دام لا حسّاس يحس ولا عقل يتعقل ويستنتج دليلاً على وجود الموجود . والأستاذ يريد أن يثبت الوعي الكوني من غير حسّ وتعقل لكي يقول إن الله موجود بالبديهة أي الوعي الكوني .

الحق انه لا غنى عن حواسنا وعقولنا وتعقلنا لادراك الموجودات . كل ما في أذهاننا من أفكار وتصورات وذكريات دخل الى عقولنا عن طريق مشاعرنا . ولولا مشاعرنا لما كنا نفهم ونتفهم ونتعقل ، ولكنا والجماد سواء ، ولا فرق الاّ في الحركة والحياة .

معقولاتنا من الخارج

إن قوانا العقلية ظهرت فينا من مفاعلة الظاهرات الطبيعية الخارجية لخلايات جهازنا العصبي ولا سيما الدماغي ، فسمينا هذه المفاعلات مدركات محسوسة Percepts ثم حدثت

تفاعلات بين هذه المدركات الاحساسية في خلايا دماغنا فسميناها مدركات ظنية أو تصورات Concepts كالتعقل والتذكر، الخ، ثم حدثت تفاعلات بين هذه بعضها مع بعض فكانت تعقلات واستنتاجات وتعليلات فسميناها مدركات عقلية. كل هذه نشأت على التوالي من دخول المدركات الحسية الى الدماغ عن طريق الجهاز العصبي الذي هو آلة الابصار والسمع واللمس الخ. فالتعقل وتعقلاته المتنوعة مدينة بنشوئها ونموها وتمامها من أفضال على الجسم لهذا الجهاز العصبي وطواعيته للانفعال بأمواج الظاهرات الطبيعية — الامواج الكهرطيسية.

لا فكرة ولا صورة ولا خيال يصدر ابتداءً من داخل الدماغ. لا يصدر بالالهام ولا بالفطرة ولا بالبديهة بل من تلك التفاعلات الحسية. والوعي الكوني ان كان موجوداً فما هو من عمل العقل الداخلي وإنما هو من فعل خارجية الحواس التي تتلقط من العالم الخارجي مدركاته الحسية، وتسديه للمراكز الدماغية، وهذه تتصرف به بحسب قوانينها التطورية، وهذه تصدر الوعي، أو بالاحرى، الوجدان، الكوني. إذاً فلا يستغني الوجدان عن الحس، ثم التعقل. كما أن هذين لا يستغنيان عن الجهاز العصبي والمراكز الدماغية. وهذا الجهاز هو الباب الشرعي لدخول العالم الخارجي الى عالمنا العقلي. فلا «وعي كوني» يصدر من داخلنا بمثل الالهام أو البديهة.

لا تظن أني بهذا القول أنكر الفطرة والغريزة والسجية والبديهة إلى غير هذه التي تتراءى لنا إنها من مواليد عالمنا الداخلي. بل بالعكس أؤكد أن هذه السجايا نشأت مع الزمان من طوارىء العالم الخارجي على الجهاز العصبي والدماغي المتوالية بلا انقطاع منذ ملايين السنين حتى صارت سجايا أو غرائز فصارت تجاوب على الفور الطارىء الخارجي الأصيل الذي أنشأها. فالطفل يمتص حلمة ثدي أمه حالما تمس شفتاه به، لأنه منذ قديم الأزل كان ثدي الأم يطرأ على شفتي الطفل، وعلى تعادي التطور مع الدهور تمرنت عضلات شفتي الطفل على التحرك بمقتضى هذا الإحساس بالثدي والعمل بمقتضى الامتصاص. فصارت عضلات الطفل لا وظيفة لها الا الامتصاص. فلما أحست بالثدي افتعلت وظيفتها. هذه هي الغريزة. وتسميتها غريزة أو فطرة وما إليهما إنما هو من هذا القبيل. وفي كل حال وكل حين هي استجابة الاحساس بالعوامل الخارجية.

فاذا كان ثمت وعي كوني فلا غنى له عن الحس العصبي والتعقل. وإذن فالشيء الموجود من غير بد هو ما ندركه بالحس والعقل والبصيرة» و«تفلسفنا» الذي هو محض تعقل وتفكير واستنتاج، يرتكز على مدركاتنا الحسية. وهي المواد التي يصطنع منها التفلسف مصنوعاته — للتعقل والتخيل والاستدلال الخ. فاذا نزعت المدركات الحسية من

التفلسف تقرض صرح العقل والتعقل وانهارت الفلسفة . وسيأتي تفسير التلبثي Telepathy أي توارد الأفكار الذي نظن أنه وعي داخلي ناتج عن الإحساس الخارجي

قاصر العقل

ولكي يثبت الأستاذ أن في المدركات ما لا يأتي الى دار العقل في الخارج أو عن طريق الحواس بل هو ضرب من الالهام أو خاصة من خصائص « الوعي الكوني » بحث أبحاثاً مستفيضة فيما سمّاه الملكات النفسانية وأهمها الشعور على البعد Telepathy والتنويم المغنطيسي وقراءة الأفكار واستطلاع الماضي والمستقبل وتحضير الأرواح والكشف عن عالم الغيب ، أي رؤية الأشياء غير المنظورة بقوة البصيرة العقلية بتأثير الأشعة المغنطيسية . وانما أراد أن يتوصل بهذا البحث الى أنّ في العقل البشري هاتفاً داخليًّا يهتف بوجود الله وهذا البحث اقتضاه أن يجول جولة تفتيش في دور الفلسفة ويطوف على الفلاسفة ينتقي من فلسفاتهم أسناداً لهذه القضية

فأرجو من الأستاذ أن يسمح لي أن أقول إن هذا الهاتف الداخلي لا يأتي من داخل الانسان ابتداءً بل يأتي من الله نفسه . هو هدًى باذن الله كما نصّ عليه القرآن الشريف . ولهذا لا يهتف في كل انسان بل في من اختارهم الله كما قال بولس الرسول . ذلك لأن جميع هذه الملكات النفسانية التي بحث فيها ، مهما تراءت محض عقلية ، إنما هي ثمرات المدركات الحسية . لا مناص لهذا الهاتف من الاعتماد على الاحساس عن طريق الجهاز العصبي ، وأحياناً بواسطة التشعشع الكهرطيسي كما هو الحال في الراديو الدماغي . فهو هاتف من الخارج لا من الداخل ، ولا غنى فيه عن وساطة المادة وحركاتها . فهو بدل أن يعتبر الى الخلجات الدماغية عن طريق الأعصاب يعبر احياناً إليها رأساً عن طريق الخلايا الصنوبرية التي هي المنطقة الوسطى من الدماغ ، كما علل الفلاسفة الذين أخذ الأستاذ عنهم .

تعرق العقل والمادة

يقول الأستاذ نقلاً عن « سنبل » الذي كان يعتقد بوجود العقل المجرد (يعني المجرّد من الحواس) : « ان الجسم الصنوبري هو الجهاز الموصل بين الروح والجسد ، أو هو موضع التلاقي بين حركة الفكر وحركة الأعضاء أو الأعصاب » .

وهنا طرق الأستاذ موضوعاً من أخطر الموضوعات في الفلسفة العقلية . ولكنّه لم يجُلّ فيه بل لمسه لمساً ومضى عنه . وهو اتصال الفكر (العقل) بمادة الدماغ : كيف يتصل العقل وهو غير مادّي بناتاً بخلايا الدماغ وهي مادّية : — هذا الموضوع حيّر علماء

العقل والفلاسفة من قديم الزمان الى اليوم . ومعظمهم لا كلهم ، خبطوا فيه خبط عشواء . وأكثرهم خبطاً الفيلسوف ديكارت .

كيف تؤثر رؤية الوحش الضاري في العقل فتثير فيه الخوف (وهو mental) والتفكير السريع في كيفية الخلاص ؟ وكيف يؤثر الإحساس بالمنظر الجميل أو الغناء المطرب في النفس (العقل) ويثير فيها عاطفة السرور ؟ كيف تؤثر ثورة الغضب في النفس حتى تمنع الانسان كلاماً جارحاً . ثم بالعكس كيف يؤثر العقل على الجسد فيحمله على الهرب من الوحش الضاري أو السعي الى مغنم أو القصد الى ملذة جسمانية أو التمتع بشهوة جسدية ، وكيف يجبر العقل الوجه أن يحمر خجلاً إذا كان الانسان قد أتى أمراً مخجلاً .

يقول الفيلسوف إن الشعور الحسي والعقل المتصرف بهذا الشعور يلتقيان في الجسم الصنوبري القائم في وسط الدماغ . وهناك يتبادلان الفاعلية والمفعولية ، أو انهما يتفاعلان ويؤثر كلٌ منهما على الآخر .

حسن . كيف يحدث هذا التفاعل بينهما وأحدهما مادي والآخر عقلي غير مادي ؟ كيف يؤثر العقل في المادة وحده به ؟

نحن نعلم ان المادة لا تتحرك إلا اذا حرَّكها محرِّك . ولا نعرف محركاً للمادة إلا المحرك المادي ، والمحرك المادي فقط ، حتى الأمواج الكهربائية التي هي ألطف المحركات هي حركات مادية .

العقل عالم قائم بذاته اذا صحَّ ان يسمى ذاتاً Entity لا مادة فيه البتة . والدماغ عالم مادي بحت مستقل بطبيعته عن العقل . الطبيعتان مختلفتان كل الاختلاف . فكيف يتصلان ويؤثر كلٌ منهما في الآخر ؟ هنا موضع الحيرة .

اما خبطة ديكارت فعشواء حقاً . يقول ديكارت ما خلاصه : حقاً ان الله خلق العقل والجسد من طبيعتين مختلفتين . ولكنه جعل وظيفتيهما متماثلتين متوافقتين أي ان العقل مثلاً يخاف والجسد يهرب في وقت واحد . والعقل يغضب والجسد يضرب في وقت واحد ، كأنهما على ميعاد ولا اتصال بينهما . فهما كساعتين تحافظان معاً على وقت واحد وتتوافق تكتاكهما من غير اتصال بينهما . هكذا صنعهما الصانع . وهكذا صنع الله العقل ومادة الدماغ يعملان متوافقتين — هذه هي نظرية ديكارت . وهنا نترك للقارىء ان يزن هذا الرأي بميزان المقابلة بين المثلين .

وعقدة اتصال العقل بالجسد حملت التصوريين Idealists أن ينكروا وجود المادة بتاتاً ، ويزعموا ان ليس في الوجود إلا العقل فقط ، الذي هو فلذة من عقل الله .

وسيّد المتصوّرين هو المطران بركلي Bereley الفيلسوف فقد أبدع ايما ابداع في برهنة الفلسفة التصورية ونفي الفلسفة الواقعية Realism . فهو يبرهن لك انك غير موجود ماديًا. وما أنت إلا عقل فقط يتصور . وان كل ما تراه من ظاهرات هذا الوجود من سماء وأرض وأجرام وأقوام الخ. إنما هو من أعمال هذا العقل . والعجب العجاب الغريب أن بركلي يقنعك بهذه الفلسفة أو يفحمك على الأقل فلا تعرف كيف تسفه رأيه وكيف ترده .

مصدر العقل

لهذه العقدة الآن حل بديع وبه تُفسَّر جميع الملكات النفسانية التي أشار اليها الأستاذ العقاد وقد ذكرتها آنفاً . تفسّر أبدع تفسير وبأوضح بيان .

العقدة آتية من اننا نعتقد ان العقل ذات Entity قائم بذاته مستقل عن الجسد ونظن انه غير مادي أي انه من طبيعة غير طبيعة الدماغ المادية . والحقيقة ليست هكذا .

فاذا صرفنا النظر عن ذاتية العقل وحسبنا العقل عملاً من أعمال خلايا الدماغ (الصنوبرية أو غير الصنوبرية) أو هو أهم وظيفة لهذه الخلايا بل هو وظيفتها الرئيسية في الأقنوم الانساني، انحلت العقدة حالاً .

العقل فعل لا ذاتية ، عمل لاشخصية . عمل خليات . كما أن الضحك مثلاً عمل من أعمال الفم لا ذاتية مختلفة عن الضاحك وكذلك المشي عمل من أعمال الماشي .

ليس هناك أقنوم قائم بذاته نسميه عقلاً ، بل هناك فعل أو عمل تعمله خلايا الدماغ المختلفة المراكز والوظائف كما هو معلوم فسيولوجيًا . والأرجح ان هذا العمل يحدث بنبضات كهربائية سريعة في الجهاز العصبي على نظام لا يزال مجهولاً في تفاصيله ولا بد ان يعرف في المستقبل .

وقد ثبت في الامتحان ان في الجهاز العصبي تياراً كهربائيًا دلّ عليه الدليل الكهربائي Galvanometer الحساس جدًا، وعرف المقياس قدر قوته . فلماذا لا يكون لهذا الجهاز العصبي العظيم الشأن تيار كهربائي ؟ أليس هو مؤلفاً من ذرات ؟ أليست الذرات مؤلفة من الكترونات ؟ أليست هذه بنبوع الكهرباء ؟

فلك ان تقول إن الحوادث العقلية أو الأفعال الفكرية هي فيض الخليات Emanations كالامواج التي تنبعث من العناصر النشيطة الاشعاع ، أو تشبه النور الذي يصدر من الجسم المنير ، أو هي كالموجات الكهرطيسية أو هي هذه الموجات بعينها. وهذا الموضوع بحث جدّ خطير لمن يشاء أن يبحث بحثاً فسيولوجيًا كهرطيسيًا في الخواص العقلية Mental وهو ما ليس في طوقي .

وفي رأي أحد العلماء أن الفلسفة العقلية يجب أن تكون قسماً من علم وظائف الأجسام « الفسيولوجيا ».

إن المحسوسات الخارجية من منظورات ومسموعات ومذوقات الخ ... تأتي الى أبواب الحواس بشكل أمواج كهربائية صادرة من هذه المحسوسات ، فتحرك خلايا الجهاز العصبي — مثل العصب البصري مثلا — فتتحرك بها كل خلية في العين حتى الشبكية . وفي رأي الفسيولوجيين أن لكل خلية زُغب حولها ، فتى تحركت الزغب في واحدة حركت الزغب التي لجاراتها . وهكذا تنتقل هذه الحركة من خلية الى خلية الى أن تصل الحركة الى الدماغ فتقبلها خلايا مراكزه المكونة بشكل يستجيب للحركة الواردة من عصب الحس الخاص دون غيرها من خلايا المراكز الأخرى . هكذا يقول الفسيولوجيون . ولماذا لا نقول إن التيار الكهربائي سرى في خلايا الأسلاك العصبية الى مراكز الدماغ — لا فرق بين النظريتين

وهناك تتفاعل خلايا المركز بعضها ببعض بحسب النظام العجيب الذي يهيمن عليها جميعاً . فاذا كانت الحركة المنتقلة صورة شجرة مثلاً تحرك الخلايا حركات تمثل هذه الصورة وتشيع في منطقة التصور المشتملة على ملايين من خلايا التصور . ثم تشترك هذه الخلايا في إبداء حركة الاعجاب أو الاستهجان . ثم تتحرك بها خلايا منطقة التمليل والاستنتاج بسبب هذا الاعجاب أو الاستهجان في الشجرة نفسها . وقد تمتد الخلايا سر نشوء الشجرة ونموها الى غير هذا . وهذا هو التفكير .

وكثيراً ما يُوقّع وضع بعض الخلايا أو أكثرها توقيعاً جديداً يدوم الى حين . وهذا هو التذكار . وكلما وردت هذه الصورة الى ذلك المركز تمكن الوضع . وقد يزداد عدد الخلايا الموقعة منه فتطول مدة التذكر وتتضح الصورة فيها أكثر فأكثر

ولا محل هنا ولا مقدرة لي على تفسير حركات هذه الخلايا التي تعد بالملايين . وهي مختلفة الفئات والوظائف بحسب مقتضى الأفعال والمستقبل كفيل باتساع علم الأفعال الدماغية التي تسمى الآن قوى عقلية .

وحاصل القول إن ما اسميه عقلاً إنما هو حركات هذه الخلايا الدماغية أو نبضاتها الكهربائية وتفاعلها بعضها مع بعض . فالتصوُّر والتخيُّل والتفكير والاستنتاج والتقاسف والتذكر والسرور والحب والعطف الخ ... كل هذه مفاعيل تلك الخلايا الدماغية العجيبة التي تعد بالملايين . وهي موزعة في أمم ودول وادارات عجيبة في المخ والمخيخ والحبل الشوكي الخ

وما دام الدماغ سليماً فهذه الأمم والدول الخلوية الدماغية والعصبية تعمل أعمالها بكل نشاط وإتقان وتوافق هذه الخلايا كسائر خلايا البدن جارية على سنة الحياة ، تدثر وتتجدد

Metabolism بالافراز والتغذية . ولذلك يطرأ عليها التعب أحياناً فيضعف نشاطها ونشاط العقل معها. واذا طرأت عليها السموم كفعل الخمر أو المخدر أو نحوها انشلت فقد يختل عملها ويختل نظامه، وقد يبطل أو يتعطل الى حين كما يحدث في استعمال الكلوروفورم المخدر . وتحت لا يبقى ما نسميه عقلاً، حتى إذا زال فعل المخدر عادت الخلايا الى عملها وعاد العقل والتعقل. ومتى حدث الموت لا يبقى عقل لأن آلاته تعطلت، ولا يبقى بعد ذلك إلا التراب أو العناصر التي تألف الجسم منها .

وفيما أنت تلاحظ الطفل في غضون نموه تلاحظ جيداً كيف ينمو العقل معه بنمو دماغه، حتى إذا نضج الدماغ نضج العقل معه ، لأنه ليس الا من مفاعيل خلايا الدماغ .

أما وقد علمت أن العقل هو عمل لا ذات ، أي ليس أقنوماً قائماً بذاته ، سهل عليك جداً أن تعلل توارد الخواطر Telepathy بأن الحركات الخلوية — حركات خلايا الدماغ المختلفة — تصدر نبضات كهربائية مختلفة دائماً وهذه تنتشر في الفضاء ككل تشعع ، وتصدم في طريقها ملايين الأدمغة وتحدث فيها حركات تضارع حركات الخلايا التي أصدرتها وتنقضي كلمح البرق فلا تقف الخلايا عندها . وكثيراً ما يقول شخص من الناس . « ما الذي أخطر هذا الخاطر ببالي الآن ؟ وما أنا على انتظار له ولا أنا في حاجة إليه ولا لي شأن به. ولكن إذا كان له شأن به كأنه وارد من دماغ قريب أو صديق فتنبه له خلايا دماغه وتتفاعل تفكيراً فيه — هذا هو التلبثي .

على هذا النحو يُفسَّر التنويم المغنطيسي والكشف ونحوهما . ولا تجد صعوبة في تفسيرها . وإنما تجد كل الصعوبة في تفسيرها اذا كنت تعتقد أن العقل ذات مستقل بطبيعته عن المادة ومحل الدماغ . واحتلاله له يحتاج الى تفسير هو أخو المستحيل .

الزمن

ثم ساق الموضوع الاستاذ الى البحث في الزمن لكي يرينا أن من مقتضيات « الوعي الكوني » انه يمكننا الاطلاع على المستقبل فيما نحن في الحاضر . فأتى على أوهامنا المختلفة بشأن سير الزمن فمثّله « كبحر يزداد قطرة كل لحظة ويمتلىء شيئاً فشيئاً ويبقى فيه فراغ المستقبل المعدوم . أو هو كمحيط شامل لما كان وما هو كائن وما سيكون . أو هو كخط ممتد والأوقات المتتابعة كالنقط المنطوية فيه . أو تتخيّل الزمن قابلاً للتجزئة وأجزاؤه محدودة ، فمجموع المحدود محدود . واذا كان الزمن أجزاءً وكان محدوداً كأجزائه فقد بقي أمامنا الأبد الذي لا ماضي فيه ولا حاضر ولا مستقبل ولا ابتداء ولا انتهاء » — هذا هو قول الاستاذ .

وأخيراً يقول الاستاذ : « من الجائز ان المستقبل معدوم في الزمان المتقطع ، موجود في الأبد الذي ليس له انقطاع » ؟؟؟

« ومن الجائز أن يكون الزمن نفسه متعدد الأبعاد فيتلاقى فيه شيء من الحاضر وشيء من المستقبل في بعض تلك الأبعاد » ؟؟؟

« ومن الجائز ان المستقبل يكشف لعقل الانسان عن ايحاء العقل الأبدي المطلع كما يطلع على ما حصل وما هو حاصل بلا اختلاف . وقد جاز أن ينتقل علم من عقل انسان الى عقل انسان فيتطبع فيه بالتوجيه والايحاء كأنه منظور ومسموع . فلماذا لا يجوز ان تنتقل وقائع المستقبل الى علم الانسان الحاضر من العقل الأبدي . وهل نستطيع أن نقرر وجود العقل الأبدي دون أن نقرر إنه مطلع على كل الأبد الابيد » ؟؟؟

« فالذي يجزم باستحالة الاطلاع على المستقبل عليه أولاً ان يجزم بالصورة الصحيحة للزمن ، ويجزم بأنها لا توافق الاعتراف بوجود المستقبل على وجه من الوجوه .

« وعليه ثانياً ان يجزم باستحالة العقل الأبدي واستحالة الايحاء منه الى العقول الانسانية »

« وعليه أن يقيم الدليل على هذا المستحيل أو ذاك المستحيل ولا دليل » — انتهى كلام الاستاذ

فما الذي نفهمه من هذه الجوازات المختلفة في موضوع واحد هو الزمن . أيثبت آنفاً ان العقل هو عمل خليات الدماغ . فما هو العقل الأبدي ؟ هل هو من هذا النوع وكيف يكون ؟

اما عن الزمن فليس على القارىء ان يُمعن ذهنه في تفهم هذا الشرح الذي شرحه الاستاذ وهو متعدد الجوازات وليس على الاستاذ ان يجهد عقله في تبيان ماهية الزمن لأنه :-

ليس للزمن وجود بتاتاً . لا هو ذات ولا هو عرض . ما هو بشيء سوى عبارة عن حركات الحوادث الكونية المتتابعة . ليس في الكون غير مادة متحركة والزمن هو مقياس حركة المادة . فاذا فرضنا ان «ماكينة» حوادث الكون Machine تعطّلت انقطع دابر الزمن . والذين يقولون دار الزمن دورته أو دار دولاب الزمن لم يخبثوا وان كانوا لا يعلمون (أو يعلم بعضهم) معنى هذا القول الذي هو تتابع حركات العوالم . فالزمن هو مقياس الحركة . ومتى دارت الكرة الأرضية دورة على محورها تقول مضى من الزمن ٢٤ ساعة ، تعني مرة كذا وكذا من الحوادث المتتابعة . ومتى أتمت دورتها حول الشمس قلنا مضى من الزمن سنة . وما مضى إلا حوادث السنة .

اذا بطل دوران الأفلاك جميعاً وبطلت الحوادث التي تنجم عن هذا الدوران لا يبقى ما يقال له زمن. فعلامَ اجهاد الفكر في تبيان ماهية الزمن وهو أمر بسيط واضح.

أما الماضي فهو الحوادث التي تعاقبت. وأما المستقبل فهو الحوادث المتعاقبة المنتظرة. وأما الحاضر فلا معنى له سوى أنه الحد الوهمي الفاصل بين الماضي والمستقبل.

لولا حركة المادة لما كان زمان.

وكذلك لولا وجود المادة لما كان مكان.

فوجود المادة خلق المكان. وحدوث حركة المادة خلق الزمان.

تصور جميع أجرام السماء وذرات الأرض غير موجودة فكيف يتراءى لك المكان — الحيّز الذي كانت المادة تشغله — ألا يهولك العدم المطلق؟ وما هو العدم المطلق؟ هو اللاشيء. فالمكان اذاً لا شيء. هو العدم، غير موجود. لماذا؟ لأن المادة تجعل للمكان حدوداً. فاذا زالت المادة زالت الحدود فكيف تتوهم المكان بلا حدود.؟

نوجز القول: المادة أوجدت المكان، وحركتها أوجدت الزمان. فالمكان والزمان، لولا المادة وحركتها، هما عدمان.

حين نقطع الزمن الى أزمنة وفترات أو أوقات أو قرون أو عصور أو دهور فنكون قد جعلنا حدوداً أو فواصل للحوادث المتعاقبة. وإذا قلنا الألف سنة الماضية عنينا الحوادث التي توالت في الألف سنة الماضية — الألف دورة التي دارتها الأرض حول الشمس.

وإذا قلنا المستقبل عنينا الحوادث المجهولة التي ستحدث في المستقبل. وإذا جئنا نتنبأ عن المستقبل فلا يمكننا أن نتنبأ إلاّ عن حوادث نعلم انها لا بد أن تحدث من جراء انها دورية كقولك في المساء «غداً صباحاً ستشرق الشمس». فلا نبأ لنا عن حوادث المستقبل إلاّ ما نتوقعه منها بناء على توالي مثلها في الماضي من الحوادث الدورية.

ومع ذلك لا يتجدد دور كالدور الذي سبقه تماماً. لا بد من اختلاف ولو طفيف بسبب تضارب الحركات الكونية. فليس إذن تحت عقل أبدي يوحّي لنا ما سيكون في المستقبل غير ما نتوقعه منه بناء على وحي دوران دولاب الزمن كما خبرناه في الماضي. هو مقايسة المستقبل على الماضي مقايسة غير دقيقة. لأن هذا الدولاب يختلف كل دورة عن أخرى، وكل ما هو تحت الشمس جديد. ولا قدرة لنا على ضبط ذلك القياس.

للقارىء أن يطلع على فصل «الزمكان» في كتابي «هندسة الكون على أساس النسبية» الذي صدر من ادارة المقتطف في يوليو سنة ١٩٣٧ فيجد بحثاً طريفاً واضحاً في الزمان والمكان اللذين أجملتهما في كلمة «الزمكان».

لا ريب أن الماضي ينطوي على ممكنات حوادث المستقبل كما تنطوي البذرة على أغصان الشجرة وأوراقها وثمارها . ولكن من يستطيع أن يتخيل شكل الشجرة قبل أن تفرخ البذرة وتنمو الى أغصان فورق فثمر . جل ما نستطيع أن نتنبأ به عن مستقبل البذرة أنها ستكون شجرة ويكون ثمرها من جنسها . فبذرة اللوزة يكون ثمرها لوزاً . فحوادث المستقبل ليس في طوق العقل البشري أن يتنبأ بها ولا سيما لأن سبل الحوادث لا تعد ولا تحصى. وكثيراً ما تكون متقاطعة وقليلاً تكون متوازية . ونتائج القوى المتقاطعة أو المتعامدة تخالف اتجاهاتها كما هو معلوم في علم الطبيعة . المستقبل مطوي في الماضي، ولا نفهم كيف ينشر هذا المطوي .

إذا تمادينا في هذا البحث دخلنا في موضوع القدرية والجبرية والاضطرار والاختيار . وهو موضوع كتاب لا موضوع مقال . وجل ما يمكن أن نقوله أن المصادفة غير موجودة في حوادث الكون . لكل حادث سبب أو أسباب . ولكن ليس في طوقنا أن نعرف سلاسل الأسباب . وقد نعرف المباشر منها ونجهل الحلقات التي قبله من السلسلة .

هل الله عقل

بعض الفلاسفة الذين أورد الأستاذ العقاد فلسفتهم يرتأون أن الله « عقل » . ومنهم من يعتقدون أن العقول تسلسلت منه . ومنهم من لا يقولون هذا . والذي يحملهم على هذا القول هو أن هذا الكون مسير بحكمة وارادة، فلابد أن يكون مسيره عاقلاً ومريداً وحرًّا

وهنا لا بد أن يقوم أمامنا هذا السؤال : هل عقل الله من طبيعة عقلنا ولا فرق الا بالكمية والقدرة ، أو انه من طبيعة أخرى نجهلها ؟

إن قلنا إنه من طبيعة عقلنا فقد أنزلناه من مقامه وحددنا قدرته وثلمنا حريته واختياره لأن عقلنا غير مختار إلا في دائرة أضيق من سم الخياط وهي حرية وهمية . وحينئذ نكون قد جعلناه كما جعله موسى « يهوه » رب الجنود . ويهوه كان الهاً ومن حوله آلهة آخرون ولكنه أعظم منهم جدًّا وإله كهذا لا يصلح أن يكون مدبراً للكون .

وان قلنا إن عقل الله ليس من نوع العقول البشرية بتاتاً لا بالكيفية ولا بالكمية فماذا هو إذن ؟ — لا نعلم . ولذلك يجب أن نلغي تسمية الله بالعقل ونبحث عن كلمة أخرى تصلح لقباً لله . واذا قررنا في عقلنا وعقولنا أن هذا الذي نسميه الله قدير حكيم مريد مدبر لا نجد أفضل من كلمة « القوة القصوى » أو « قوة القوى » لقباً لله . لأن الكون لا يتحرك حركاته المعلومة الا بقوة فائقة هي مصدر جميع القوى التي لشاهدها فيه . ثم

ان حركات الأفلاك والأرضين سائرة بنظام لا يختل ولا تشوبه فوضى ولا تردد ولا توقف، بدليل اننا نعرف بعض حركاته وقوانينها ونحسب حساباتها ونعرف تواليها كما نعرف مواضيها « معرفة جزئية » وهذه هي حكمة الادارة والتدبير . وكلما توغلنا في استقصاء حركات الأكوان متتبعين خيوط القوى التي تحركها وتفقدنا قوانينها دنونا رويداً الى القوة القصوى التي تسلسلت منها القوى المحركة للأجرام الفلكية والكتل الأرضية وذرات المادة وكهاربها وصورشاتها — هي قوة الجاذبية العجيبة . فاذا لم تكن هذه القوة العظمى هي الله فالله مستتر عنا بها وهي بيده (مجازاً) يشغلها . فهي النظام الذي وضعه الله وبه يدير هذه الأكوان بحكمة فائقة بلا فوضى ولا خلل ولا تردد ولا توقف — هي سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

فبالجاذبية يمكننا أن نقول إن الله قدير وحكيم ومدبّر وموجود في كل مكان وكل زمان .

ليس هذا القول ببعيد عن فلسفة ارسطو وأفلاطون اللذين أخذا عن سقراط أستاذهما . وهي أن الله موجود مع هذا الكون يديره ويديره . هما موجودان معاً منذ الأزل . فلا الله أخلق الكون، لاستحالة الخلق من العدم ، ولا الكون أنتج الله . وإذا كان الله واجب الوجود لكي يخلق الكون فلماذا لا نقول أنّ الله والكون واجبا الوجود تملصاً من استحالة الخلق من العدم ومن سلسلة الخالق والمخلوق التي لا تنتهي .

الله فوق العقل والله هو قوّة القوى وبيده النظام الشامل المنزه عن الغرض .

الروح

وقد وردت كلمة روح في كثير من أقوال الفلاسفة الذين أخذ الاستاذ عنهم . وليس في أقوالهم ما نفهم منه ما هي الروح . هي في أقوالهم كلمة غامضة أو تكاد تكون بلا معنى أو هي ذات معان مختلفة . وشأنها عندنا الآن ان الله في عرف النصارى والمسلمين (لا الاسرائيليين) روح أزلي خالق كل شيء وقادر على كل شيء وعالم بكل شيء وموجود في كل زمان ومكان .

واذا سألت ما هي الروح قيل لك هي غير المادة . فما معنى غير المادة . هل رأيت غموضاً كهذا ؟

ويحاول بعضهم ان يفسر لك الروح تفسيرات تؤدي بك الى الظن إنها العقل بعينه لأنها تحمل الأفكار والذكريات معها الى الأبدية . ونحن نعلم بالاختبار ان العقل من مفاعيل

المادة الدماغية ، أو أنه يقيم في الدماغ في رأي من يحسب العقل ذاتاً مستقلة . وفي كلتا الحالتين نعلم جيداً إنه إذا تعطل الدماغ ذهب العقل بتاتاً . وإذا عاد الدماغ الى عمله المستقيم عاد العقل الى عمله . واذا كان العقل ذاتاً قائماً بنفسه فأين كان في مدة عطلة الدماغ . ولماذا لا يبقى ذا وجدان يدرك نفسه في حالة غيبوبته في غضون التخدير والنوم أو المرض العصبي (الجنون) . ولماذا يبطل عمله بتاتاً وتنتفي ذكراه ويفنى وعيه ؟

فاذا كانت الروح هي العقل أو ان العقل مطيتها : فاذا ذهب العقل ذهبت الروح . وان انفصلت عنه فلا تصحبها ذكرياته وأفكاره لأن هذه من خصائصه وليس للروح يد فيها . فاذن الروح عارضة تفنى وتزول فلا يمكن أن يكون الله روحاً بهذا المعنى . بأي معنى إذن ؟

ويحاول بعضهم أن يفسر الروح لك تفسيرات تؤدي بك الى الظن بأنها الحياة ، ونحن نعلم أن الحياة ولادة ونمو وموت . ولا يبقى بعد الموت غير وجه ربي ذي الجلال . فلا يمكن أن يكون الله روحاً بهذا المعنى . وإذن فما هي الروح ؟

وأما أنا فأعلم كما يعلم جميع الناس أن لي ثلاث ظاهرات لا رابع لها وهي : أولاً جسد مؤلف من عناصر ترابية . ثم ثانياً حياة ذات ثلاث ظاهرات : ولادة ونمو وموت . وثالثاً عقل يتصور ويتذكر ويستدل الخ . هذه ثلاثة أمور أعرفها فيّ جيداً ولا أقدر أن أنكرها . ولكني مهما تطلعت حولي وفتشت وتحسست فلا أجد شيئاً رابعاً . وان صدقت شيئاً آخر فلا ألبث أن أجد أنه داخل في أحد تلك الظاهرات الثلاث .

شيء رابع اسمه الروح لا يدور في خلدي ولا أحس به ولا أعرف فيّ شيئاً كهذا ، وكيف أعرف وليس لهذا الشيء شخصية تميزه عن سائر الشخصيات — « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلاً » .

وقد تقول لي : لا يحق أن تنكر الروح إذا كنت لا تعرف ما هي . فأقول لك : أليس عليك أن تعين الشيء الذي تطلب مني الاعتراف به . ما هو ؟ ما الذي تطلب مني أن اعترف به ؟ أنت تدعي وجود شيء لا تعرفه . عليك الاثبات وعليّ بعد ذلك الايمان .

لذلك لا يصح تسمية الله بالروح لئلا تلتبس بروح الانسان التي لا نعرف ما هي . وإن كانت الروح تسمية خاصة بالله فيجب أن لا تنسب الحي لئلا يشترك الانسان مع الله بها .

وحاشا لله ان يكون له شريك .

نصر الله الحراد

سراب

أوميضُ برقٍ أم بريق شهاب ... ما شع من قبس على الأهداب
في عينك الوسنى يلوح لهائم ... بحر يموج بساطع خلاب
أجد الربيع بمقلتيك معربداً ... يزهو بأفواف له وثياب
والدوح مياس الغصون كفينة ... تختال من صلف ومن إعجاب
وقرأت أحلامي العذاب قصائداً ... ولمست في عينيك زهر شبابي
تتفتح الأحلام عن أكمامها ... في مقلتيك هذية الأطياب
وأرى بمجدلك للرغائب والمنى ... غيثاً يمور بمائج سخاب
ويسيل سلسالاً كما قطر الندى ... من مقلة الأزهار غب رباب

٩٥٥

في ذمة الحدق المراض لواعجي ... ومرير أشجاني وفرط عذابي
منيتني بمسارح ومطلتني ... عند التقاضي قائلي وثوابي
فكأنني الظمآن ضل سبيله ... في تيهه عن رفقة وصحاب
قطع الفيافي باحثاً ومنقباً ... عن رشفة من سلسل منساب
ظمأ يقطع صدره من غلة ... ويحز فيه عدية القصاب
والشمس تسهر جسمه وتذيقه ... صاب العذاب ولاعج الأوصاب
ووساوس القلق المدمض تلاطمت ... رعناء في الاضلاع شبه عباب
فرأى على بعدٍ بريقاً خاله ... ماء فأسرع غير ما هياب
ومضى يمني نفسه لما رأى ... ومض السراب يستساغ شراب
حتى أتى ذاك الشعاع فهاله ... أن أبصرت عيناه لمع سراب
فهوى يئن على الثرى مترنحاً ... كمخيل من لوعة وعذاب

دمشق — عرنانه صروم بك

نظرات في النفس والحياة

— ٣ —

خاتمة آراء لاروشفوكولد مع الشرح

قبل أن ننتقل الى غير من ذكرنا من المفكرين وقبل أن نستعرض طرفاً من أخبار حياتهم وأن تأمل في المختار من أفكارهم يحسن أن نذكر هذه الطائفة الأخيرة من نظرات لاروشفوكولد فمنه أخذ كثير من المفكرين والقصصيين وهو يمتاز عن كتّاب هذا العصر والذين سبقوهم إذ أنه لا يتصنع الابتكار في الرأي تصنعاً ولا يخلط الفكاهة بالجد خلطاً تضيع معه معالم الحقيقة. فانك تقرأ كتب برنارد شو أو أوسكار وايلد فلا تعرف في بعض الأحايين أين تنتهي الفكاهة وأين يبدأ الجد. أما لاروشفوكولد فان فكاهته تفسر الحقيقة ولا تخفيها ولا تبعث مثل تلك الحيرة. كما اتضح مما ذكر في المقالين السابقين وكما هو ظاهر في هذا المقال : —

(١) إنّ تَصَنُّعَ القدرة والكفاية في أمور الحياة قد يعوق عن القدرة والكفاية وهذا صحيح إذ أن ما تلاقيه مظاهر التصنع من النجاح في خداع الناس والانتفاع بهذا الخداع والتكسب به أمور قد تقنع صاحب التصنع فيقنع بالادعاء دون الحقيقة ويستريح إليه فلا يعاني الشدائد في معالجة نفسه أو ما يحسبها شدائد تعظم في نظره وتهوله اذا حاول التَّهدّي الى صفات القدرة الحقيقية والتماس أسبابها.

(٢) إن حسن النصيحة لا يكفي لمعرفة الانتفاع بها ورجاحتها لا ترشد الى القدرة على ذلك الانتفاع ولا تفيدها إذ أن المرء محتاج الى مقدرة على اتقان العمل والاهتداء الى طرقه وأوقاته المناسبة كي يعمل حسب النصيحة الراجحة قدر احتياجه لما يحتاج إليه من المقدرة اذا عمل من غير نصيحة وبإرشاد نفسه.

(٣) إنّ في المصائب نفاقاً كثيراً مختلف الأسباب والأنواع فمن الناس من يبكي ادعاء للحنان والرحمة، ومنهم من يبكي كي ينال عطف الناس ورحمتهم وإشفاقهم عليه، وإن لم يكن متأثراً في مريرته بمصابه، ومنهم من يبكي اذا فقد قريباً أو صديقاً كي لا يلومه الناس اذا لم يَبْكِ ولولا خشية الملامة ما بكى.

(٤) إن خداعنا لأنفسنا من غير أن نفطن الى مخادعتنا أنفسنا أسهل من خداعنا الناس من غير أن يفطنوا الى مخادعتنا لهم ولكنا نظن عكس ذلك حقًّا .

(٥) لا يرتاع من احتقار بعض الناس له ولا يبيت مغيظًا مُحنَقًا إلا من رأى نفسه جديراً بالاحتقار ، أو من كان عنده ما يسميه علماء هذا العصر مُركَّب النقص أو عقدة نفسية أو الشعور بالنقص سواء أكان ذلك بسبب نقص نفسي أم نقص جثماني، فان ضعف الأعصاب قد يحل محل النقص النفسي في إثارة هذا الغيظ . واذا وثق المرء من نفسه فانه قد يرجى منه التسامح في الاهانة اذا لحقته أكثر مما يرجى التسامح ممن فقد الثقة بالنفس الا اذا صار الانتقام لكل إهانة شريعة الشرف والعرف، كما يكون في البقاع التي يشيع فيها الثأر وتشيع فيها المبارزة فيضطر المرء الى الانتقام من خوف الذم والاضطهاد بسوء الرأي فيه إلا إذا علا شأنه ولم يعلك أحد في مقدرته ولم يقدر على تشهير بالتعيير فصفحه صفح القادر الذي حظي باقرار الناس بقدرته وكرمه . وفي البقاع التي اختلَّ فيها الأمن لفساد الحكومات ترى كل إنسان يدفع عن نفسه خشية أن يتسامح في الاعتداء القليل فيناله الكثير من شر الناس وظلمهم وتهجمهم إذ يتهم بالعجز . واستبداد الحاكم يولِّد الشعور بالنقص في نفوس المحكومين فيسرع كل منهم الى الانتقام من جاره اذا حسب أن إهانة لحقته إلا اذا حال الاستبداد بينهم وبين الانتقام . وكثيراً ما يسرع الحقير الى إهانة غيره . كي يلفت نفسه ويلفت الناس عن حقارة نفسه وكي ينقل في زعمه وخياله تلك الحقارة الى غيره .

(٦) إننا في بعض الأحايين نفضِّل أن يخدعنا من نحب ونود عن ان يزول عنا ذلك الخداع فاننا به نعيش في نعمة المحبة والاخلاص اللذين نتخيلهما في نفس من نحب، فاذا زال عنا الخداع كان زواله نقمة وتعاسة . وقد يعرف المخدوع منا بنصف انتباهه إنه مخدوع فيتغافل حتى يظل نعيش في نعيم الانخداع .

(٧) لو كلَّف المرء نفسه من الجهد كي يصير الى ما ينبغي ويجب أن يكون قدر ما يكلف نفسه من الجهد كي تخفي ما هو عليه مما يريد اخفاءه لما احتاج الى نفاق ، اذ أن الجهد في سبيل الرياء قد يكون فيه من العناء والمشقة قدر ما في الجهد الذي يصير به الى ما ينبغي ويحسن .

(٨) إن مغالطة المرء الناس كي يخفي حقيقته عنهم مما يساعده على إخفاء حقيقته عن نفسه سواء أنجحت المغالطة أم لم تنجح ، اذ أنها لو نجحت مغالطة المرء الناس كان نجاحها

هاماً يدفع لنفسه عند نفسه كي تخفي حقيقتها عن ذاتها ، وكان نجاحها برهاناً على ما يريد المرء أن يقنع به نفسه ودليلاً على ما يوهمها من أمرها ، وإذا خابت مغالطته الناس ، احتاج الى الامعان في إخفاء حقيقته عن نفسه كي يتقن بذلك أساليب مغالطة الناس وكي يعرف كيف يتجنب الخيبة في مخادعتهم .

(٩) إننا نرتاح الى رؤية من نتفضل عليهم ونساعدهم ونبرهم أكثر من ارتياحنا الى رؤية من يجودون علينا وينعمون — إلا إذا خشينا أن يورطنا الاولون حتى نجود بما لا نود أن نجود به ، واذا خشينا أن تفلت من يدنا نعمة نرجوها عند الآخرين اذا ابتعدنا عنهم فينقلب الحال . أما إذا لم يكن هذا ولا ذاك فقول لاروشفوكولد هو الصواب لان رؤية من نجود عليهم تدعو الى الزهو والارتياح والخيلاء والثقة بالنفس ، ورؤية من يجودون علينا تدعو الى استضعاف النفس والاستخذاء والشعور بالنقص والعجز .

(١٠) كثيراً ما يبقى الحسد حتى بعد زوال النعمة المحسودة — ولعل سبب ذلك أن مدة الاحساس بالحسد لا يستطاع ايقافها وانتهاؤها كما لا يستطاع إيقاف المندفع في سيره إذا بطل الدفع فيظل سائراً بعد الدفع مدة ، أو لعل السبب أن الحسود لا يغتفر لمن زالت نعمته متعته قديماً بالنعيم الزائل فيريد أن ينتقم منه كأنما بانتقامه بعد زوال النعيم يستخلص تلك المتعة الماضية واللذة الغابرة والسعادة الزائلة من لحمه ودمه حتى تكون كأن لم تكن وحتى يندم المحسود على ابتهاجه بها وقد يزداد الحاسد غيظاً إذا عجز عن أن يجعل ذلك النعيم الزائل كأن لم يكن .

(١١) القدوة عدوى وما من خير أو شر إلا وله قدوة وعدوى ، فالاقتداء بالخير إنما يكون للمنافسة ونيل الثواب أو للزهو ونيل إعجاب الناس ، والاقتداء بالشر لأن النفس إنما يعوقها عن الشر في كثير من الاحايين الخوف والحذر وتجنب الملامة والعقاب فاذا لم تجد النفس ملامة ولا عقاباً بل وجدت مشجعاً ومحسناً ورأت أن مواقعة الشر أمر شائع غير ملوم أقبلت على عمل الشر ومواقعته اقتداء بمن يعمله ومن أجل ذلك كثيراً ما تنقلب المقاييس في الاماكن والازمنة المختلفة لا سيما في عصور الثورات والانقلاب والتغير ، ومع ذلك فهذه حقيقة مشاهدة في الحياة اليومية إذ يقبل الناس على الشر لأنهم يجدون من يمدحه ويعده محمدة وخيراً لا شراً ، وقد يتباهون به من أجل ذلك .

(١٢) كثيراً ما ينفر الانسان بعيوب ليست من عيوبه وبصفات ليست من نقائصه لأنها بعيدة كل البعد عن عيوبه فهي وإياها في طرفي نقيض وهي ببعدها عنه تلفت الناس

عن عيوبه وتعميهم عن نقائصه . ومن أمثال ذلك أن ذوي التردد والعجز والجبن كثيراً ما يدعون التهور والخرق والحمق والتسرع في الاندفاع من غير روّ متراً لترددهم واحجامهم والذين يسهل انقيادهم يدعون العناد والتصلب والاصرار على رأيهم ويفتخرون بذلك إخفاء لسهولة انقيادهم .

(١٣) من السهل أن يغتفر المرء لأصدقائه العيوب التي يرى انها لا تضره ولا تصيبه بسوء، وان أصابت غيره من الناس، وهذا الغفران يكون ما دام المرء ناظراً الى أصدقائه بعين الرضا وكثيراً ما يغتفر لهم خياناتهم أصدقاءهم ما دام الغافر يرى أنه يأمن من أن يخونوه لأنه يزعمه عندهم في منزلة أعز وأرفع — وقد يسخر ويضحك من المغدور به ويلتمس العذر لمن غدر به. أما إذا حاق به الغدر دونه بعد اطمئنان الى الوفاء واستنامة الى عزته ومنعته فانه لا يصفح للغادر كما فعل قديماً بل يسخط أشد السخط . ومصاحبة الرجل صاحب الشر على ما في ذلك من خطر انما تكون لأسباب متعددة فبعض الناس يلازمه كي يعرف شره ونيته وما يبيت فيتجنب بذلك ما يتوقع من شره ، وبعضهم يلازمه ويجاريه تزلفاً اليه واتقاء لشره بالتزلف والتقرب ، وبعضهم يتابعه كي ينتفع بشره وبعضهم يزامله لأنه يتمنى لنفسه في سريرته جرأة على الشر ليست له ، فزاملته له إعجاب مستتر وهذا لا يمنع من أن ينقلب عليه إذا انقلب الناس .

(١٤) يقول النعساء المحرومون أن الحظ أعمى، ويقول السمداء أن الحظ مبصر، إذ كل من الطائفتين تدعي الفضل، فالطائفة الأولى تعتقد أن الحظ لا يستطيع لعماه رؤية فضلهم والطائفة الثانية ترى أنه رأى فضلهم فكافأهم بما هم جديرون به من الخيرات والسعادة .

(١٥) في بعض الأحايين يشكو المرء من نقص بعض ملكات عقله كي يدفع عن نفسه التهمة في ملكات أعز وأرفع ومثل ذلك انه قد يشكو من ضعف الذاكرة ولكنه لا يشكو أبداً من ضعف ملكته في الحكم على الحقائق مع أن الملكة الثانية قد تتأثر بضعف الذاكرة وهذا لا ينفي صدق قول مونتاني الفرنسي صاحب الرسائل المعروفة اذ قال إن ملكة الحفظ والاستذكار قد تكون قادرة ولكنها مقرونة الى ملكة ضعيفة في الحكم على الحقائق

(١٦) كثيراً ما تنفذ أمور باسم الحب وتعمل أعمال وتقال أقوال ولا شأن للحب في كل ذلك، ومثله مثل الدول التي كفت يد الحاكم — مثل دول جمهورية البندقية — وظلت سلطته ومع ذلك تجري كل أمور الدولة باسمه .

(١٧) من الغريب أن المرء قد تكون له ذاكرة قوية فيتذكر بها حوادث حياته الصغيرة

التافهة، ولكن ذاكرته على قوتها لا تستطيع أن تعينه على أن يتذكر أنه حدث جليسه مرات عديدة بهذه الحوادث التافهة حتى صار الحديث مملولاً مكروهاً — وقد فسر فرويد هذا النسيان في كتاب العلل النفسية في الحياة اليومية وأوضح أن النفس تستطيع أن تنسى عمداً ما تريد نسيانه وأن تدفع به إلى الوعي الباطن.

(١٨) لو استطاع مستطيع أن يمنع رجلاً من أن يملق نفسه وأن يمدحها سراً أو جهراً ومباشرة أو غير مباشرة وبالقول أو بالعمل وبالخاطر الذي يخطر في النفس أو في الظاهر وفي الحقيقة أو في الخيال لكان هذا الانسان الممنوع من تملق نفسه بأية وسيلة أشقى الناس وأتعسهم وأكثرهم مللاً من الحياة.

(١٩) يعترف الناس أن الميول والنزعات النفسية لها أثر كبير في تكوين آرائهم ولكنهم قلما يدركون عظم هذا الأثر — وكثيراً ما ينسونه اذا كانت لهم فائدة في نسيانه، بل قد ينكرونه.

(٢٠) الأحاسيس والميول النفسية والصفات التي تتصف بها قد تولد أضدادها. ومن أمثال ذلك أن الجبان قد يشجع من الخوف فيقبل مندفعاً بدل أن يفر إذا أحست نفسه أن في الفرار ضرراً أشد أو إذا حسبت ذلك أو إذا جن جنونها من الخوف فاندفعت من غير تروٍ، والخوف يسبب الثبات أيضاً، والثبات من مظاهر الشجاعة والقدرة والعزيمة، ولكن المرء قد يخشى أن يتزحزح عن رأي أو مسلك أو مكان من الخوف فيظل ثابتاً عليه.

(٢١) أشد ما ينبغي أن يكون حذرنا من الأحاسيس والنزعات النفسية أن تغطي على الصواب اذا لبست لباس العقل والحكمة واتخذت منه أسباباً وحججاً وأدلة لأن العقل كثير الافتنان في استنباط الحجج وتمويهها تعزيزاً للميول النفسية والشهوات، وتسويغاً لما تذلا يسوغ.

(٢٢) كما ان الفضل ثمرة فان له موسماً، والفضل الذي يكون في غير موسمه كالفاكهة التي قد تأتي في غير موسمها وموضعها، فاذا بعدت كل البعد عما يناسب مزاج ذلك الموسم الغريب عنها كانت مستهجنة غير مقبولة، فالبطيخ المبرد في برد الشتاء لا يستحب، وكذلك الفضل اذا جاء في غير أوانه ومكانه وكان عند من لا يقدره يستهجن ويبرد.

(٢٣) الاعجاب بالنفس موجود في كل نفس ولكنه يختلف في الطرق والوسائل التي يظهر بها ويشبع بها نهمته وقد يختفي زمناً كي يتمكن ويحتال وهو اذا لم يظهر بالقوة ظهر

بالمكر والحيلة وقد يظهر ويفوز بطريقته حتى بالتملق والتواضع فهو كما قال لاروشفوكولد دائماً يعرّض نفسه ويتخذ كل أهبته ووسيلة كي لا يخسر شيئاً وان ادّعى الخسارة والتخلّي عن الغرور والكبر وكان الانسان قد وُهب من ملكات الجسم ما يناسب مطالبه وأعماله فقد وُهب من الكبرياء ما يخفي به نقائصه عن نفسه والأصل في ذلك ان يكسبه ثقة بنفسه كي يستطيع ان يعيش فاذا زاد عن حد الصلاح كان مفسداً .

(٢٤) ان بعض صفات الحمد مثل الحواس فمن لم يجربها ولم يعرفها في حياته وولد خالياً منها لا يستطيع ادراك كنهها كالذي وُلد أعمى يصعب عليه ادراك معاني البصر كلها ، وكذلك من خلا من بعض صفات الحمد لا يستطيع ان يفهمها وقد ينكرها أو يحار فيها ويتهم أصحابها بالكذب والادعاء — والمراد بالخلو منها انه لم يتعودها ولم يعود نفسه ارتياد موارِدها واتباع أحكامها .

(٢٥) ان الغريزة تعوض بعض التعويض مما يفقده المرء بسبب نقص حظه فهي تعلّم الفقير ان يستفيد من المال القليل أكثر من استفادة من هو أغنى منه ، وتجعل له المكر عوضاً من نقص العقل أو ضعف الجسم .

(٢٦) ان رغبتنا فيما نطلبه بالعقل رغبة ضعيفة اذا قيست برغبتنا فيما نطلبه بالنزعات النفسية إلا اذا كان العقل وهو يدعي الاستقلال خادماً للميل النفسي ومحتالاً له بذلك الادعاء كي لا يفطن الناس الى انها رغبة الغرائز النفسية لا رغبة المنطق المستقل والعقل المسيطر عليها .

(٢٧) كثيراً ما يكون الاغتياب باعثه الغرور أكثر من خبث النفس فلا تأمن الرجل الموصوف بطيبة القلب ان يغتابك إذا كان مغروراً ، وأي انسان يخلو من الغرور ، ولكنا كثيراً ما يدهشنا الاغتياب إذا كان من رجل موصوف بطيبة القلب وباعثه الغرور .

(٢٨) ان السرور الذي نجده في التحدث عن أنفسنا ينبغي أن يفطننا إلى انه يسبب الامتعاض لغيرنا ، فان غرور كل إنسان يجعل غرور غيره أمراً يكاد لا يطاق — ومن الغريب أن كل إنسان يضجر من كثرة تحدث غيره عن نفسه ، ولا يفطن الى ضجر غيره من تحدثه عن نفسه .

(٢٩) أمراض النفس لها نكسة كأمراض الجسم وقد نظن شفاءها فيما قد يكون هدنة نفسية أو فيما قد يكون مرضاً آخر ، فالحب أو الطمع أو البغض اذا كان أحدها شيء من أمثالها مرضاً نفسيًّا وانتهى ، فكثيراً ما ينتهي الى اختفاء كاختفاء النار في الرماد ، أو الى خمود كخمود البركان الذي ربما ثار بعد خموده — وهو إذا اختفى فقد يُسَبِّب للنفس عقدة نفسية كالشعور بالنقص . ولعل هذا ما يعنيه بقوله : « ان النفس قد تنتقل من مرض الى مرض » .

(٣٠) ان الغرور كثيراً ما يساعد المرء على تحمل آلام كثيرة ولكنه قد لا يساعد على تحمل آلام الغيرة والحسد والاحساس بالعار لأنها آلام إذا استشرت انتقصت من ذلك الغرور الذي يراد للاستعانة به على تحملها أو أضعفته أو قضت عليه فتقضي على المهاد الذي يعتمد عليه لتحملها .

(٣١) ان الغرور كثيراً ما يحمل المرء على عمل ما يخالف طبع نفس صاحبه وميلها . اما العقل فقلما يستطيع بالمحاجّة ان يحمله على ذلك — ومن أجل ذلك كثيراً ما يعمل المرء أعمالاً فاضلة والحامل عليها غرور صاحبها لا طبعه وميل نفسه .

(٣٢) ان الخجل الذي ينشأ بسبب مدح لا نستحقه قد يحملنا على عمل أعمال عظيمة ممدوحة وما كنا نعملها لولا ذلك الخجل — أو الميل الى الخجل أو الخوف من الخجل أو الحذر من معرفة الناس سببه . فيظن الناس ان هذه الأعمال صادرة عن طبع دائم ، ويحسبون إنها وتيرة في الخلق وهي ليست كذلك .

* * *

لقد انتهينا مما اخترناه من آراء ليوباردي وشوبنهور ولاروشفوكولد . والقارىء يرى ان لاروشفوكولد انما استنبط ما استخرج من آراء في النفس بأن جعل رائده أثرة النفس فتتبع الأثرة في مظاهرها من خير أو شر ومن مدح أو ذم ورد ما خفي أو بعد عنها الى أسامها ولم ينكر للأثرة مظاهرها الفاضلة في حياة الناس .

البحث بقية

ع . ش

وحدة الفضل

وحدة الفضل البشري لا يعترض طريقها شيء من فوارق المكان والزمان والعنصر واللغة والدين والمذهب

إن بحثنا الحاضر لانساني محض يحسب طعنة نجلاء في صدر كل متعصب ذميم إن كان المتعصب مكابراً . فاذا كان على تعصبه ماوياً جريمة غير مستعدٍّ لاتباع الحق أينما وجده فالبحث حينئذٍ عمل جراحي له ضروري لا بدّ أن يؤلمه في أول الأمر ولكنه يضمن له الشفاء والعافية .

وقد يطرأ وهم على أذهان بعض القرّاء يظنون أن البحث الحاضر بمحاولته تأييد وحدة الفضل بين أصناف البشر يجني على ما للوطنية والعنصرية والرابطة الدينية والطائفية من حق خصوصي على صاحبها فتفتر غيرته على ما ينتسب إليه من أمثال هذه التقسيمات البشرية وتضعف عزيمته في مداعاة هذا الاعتبار . كلاّ إنه لوهم مبني على أساس فاسد فان تأييد وحدة الفضل والنبل بين أصناف البشر يحفز كل إنسان الى أن يكون أتمّ تيقظاً وأقرب إنصافاً بدأن جامعته العليا وهي الجامعة الإنسانية ومن ثمّ يقربه من مخاطر ومضار التعصب في غير موضعه والتحيز الأعمى غير الحالّ بجلّته . إنّ تأييد وحدة الفضل يفتح أبصارنا وبصائرنا من هذه الناحية الجوهرية ولكنه لا يضطرنا مطلقاً الى إغفال ما علينا من واجبات خصوصية نحو وطننا وعنصرنا وطائفتنا بل نظل على ما يطلب منا من بذل عناية واهتمام بهذه الفرعيات اللاصقة بنا مع تشريفنا وتمجيدنا الأصل المتفرعة هي عنه والتفافنا باخلاص حول هذا الأصل وأريد به الجامعة الانسانية العليا .

قبل أن أكون إسرائيليًّا أو نصرانيًّا أو مسلماً أو مجوسيًّا أو وثنيًّا أو دهريًّا أي مادّيّ المذهب . وقبل أن أكون عربيًّا أو تركيًّا أو فارسيًّا أو فرنسويًّا أو

إنكليزيًّا أو روسيًّا أو صينيًّا أو هنديًّا . قبل أن أكون شيئًا داخلاً في هذه الامم وهذه الملل أنا انسان ، فالإنسانية لها عليّ الحق الأول ، وعليّ نصرها الواجب الأول . فلا بدّ لي أن أنظر نظرة انسانية عالية حين اضطر الى المفاضلة بين فرد وفرد أو بين جماعة وجماعة من إخواني البشر . وتلك النظرة الإنسانية يجب أن تبنى على العدل بحد ذاته مع احتمال مقبول ودهاء غير مكروه في مراماة ومداراة ما أنسب إليه من جماعة أو ملل عن طريق دفاع أو اعتذار أو تنصل حين أرى حكمي يخالف كرامة أو مصلحة هذه الجماعة أو هذه الملة، ولكن هذه المداراة يجب أن لا تتجاوز حدًّا محدوداً معقولاً لا ينتقله الحق لأنه لا يضيع حقّه وان رآه يخفف شيئًا عن عائق خصمه.

فاذا اتخذنا هذا المبدأ الانساني القويم رأينا المحبة الانسانية تشرف على جميع نواحيه وتتكفل وحدها بصون رياضه ، والذود عن حياضه .

وهذه المحبة الانسانية المقدسة المتصلة بشعاع من نور عرش الله هي التي أحس بها وأرادها وترجم عنها القطب العلاّمة الكبير الشيخ محيي الدين بن عربي حين قال . روّح الله روحه ، ونوّر ضريحه :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كلّ صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان ومصحف مسلم وألواح توراة وصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

وهو موضوع بحث عليه في قصيدة لي وطنية اجتماعية حيث قلت :

ولا تحسبنّ الدين عائق سعيكم فما الدين الاّ الفضل والنبل هذّبا
وليس اختلاف الدين في الفرع ضائراً وفيه اتفاق الأصل خيراً تجليا
وكم من ضعيف دينه ذو تعصب وكم دين فينا التسامح أوجبا
فياكارهاً غير ابن دينك فاصباً لدينك قد أصبحتَ للدين مغضبا
وضيّقته عقلاً ونقلاً وإنما كرحمة ربي دينُ ربي رُحبا

ثم ان المتعصب تعصباً أعمى بالدفاع شديد لفئة معينة قد يكون عند وقوع حدة أو

عندة أو معضلة أقل ثباتاً وأماناً لما يتصوره من المعتدل في رأيه . لأن المعتدل يصدر عن فكر واضح اختبار وتقليب الأمور على جميع وجوهها فهو في مبدئه غير معرَّض للتزعزع مثل ذلك .

ان النبل والفضائل مشتركة في جميع الأمم وإذا زعم أناس أن أمتهم فاقت سواها بالذات وتربية أهل الفضل ثم عارض هؤلاء الزاعمين آخرون مدعين هذا التفوق لأمتهم فقلما يهمنا في موضوعنا الحاضر ان يرجح الدعوى هؤلاء أو أولئك ما دام العقلاء والمنصفون يعترفون بما تريد الآداب به من أن أبواب الفضل والمحامد ومكارم الأخلاق كانت ولا تزال مفتوحة لجميع أصناف البشر على اختلاف العصور والأقطار والأديان والمذاهب والعناصر . وما كان أكثر جماهير الفضلاء في وثني المصريين والآشوريين واليونان والرومان وعرب الجاهلية وغيرهم .

* * *

وقبل الخروج من هذا البحث لا بد لي من تحذير كل قارىء وسامع أمراً فظيعاً هو سم زعاف لجرثومة العدل وعقبة كؤود في سبيل الأخاء البشري . وهذا الأمر هو الانتقال في الحكم صفواً صفواً من التخصيص الى التعميم فاذا ساء تني خلة أو معاملة أو عمل من فلان لم أكتف بالحكم عليه انه ناقص دنيء ، بل يغلب ان أنتقل بهذا الحكم عشيرته أو بلدته أو أبناء ملته مما ينتج مجالاً واسعاً لتبادل سوء الظن وما بعد سوء الظن إلا الخصومة ثم العداوة ثم العناد والشقاء . وهذا الجور في تعميم الحكم كثيراً ما ترتكبه بدافع من سورة الغضب أو من قلة روية وتمحيص . لأن التأني يقتضي تمهلاً يضجرنا وعناء يؤلمنا . ومن ثم نهرب من هذا السبيل الطويل الوعر الى سبيل أسهل وأخصر هو سبيل الحكم المستعجل احتياطاً ومجازفة مفضلين الراحة لأنفسنا . ولكنها راحة أثيمة خائنة تجر وراءها تعباً وعذاباً لروح الحق والخير والصواب .

اللاذقية — سورية

الدكتور مرقص

حافظ وشوقي

صدى الحوادث عند الشاعرين

وفاة مصطفى كامل [1]

أما حافظ فقد رثى مصطفى كامل بثلاث قصائد ، ولكنها نُظمت بين هول الفجيعة ... فالأولى أُلقيت على قبر الفقيد ساعة دفنه ، والثانية في ذكرى الأربعين . أما الثالثة فقد نظمها عند إحياء ذكرى مرور عام على وفاته .

وأولى هذه القصائد هي أقواها عاطفةً وشعوراً ، وأبلغها تأثُّراً وإحساساً ، وأدقُّها تصويراً للفجيعة ، فقد عُني فيها بتصوير رسالة الفقيد ، فهي من هذه الوجهة ناطقةٌ ببطولة مصطفى وجهاده وأثر هذا الجهاد في يقظة الشعب وفي إقلاق راحة الغاصبين ، وهذا ما خَلَتْ منه قصيدة شوقي الأولى ... وهي كذلك صادقةٌ في كل شيء لولا العيب الذي أُخذ على حافظ في البيت الأول من هذه القصيدة فقد جاوزت مبالغته حدَّ المعقول للواقع إذ كان خياله في هذا البيت سقيماً وذلك في قوله مخاطباً قبر مصطفى « فكبِّرْ وهلِّلْ والقَ ضيفَكَ جائياً » فلو أن القبر يتلقى ضيفَه بهذه الصورة لكان معنى ذلك تهدُّمه ... ولكن ما أروع قوله :

فيا سائلي أين المروءةُ والوفا ... وأين الحجا والرأي ؟ ويحكَ هاهيا !

ويصوِّر ذلك الفراغ الذي خلَّفه الفقيد وأثره في نفس الغاصب فيقول :

هنيئاً لهم فلْيأمنوا كلَّ صائحٍ ... فقد أُسكتَ الصوتُ الذي كان عاليا

ومات الذي أحيا الشعورَ وساقه ... الى المجد فاستحيا النفوسَ البواليا

---

(١) راجع مقتطف نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٤٧

ويخاطب الفقيد قائلاً :

عليك ، وإلاّ ما لهذا الحزن هاملاً ! وفيك وإلاّ ما لهذا الشعب باكيا !
يموت المداوي للنفوس ولا يرى لما فيه من داء النفوس مداويا
وكنّا نياماً حينما كنتَ ساهداً فأسهدْتنا حزناً وأمسيتَ غافيا
فهيدَ العلا لا زال صوتك بيننا رنيناً كما قد كان بالأمس داويا

وهي على هذا الوتر قطعةٌ من الإحساس الباكي المتفجع ، وإنه ليحسُّ بذلك فيقول فيها :

عهدناكَ لا تبكي وتكره أن يُرَى أخو البأس في بعض المواطن باكيا
فرخِّصْ لنا اليوم البكاءَ وفي غدٍ نرانا كما تهوى جبالاً رواسيا

وهذه القصيدة تعبر عن الإحساس الباطنيّ أكثر مما تعبر عن الإحساس الخارجي لأن الشعور الواعي لم يعمل فيها عمل العاطفة ، ولم يظهر أثره فيها بمقدار ظهوره في قصيدته الثانية أو الثالثة . فإن القصيدة الثانية التي قال في مطلعها :

نثروا عليك نوادي الأزهار وأتيتُ أنثر بينهم أشعاري

تحسُّ فيها عملَ الشعور الواعي فهو يستعرض حوادث خارجيةً ومواقف للفقيد مضى يقصُّها في أبيات بعضها تغلب عليه روحُ الشعر وبعضها الآخر يتخلّى عنه ذلك . على أن من أبدع ما فيها تصويره لجنازة الفقيد إذ يقول :

شاهدتُ يوم الحشر يوم وفاته وعلمتُ منه مراتبَ الأقدار
ورأيتُ كيف تفي الشعوبُ رجالها حقَّ الولاء وواجب الإكبار
تسعون ألفاً حول نعشك خُشَّعٌ يمشون تحت (لوائك) السيّار
خطّوا بأدمعهم على وجه الثرى للحزن أسطاراً على أسطار
آناً يوالون النحيب كأنهم ركبُ الحجيج بكعبة الزُّوّار
وتخالهم آناً لفرط خشوعهم عند الصلى يتعثرون لقياري
غلب الخشوعُ عليهمُ فدموعهم تجري بلا كلحٍ ولا استنثار
قد كنتُ تحت دموعهم وزفيرهم ما بين صيلم دافق وقعرار

أسعى فيأخذني اللهيب فأنثني فيصدُّني متدفقُ التيـــارِ
لو لم أُلَذْ بالنعش أو بظلاله لقضيت بين مراجل ومخـارِ
كم ذات خدر يوم طاف بك الردى هتكتْ عليك حرائرَ الأستارِ
سفرتْ تودِّع أمةً محمولةً في النعش لا خبراً من الأخبارِ
أمِنَتْ عيونَ الناظرين فرُوِّعتْ وجه الخـمار فلم تلُذْ بخمـارِ
قد قام ما بين العيون وبينهـا سترٌ من الأحزان والأكدارِ

ولا شك في أن قصيدة شوقي العاطفيـة قد تركت في نفس حافظ أثراً فهو حين يصف جثمان الفقيد وقد لُفَّ في عَلَم البلاد يستوحي بيت شوقي :

لفُّوك في عَلَم البلاد منكِّسـاً جزعَ الهلالُ على فتى الفيضانِ

مثل هذا المعنى فيأخذه ولكنه يولِّد منه معنى بديعاً يجعل بيت شوقي صامتَ الحسِّ إزاءه ، فهو يقول :

أدرجتَ في العلَم الذي أصفيتَـه منك الوداد فكان خيرَ شعارِ
علَمان من فوق النعوش كلاهما في طيِّه سرٌّ من الأسرارِ
ناداهما داعي الفراق فأمسيَـا يتعانقان على سفير هازي
تالله ما جزع المحبُّ ولا بكى لنوًى مروِّعةٍ وبُعْدِ مزارِ
جزعَ الهلالِ عليك يوم تركتَهُ ما بين حرِّ أسى وحرِّ أوارِ
متلفتاً ، مُتحيِّراً ، مُتخيِّراً رجُلاً يناضل عنه يوم فخارِ

أما القصيدة الثالثة فهي أقرب الى أن تكون خطبة حماسية منها الى شعر المراثي فقد تدفَّق فيها الشعور الوطنيُّ والإحساس بالفراغ الهائل الذي خلَّفه الفقيد . وهذه القصيدة تمثل سمات شعر حافظ أصدق تمثيل عندما كان يعبِّر عن آلام المصريين وآمالهم أصدق تعبير ، وفيها يخاطب الجموع الحاشدة الى قبر الفقيد بهذا البيت :

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا واقضوا هنالك ما تقضي به الذِّمَمُ

ثم يتوجه بالخطاب الى الثورة التي كانت متأججة فقضى الموت لها أن تخمد ، والى المعركة التي كانت متوثبة فقضى عليها أن تهدأ وتسكن ، فيقول :

يأيها النائم الهاني بمضجعه ليهنك النوم لا هم ولا سقم
باتت نسائلنا في كل نازلة عنك المنابر والقرطاس والقلم
تركت فينا مراغاً ليس يشغله إلا أبيٌّ ذكيُّ القلب مضطرم
منفسر النوم مبّاق لغايته آثاره همم ، آماله أمم

وتشتد في نفسه حماسة الوطنية وإباؤها فيترجم عن ذلك بقوله :

لبيك نحن الألى حركت أنفسهم لما سكنت ، ولما غالك السدم
جئنا نؤدي حساباً عن مواقفنا ونستمد ، ونستعدي ، ونحتكم
قيل: اسكتوا. فسكتنا ثم أنطقنا عسف الجفاة وأعلى صوتنا الألم
قد أتهمونا ولما نطلب جللاً إن الضعيف على الحالين متهم
قالوا : لقد ظلموا بالحق أنفسهم والله يعلم أن الظالمين هم
اذا سكتنا تناجوا ، تلك عادتهم وإن نطقنا تنادوا : فتنة صمم

ويمكننا أن نقول — بعد درس شعر حافظ السياسي الذي نظمه قبل تاريخ هذه المرثية — إن هذه القصيدة هي بدء اليقظة القومية في ضمير حافظ ومخلصه من ملابسة الغاصب ومصانعة عُمّاله واعتبارهم المسئولين عن هذا البلد فيوجّه اليهم القول والرجاء كما كان يقع في ذلك من قبل ، فقد اختفت هذه الظاهرة من شعره . ولم تظهر بعد إلا في القصيدة التي نظمها في سنة ١٩١٥ ووجّه فيها الخطاب الى السير مكماهون عند تعيينه عميداً للانجليز في مصر .

وربما كانت هذه المرثية هي الشرارة الكبرى التي قدّر الغاصبُ خطورتها فتنبّه لها وجعل نصب عينيه تحيُّن الفرصة لإخمادها قبل أن تعظم ويستفحل خطرها حتى كان من وراء ذلك بعد سنوات قلائل أن وُضع الغلُّ الذهبيُّ في رقبة حافظ وبدا أثره فيما بعد في قصيدته لمكماهون التي أشرنا إليها والتي يقول فيها :

أيّ (مكهون) قمعت بالسقمد الحميد وبالرّعايه

ثم يقول بعد ذلك :

أضحت ربوعُ النيل سلطنةً وقد كانت ولايه

فتهـــدوهـا بالصـــلا ح وأحيـوا فيها الوصايه

هذه آثار الشاعرين في هذه النهضة الوطنية . وفي رأينا أن قصيدة شوقي الثانية هي أبلغ هذه القصائد جميعها وأدقّها في تصوير شخصية الفقيد ، وأزخرها قوّة معنى وجمال معنى . وهي من روائع شوقي فقد ظهرت فيها الصورة واضحة كل الوضوح ، ولم يبلغ جمال الإطار على جمالها وروعتها لأن التوازن بينهما دقيق ، ولأن الانسجام بين الألفاظ والمعاني فيها محكم التنسيق .

إعلان الدستور العثماني وخلع عبد الحميد

وفي يوليه سنة ١٩٠٨ أفلحت الحركة التي قام بها الأحرار العثمانيون في حمل السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور بعد إلغائه وعودة الحكم النيابي الى السلطنة العثمانية والقضاء على النزعات الاستبدادية والسلطات الفردية التي رزح تحت نيرها رعايا تلك السلطنة وقاسوا شدائدها أكثر من ثلاثين عاماً حكم فيها هـذا السلطان البلاد حكماً مطلقاً بعد أن عطّل الدستور في سنة ١٨٧٧ ، وكان من جراء ذلك أن عمد الكثيرون من الأحرار الى الهجرة في مشارق الأرض ومغاربها من وجه الاضطهاد لينفّسوا عن آرائهم ورغباتهم في الاصلاح بعيدين عن الرقابة والتجسس ... فما كاد السلطان يعلم أن جيوش أنور ونيازي بطلي هذه الحركة قد تحركت لاستعادة الحكم الدستوري واستخلاصه منه حتى أعاده دون تباطؤ ، فكان لنجاح تلك الحركة وإعادة الدستور في اليوم الرابع والعشرين من ذلك الشهر وقعٌ عظيم في نفوس أهل البلاد الشرقية جمعاء ، وأقيمت الاحتفالات به ، وانبرى الشعراء في كل مكان بكل صقع عربي ، كما انبرى الكتّاب والخطباء يشيدون بهـذا الحدث الجديد . . . يقول الأستاذ أنيس الخوري المقدسي : « ولا نبالغ اذا قلنا إنه ما من حدثٍ حرّك الأقلام العربية كهذا الحدث العظيم ، فقولنا قول من شهد بعينه تلك الحال ، وعرف باختباره شعور الناس وهاركهم في غبطتهم العامة وآمالهم الواسعة »(١)

(١) راجع صفحة ٢٢ من كتاب « الدوافع الفعالة في الأدب العربي الحديث » للأستاذ أنيس الخوري المقدسي . نشرته مجلة المقتطف سنة ١٩٣٩

وقد فرح المصريون لإعلان هذا الدستور مع أن مصر ، في الحقيقة كانت منفصلة في سياستها عن الدولة العثمانية ، ولم يبق لهذه الدولة فيها إلاّ الرابطة الروحية التي تتعلق بالخلافة الاسلامية المتركزة في السلطان العثماني ، ذلك أن مصر كانت تتوق الى عودة الحكم النيابي كما كانت تتوق اليه إيران وقتذاك .

ألقى الأستاذ احمد لطفي السيد بك (باشا) خطبة في الاسكندرية في أعقاب سنة ١٩٠٨ قال فيها : « نحن على ذلك نستقبل هذا الدستور بالفرح الذي يستقبله به جميع إخواننا العثمانيين لأنه بشرى للدستور في مصر . فإن من شأنه أن يمجد عزائمنا ويقوّي أصواتنا في طلب الدستور . من شأنه أن يجعل الذين ينكرون علينا القول بسلطة الأمة لا يجدون عن الاتفاق معنا في الرأي محيصاً » (١) .

وكانت مصر وطناً ثانياً لكثيرين ممن اضطهدهم العهد الحميدي فأعلنوا مظاهر الفرح ، وشاركهم الشعراء في مصر وزملاؤهم في شتى البلاد العربية في الفرح بإعلان الدستور العثماني مدفوعين في ذلك بالغرض الذي أشرنا إليه . وهو التعبير عن الرغبة في إعادة الحياة النيابية في مصر ، وكان في الفرحين شاعرانا : حافظ وشوقي .

فأما حافظ فقد نظم قصيدته التونيسة التي هنأ فيها السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه في سبتمبر سنة ١٩٠٨ يذكر فيها فضل السلطان على رعاياه بإعادة الدستور إليهم فيقول :

أنى الحجيجُ عليك والحرَمانِ ... وأجلُّ عيد جلوسك الثقلانِ
أرضيتَ ربكَ إذ جعلتَ طريقهُ ... أمْناً وفوتَ بنعمة الرضوانِ
وجمعتَ بالدستور حولك أُمةً ... شتى المذاهب جمّةَ الاضغانِ
فغدوتَ تسكن في القلوب وترتمي ... حبّاتهـا وتحلُّ في الوجدانِ
راعيتهم حتى علمتَ بأنهم ... بلغوا أشُدّهمُ على الأزمانِ
فجعلتَ أمرَ الناس شورى بينهم ... وأقمتَ شرع الواحد الديّانِ

ويخاطب العثمانيين قائلاً :

(١) راجع صفحة ٣٦ من كتاب « صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر » لمعالي احمد لطفي السيد باشا . نشرته مجلة المقتطف سنة ١٩٤٦

يأيها الشعب الكريم تماسكوا وخذوا أموركم بغير توانِ
ما لي أذكّركم وتلك ربوعكم مرعى النهى ومنابت الشجعان
أدركتم الدستور غير ملوّثٍ بدمٍ ولا متلطخاً بهوانِ

وبعد أن كان يهاجم خصوم هذا السلطان المناوئين لسياسته في القصيد التي هنأه بها في عيد جلوسه سنة ١٩٠١ فيقول:

فدًى لك يا عبد الحميد عصابةٌ عمت أمورها وحزبٌ مذبذبُ
ملكتَ عليهم كل فجٍّ ولجّةٍ فليس لهم في البرّ والبحر مهربُ
تقاذفهم أيدي الليالي كأنهم بها مثلٌ للناس في القوم يُضربُ
وكم سألوا ثم أذيالك التي لها فوق أجرام السموات مسحبُ
فما بلغوا سؤلاً ولا بلغوا مُنىً كذلك يشقى الخائن المتقلبُ

عاد يذكر الأحرار الذين ثاروا للدستور وطالبوا به، وأجبروا بثورتهم السلطان على إعلانه فيحيي اليوم الذي هيأ لهم العودة الى أوطانهم بعد أن فارقوها صاغرين ناقمين على البغي والعدوان، بقوله:

يا يوم عاد النازحون لأرضهم يتسابقون لرؤية الأوطانِ
لله كم أطفأتَ من نارٍ ذكتْ دهراً وكم هدّأتَ من أشجانِ
هذا يطير الى (فروق) ومن بها شوقاً وذاك الى رُبى لبنانِ
خلعوا الشباب على البشير وأخلقوا بالظلم عهد خليفة الرحمن
وتعانقوا بعد النوى كخمائل يحلو بهنّ تعانق الأغصانِ

حين وصف العصابة التي كانت تتحكم في رقاب الناس محيطة بالسلطان مؤثّرة إياه على كل حرٍّ أبيٍّ بهذه الأبيات:

ولّى زمان المعتدين كما انطوت جيلُ الشيوخ وإمّرةُ الخصيانِ
لا الشكُّ يذهب باليقين ولا الرُّؤى تجدي المريء ولا رُقَى الشيطانِ
وُضع الكتاب وضيق جمعهمُ الى يوم الحساب وموقف الإذعانِ
وتوهموهم في القيود نقائلٌ هذا فلانٌ قد رشى بفلانِ

وملبّبٌ لغـــريمه ومطالبٌ بدمٍ أُريق بمسمع الحيتـان
قد جاء يرسم هنا ، وأمامهم بعد النشور هناك يرسمُ ثاني
سبحان من دان القضاء بأمره ليد الضعيف من القويّ الجاني

وفي هذه الفرحة التي شارك بها حافظ العثمانيين وعبّر فيها عن شعور المصريين إزاء إخوانهم في الدين وإزاء إخوانهم العرب الذين كانوا يدينون للسلطنة العثمانية بالحكم لا ينسى حافظ الأمل الذي كان يداعب نفوس المصريين في أن يعيد الخديو النظام النيابي اليهم والذي كان سبباً في مشاركة العثمانيين فرحتهم بإعلان دستورهم ، فهو بعد أن يذكر غرضاً هذه الرغبة مبهمةً في هذا البيت الذي يخاطب فيه الشعب العثماني :

وتذوّقوا معنى الحيـاة فانها في مصر ألفاظٌ بغير معاني

يعود فيردّد هذا المعنى بشيء من الوضوح وتتجلى فيه عاطفةٌ شرقيةٌ فهو لا يتمنى لوطنه وحده الحرية في ظل الدستور وإنما يتمناه لوطن شرقي آخر هو إيران الذي نقر الشاه من إقامة نظام دستوري فيه عندما عرض عليه جمال الدين الأفغاني ذلك ، فيقول :

خطرتْ فعطّرتْ المفارق عندما هبت نسائمها من البلقانِ
يا ليتها خطرت بمصر وأشرقت في يوم أعيادها على طهران
أضناها عبوسٌ قد ابيضت له كبداها وتصدّع القلبـان
عرف الورى ميقاتها فترقبوا (تموز) مثل ترقّب الظمآن
شهرٌ به بُسمت الرجاء وأُشرت أمرٌ وبدّل خوفها بأمانِ

ويزيد التعبير وضوحاً وهو يخاطب هذا الشهر الذي أُعلنت فيه الحياة الدستورية لتلك السلطنة بقوله :

تموز ! أنت أبو الشهور جلالةً تموز ! أنت مُنى الأسير العاني
هلاّ جعلت لنا نصيباً علّنا نجري مع الأحياء في ميدان
أيعود منك الآملون بما رجوا ونعـود نحن بذلك الحرمان ؟
تموز ! إن بنا اليك لحاجةً فئني الأوان ، وأنت خير أوانِ ؟

ولقد كان حافظ في ذلك معبراً عما كان يجيش النفوس وقتذاك في مصر ، إذ كان المرحوم

محمد فريد بك الرئيس الثاني للحزب الوطني قد استهلّ رياسته لهذا الحزب بالدعوة الى إعادة الحياة النيابية الى البلاد ، وذلك قبل أن تعلن عودة الدستور العثماني بشهور . . . ويذكر الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك أن المرحوم فريد بك قد عمل على بعث حركة إجماعية من الأمة للمطالبة بالدستور يتوجه بها الى الخديو ، وأعدّ الحزب الوطني عرائض لتقديمها اليه بطلب إنشاء المجلس النيابي ، وطبع الحزب عشرات الآلاف منها ووزعها على أعضائه وأنصاره والمتعاطفين كافة في جميع الجهات للتوقيع عليها ، فأقبلت الأمة على هذا المشروع عن طيب خاطر إقبالاً إجماعيًّا . واستمر الحزب يجمع العرائض الى أن اكتمل لديه الفوج الأول منها وعليها ٤٥٠٠٠ توقيع ، ومن ثمّ قابل رئيس الحزب الخديو يوم السبت ٢٥ من ابريل سنة ١٩٠٨ وعرض عليه أمر هذه العرائض فطلب اليه تقديمها الى رئيس الديوان الخديوي فقدمها اليه [1] ثم تبعها بفوج آخر .

* * *

ويروي الأستاذ الرافعي بك انه على رغم ما أبدى الخديو من ارتياح في بداية الأمر الى تقديم العرائض اليه فإنه قابل اتساع الحركة بالفتور ، ولم يلبث أن تغير موقفه حيالها ، ولعلّ السبب في هذا التحوّل ما أدركه من أنها أغضبت الاحتلال فتنكّر لها وبخاصة لتورّطه في السياسة المعروفة بسياسة الوفاق [2] .

لذلك نرى عوقبًا في قصيدته التي نظمها في هذه المناسبة ، وهي التي يقول في مطلعها :

بُشرى البريّة قاصيها ودانيها ... حاط الخلافةَ بالدستور حاميها
لمّا رآها بلا رُكْن تداركُها ... بعد الخليفة بالشوري ونادبها
وبالأبيّين من قوم أماتهمُ ... بُعدُ الديار وأحياهم تدانيها
حنّوا إليها كما حنّت لهم زمناً ... وأوهك البين يبليهم ويبليها
معنّتين على الغبراء تحسبهم ... رحّالةَ البدو هاموا في فيافيها
لا يقرب اليأس في البأساء أنفسهم ... والنفس إن قنطت فاليأس مرديها

(١) راجع كتاب « محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية » للرافعي بك ص ٥٨ و ٥٩
(٢) المرجع نفسه ص ٦٠

يمسّ هذا الغرض مسًّا رفيقاً رقيقاً ، فهو حذرٌ في الإشارة إليه كعذره في رثاء مصطفى كامل على ما بيّنّا من قبل [1] . وهو ما يكاد يجد القول قد جرّه الى ذكر الرغبة في إعادة الدستور في مصر حتى يختم القصيدة كما يتضح ذلك من هذه الأبيات الأربعة التي جعلها ختامها :

ياشعب عثمان من ترك ومن عرب	حيّاكَ من يبعث الموتى ويُحييها
صبرتَ للحق حين النفس جازعة	والله بالصبر عند الحق موصيها
نلت الذي لم ينلهُ بالقنا أحدٌ	فاهتف (لأنورها) واحدٌ (لنازيها)
ما بين آمالك اللائي ظفرتَ بها	وبين مصر معانٍ أنت تدريها

فهو لم يكن في ذلك كما كان حافظ صريحاً مجاهراً بالدعوة لأن الخديو كان قد بدأ يغيّر رأيه الأول ويتحول عنه . وشوقي بطبيعة صلته بالقصر مضطرٌ الى أن يعالج سياسته . وهذا الغموض الذي يقف عنده الباحث يستقصي أسبابه في هذا الموقف تجلوه كلة كتبها الأستاذ أحمد لطفي السيد بك (باها) في العدد الصادر من الجريدة في ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ يردّ بها على حديث أدلى به شوقي الشاعر في هذا الشأن ، فقد قال :

«فهم الناس من حديث شوقي بك الشبيه بالرسمي أن مابدين تعترف للانكليز على مصر بشيء من الحقوق أو على الأقل أن الانكليز قد أصبحوا شركاء لسموّ الخديو في حق الحكم. في حين أن شوقي بك يقول في حديثه أن جلالة السلطان يعتبر أمر البرلمان المصري من الحقوق الخاصة بسموّ الخديو . فكأن شوقي بك يريد أن يقول في معرض الاعتذار المصريين عن الجناب العالي أو عن عدم استعداد سموّه الى منح الدستور أن الاحتلال الانكليزي الذي لم يُبقِ لسموّ الخديو سلطة فعلية ذات أثر حقيقي في حركة الحكومة والذي قصر سموّه على حيازة الحقوق الشرعية دون استعمالها أن هذا الاحتلال أصبح شريكه في تلك الحقوق الشرعية أيضاً لأن منح الدستور هو تنازل من قبل الأمير عن بعض حقوقه الشرعية ، فاذا علق سموه هذا التنازل على رضى الانكليز كان معناه أنه معترف بأن للانكليز حقوقاً على مصر » ... ثم يقول «غير أن شوقي بك ذلك الشاعر المطبوع القديم والسياسي الجديد أراد بحديثه صرف الأمة المصرية عن طلب حقوقها من الجناب العالي فوضع سيده

(١) راجع مقتطف ديسمبر الماضي صفحة ٤١٤ و٤١٥

بهذه التصريحات في مركز كان مركز السكوت خيراً منه » (١)

فهذه الخيوط هي التي توصلنا الى حل العقدة التي يقف عندها الباحث في غموض شوقي في الاشارة الى مطلب المصريين في إعادة الدستور والحياة النيابية في الوقت الذي تمكن حافظ فيه من التصريح بذلك والمجاهرة به في هذه المناسبة . بينما نراه بعد تسعة أشهر من ذلك يذكر هذا الهدف واضحاً ويشيد بالدستور وصيانته للملك ، وذلك في القصيدة التي تناول فيها موضوع خلع عبد الحميد وارتقاء أخيه السلطان محمد رشاد العرش حيث قال :

أوذيت من دستورهم وحنَنْتَ للحكم الصغير
ضنّوا بضائع حقّهم وضننتَ بالدنيا الغرور
ملأ احتفظت به احتفا ظ مرحّب فرح قرير
هو حليفة الملك الرشيد وعصمة الملك الغرير
وبه يبارَكُ في المما لك والملوك على الدهور

فهذا التغير والتبدّل أثر من آثار سياسة القصر التي كانت تسيّر شاعرية شوقي في اتجاهاتها ولا تترك مطلق العنان يجاري عاطفته فلا يكبتها ويجاري تيار الرأي في البلاد فلا يعبّر عن هذا الرأي كما يحقّ له أن يعبّر . فلما اتجهت سياسة القصر في مصر قبل خلع عبد الحميد في تركيا اتجاهاً غير الذي وقفت عنده إذ اعتزم الاحتلال ، تهدئةً لخواطر المصريين ، إدخال بعض تعديلات في النظم الدورية التي كانت قائمةً في البلاد عساها أن تقنع الأمة وتصرفها عن المطالبة بالدستور فتضعف الحركة الوطنية وتخبو نارها ، وصدر أمر في ٣٠ من يناير سنة ١٩٠٩ بتعيين الأمير (السلطان) حسين كامل رئيساً لمجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وافتتحت الجمعية العمومية في اليوم الأول من فبراير سنة ١٩٠٩ . . . (٢) عند ذلك وجدنا للدستور وقيمته في صيانة المُلْك أثراً واضحاً في شعر شوقي .

لقد دفعنا الى هذا الاستطراد التاريخي الغموضُ والحذر المهيمنان على قصيدة شوقي الأولى في هذه النقطة بالذات لنصل الى سرّها ونصل الى سرّ الصراحة التي تجلّت في قصيدته الثانية .

حسن كامل الصيرفي

(١) صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر — ص ٦٧ و ٦٨
(٢) يراجع في ذلك كتاب « محمد فريد » للاستاذ عبد الرحمن الرافعي بك — ص ١١٤ و ١١٥

٣ – في التربية

الحرية في المدرسة

امتازت المدرسة القديمة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) بالحط من شأن حرية الناشيء ، وفرض قيود ونواميس خارجية تسعى الى صبه في قالب خاص قسراً ، وتدربه على الخضوع باسم النظام . وكانت النتيجة ظهور فرد سلبي ضعيف الشخصية ، يؤمن بالعقاب ، ولا يرى للميول النفسية معنى بل بقايا الشر في ابن آدم .

وبعد الحرب العالمية الأولى ظهر دعاة التربية الحديثة المنادون بالحرية في التربية ، ووجوب إطلاق الطفل من قيوده واعتبار حريته حقاً وهبته له الطبيعة ، وإذا كان للتربية أن تساعد الطبيعة في عملها ، فعليها أن تجعل نظمها خاضعة لطبيعة الناشيء وميوله ومتفقة معها في أطوارها حسبما كشف علم النفس ، حتى تنمو شخصية الفرد نمواً متناسباً منسجماً . فللناشيء طبيعة توحي له بالعمل ، وتعدل سلوكه في مراحل حياته ، وما على المربي إلا التوجيه والملاحظة مع أقل حدّ ممكن من التدخل . وإنما يؤدي اعتراضه سبيل الميول – فيما يرى منتسوري – إلى الكبت الذي إن أفلح مؤقتاً لوجود السلطة ، فهو سوف يحدث رد فعل فيما بعد . ويقول هكسلي ، بأنه ما دام المثل الأعلى للديموقراطية هو حرية الفرد ، فليتعلم الفرد حكم نفسه بنفسه ، وما العقاب والإرهاب إلا عقبة في سبيل الناشيء ، فهي لا تساعده على أداء عمل يعتقد بأنه نابع من ذات نفسه ، بل إن العقاب والإرهاب يحط من قيمة المعلم والمتعلم وليست الحرية تدليلاً ولينا وتساهلاً ، وإنما هي حق طبيعي لا يؤدي محاربته إلا إلى الضرر .

* * *

وليس معنى الحرية الفوضى ، وإنما معناها ايجاد فرد حر الفكر قوي الشخصية . والنظام من طبيعة الأشياء ، وهو ضروري لكل نواحي نشاط بشري ، والشعر بحاجة إلى الأمن والطمأنينة والقوانين الأخلاقية والأدبية لأداء عمل من الأعمال ، كذلك الناشيء في المدرسة ، يستطيع

في ظل النظام أن يدرب على التعاون والاستقلال ، وتحمل المسئولية والاعتماد على النفس وتكوين شخصية حرة في ظل نظام واحد ، وينصح أنصار الحرية ، كمنتسوري ، برجوب تدخل المرشدة إذا ظهر سلوك من طفل لا يرغب فيه ويؤذي المجتمع ، وإنما ينبغي أن يكون التدخل في أدنى صورة ممكنة .

وتستطيع المدرسة أن توفر الحرية لأبناء مجتمعها إذا سادها شعور الأسرة ، والعطف والتقدير بين أفرادها ، فيصير معلموها مرشدين ، وتوفر لأبنائها مجال العمل الفردي في إطار من تقاليد تشيع الميول وتكوّن الشخصية والارادة وترسم مثلاً عليا محببة ، فيعتنق الأبناء هذه المثل مؤمنين بأنها أقوى ما هم في حاجة إليه في حاضرهم ومستقبلهم . والمدرسة قلب المجتمع ، وهي الصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل ، ومعبر الناشئة إلى الحياة وميدان التكيف بالبيئة بصورة نقية مثالية .

* * *

ولا تكاد تنسع مراحل الدراسة في المدارس المصرية لإشباع ميول الناشئة وتقدير ما يفقدون من حرية . وتدل على ذلك الأرقام التي تنتهي إليها الامتحانات في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، ولا يقتصر السبب على تدخل السياسة في المدرسة ، وإنما تجد السياسة طريقها إلى المدرسة خلال ضعف الوطنية في نفوس أبنائها ، وإنما يفهم الطالب في كل بلد متمدين معنى الوطنية الحقة ، ويتشرّب مبادئها ويقدّسها ويبذل دماءه في سبيلها . بل تكمن مواطن الداء فيما ينتاب المناهج والمواد المدرسية من جمود يدعي البعض أنه محافظة ، وما المحافظة إلا الابقاء على قديم صالح . وإنما يحشو الطالب ذهنه بمعلومات لا تتصل بحاجاته النفسية ، ولا بأهداف الحياة العملية ، ولا توحي له بفائدة ، ولا تفتح له باب الرغبة للاستزادة وقد ساعدت نظم الامتحانات العامة وامتحانات النقل على الانصراف عن الدراسة ، فامتحانات الفترات في المدرسة الثانوية شكلية ، ولا دخل لها في نجاح الطالب أو رسوبه ، وإنما يستذكر دروسه شهراً في نهاية العام فينجح أو يرسب ، ويضيع معظم أوقات العام في السياسة أو فيما هو شرٌّ منها .

ولا يلقى الطالب من مدرسته عطفاً وتشجيعاً يشعره بأنه فرد في أسرة ، بل تخضع المدرسة ذاتها لنظام مركزي يخضعها لسياسة عليا ، تقبض نجاح ادارتها بمدى ما لها على طلابها من سيطرة واستبداد في أغلب الأحوال . فلا تجد المدرسة بدوراً من ميل إلى ذلك إلا استعمل وسائل العقاب ، ويقوم المفتش بدور المنفذ لتعليمات عليا ، ويدفع بشكايات

التفتيش أكثر مما يعنى بما على هوامش التربية الحديثة من قيم مصاحبة أبعد أثراً وأكثر نفعاً للناشىء في الحياة .

وإنما علاج هذه العيوب هو إعادة النظر في البرامج المدرسية إعداداً حديثاً يبنى على أسس نفسية حديثة ، تهدف الى خلق مواطن مستنير ، فتنظم البرامج في شعبها المختلفة بحيث تخرج عن الشكليات إلى مواطن الجمال اللفظي والمعنوي في الآداب ، وإلى تفهم مظاهر الكون البشرية والحيوانية والمعدنية بحيث يكون الانسان محورها جميعاً في العلوم ، وإلى تفسير البيئة المحلية كمحور للعالم في الاجتماعيات ، وإلى التشرب بمبادىء الانسانية والاخلاق والدين في الوطنية ، تبعاً لما تقتضيه مكانة مصر في العالم اليوم ، وتبعاً لعراقتها الماضية . ولا يتأتى ذلك إلا بإعداد جديد للبرامج بحيث تتسق في مراحل التعليم الابتدائية والثانوية والجامعية ، فتزول من بينها ما نراه اليوم من ثغرات .

ومن الخير للمدرسة أن تمنح حرية في العمل ، حتى يستطيع رئيس المدرسة أن يكون رأس الأسرة في مدرسته ، ويديرها مع أساتذتها بما يحقق خلق أسس وتقاليد متينة قويمة للأجيال القادمة فيها . وربما كان من الأجدى لنظم الامتحانات اختبار امتحان نصفي في العام مساوياً لامتحان آخر العام ، واعتبار متوسط العمل الدراسي في نصفي العام مكملاً لها ، وتقرير نجاح الطالب ورسوبه تبعاً للمتوسط الرباعي ، فذلك أدعى الى تدعيم الصلة المدرسية بين الطلاب والأساتذة ، ومشجعاً للطلاب على العناية بشؤون العلم . وقد رأينا كل هذه النظم ناجحاً في البلاد الأخرى .

وكم اهتزت نفوسنا حين رأينا تلاميذ المدرسة ملتفين حول علمهم في الصباح ، ينشدون نشيدهم الوطني ويرتلونه أو يسمعونه مرة أو مرتين في الأسبوع ، ورئيس المدرسة يوجه إليهم كلمة حارة في قيمة هذا العلم الذي تسيل في سبيله الدماء وتفتديه النفوس .

وما تلك بكل العلل ولا أنواع العلاج التي توفر لأبنائنا مجالاً حراً في المدرسة ، وترغبهم فيها وتشعرهم بحاجتهم إليها ، وفقنا الله لعلاج مشاكلنا والارتفاع ببلدنا حتى يتبوأ مكانه العريق .

حماه — سوريا محمود عامر شوكت

مشهد من مسرحية كليوبترا [1]

للشاعر محمد فريد

المنظر نفس المنظر السابق « بعدد منتصف ديسمبر » البهو الكبير بقصر الملكة كليوباترة والوصيفات والراقصات والمغنون — والملكة وأنطونيو فى موقف لقاء غرامي : يغرق وقد طوقها بذراعيه :

... فليكثروا ... ها أنت أنت حياتي ..

يدخل غاب من حجاب القصر مسرعاً :

أيا مولاي !!

أنطونيو يلتفت إليه باسماً :

لا مَولى هنا اليوم سوى الحسن
أنا الليلة عبد التيه والأغراء والفن !

الحاجب بلهفة : رسولٌ جاء من روما عجولٌ غير مُستأذن

أنطونيو يضجر : غاضاً للقاه :

كليوباترة : بل مهلاً ألا فالق الرسولا
فما يدريك ما يجري بروما ثمّ أو قبلا ...

أنطونيو : دعيني ... لا أباليهمْ وهاتي الراح تقبيلا

(يقبل يدها في حنان)

ورَاحاً ملء جفنيكِ سأحسو فعل مشتاقِ
وراحاً في ثناياكِ ستشفي نار خفاقي ..

(موسيقى .. كليوباترا تتخلص منه برفق وتتجه لتجلس على العرش وهي تناجي نفسها)

---

(١) وقع تحريف فى اسم أنطونيو فى السطر الثاني من شعر العدد الماضي والصحيح « أنطوني » مراعاة للوزن

كليوباترة : قلبي . . أحسُّ مُنبئي وقْع اقتراب الخطر
فرط السرور يقتضي حتماً قصاص القدر

تجلس هي وأنطونيو وينثر باقي القواد والوصيفات هنا وهناك
(موسيقى مستمرة)

كليوباترة : هيلانتي !
هيلانة : مليكتي :
كليوباترة : إدعي رئيس الخدم
مسريه يُحضر الليلة منتهاة النِّعم
من خمرة قد خُتِّمتْ وأرَجٍ لم يُختَم
وأكؤسٍ دُريةٍ الراح فيها ترمي
منكباً مشعشعاً كثيرات الأنجم
ومن شواء طعمه لذة ريق النَّهم
ومن حلوى ومأكلٍ ومُسكرات النغم
وانضحيها وليمةً ما خطرت في حُلُم
لم يُضحيها كسرى ولا فرعون رب العَلَم
أنطونيو بجانبي ؟ إيزيس ! . . يا للكرم !
هيلانة باسمة : قرب المحب نعمة مليكتي . .
كليوباترة بغضب : هيا اسرعي !
(تذهب هيلانة مسرعة)

كليوباترة لأنطونيو بابتسام :
هيلانة وصيفتي مغرمةٌ . . لا تدّعي

(يتضاحكان ويستعرضان الرقص)

(في الجانب الآخر من المسرح قائدان رومانيان يتحادثان)

القائد الأول : أتنظرُ تلكم الأفعى ؟ سقته السّم فتالا
وها أمّي وفاء الإبـــن للأم وقد حالا
لقد كانت إذا ذُكرت تُـزلزل فيه زلزالا
فيبتـــدر العِدا ليثاً مضى يغزو ورئبالا
ويلقى الموت وثّاباً ويغشى الروع أهوالا
فدّى روما .... إذا نادى نَكم قد راع ابطالا

الثاني بحنق : وهذي الآن قد ذكرت فما ألقى لها بالا
لقد حق . . . بحق الرب خان العهد . .

الأول : لا . لا . لا . .
أرى الجبار مسحورا وقمت الحسن كالسحر
أما تلقاه من ولهٍ يسوق القول لا يدري . . .
فذكر الحرب يغضبه وذكر اللهو لا يزري ؟!

أنطونيو لرئيس الجوقة :

أيها العزّاف أنغمنا فما يهجيك بشجينا
وأترعها من الأنغـــام ترجيعاً لياليا
وممّا يُبدع النادات إذ رحنَ يغنّينا
هنا الفردوس رفافاً تراءى بين أيدينا
وهذي نفحة النجوى وقد باتت توافينا
سرت ريّا لروحين على ظمإٍ تُساقينا
رحيقاً من جنى الحسن من الأرباب يُدنينا
فهاتِ اللحن أنغاما مشعشعةً أغانينا
نذوب الآن تحناناً وفي الهيجا عجانينا . . .

[يتبع]

باب المراسلة والمناظرة

رد على رد

الاستاذ رشيد السعد

كان الأفضل أن يكون الشاهد القرآني قاطعاً جهيزة كل قائل — لاسيما وقد جرى مع الصحيح السليم من قواعد اللغة العربية ومذهب فصحاء العرب .

وكان الأفضل كذلك ألا يعقب معقب على كلام الله « سبحانه وتعالى » — خصوصاً إذا كان صريحاً في التبيان ونصاً في البرهان، فكل محاولة بعد هذا مطاولة قليلة الجدوى فيما نحن بسبيله من بيان .

ولقد كان الأجدر بالأستاذ رشيد السعد أن يكون له من توضيحنا مقنع فيؤوب الى الحق بعد ما تبين له ، ويرجع الى الصواب فيما عزب عليه من إعراب .

فقد ظهر لنا أنه بعيد جداً عن الموضوع الذي أوضحناه بكلمتنا السابقة في عدد يوليه سنة ١٩٤٧ من المقتطف — وإلا فما معنى إقحامه تاريخ القرآن الكريم واستنتاجه منه نتيجة تضحك منها مقدماتها ، ونقله الموضوع من قاعدة الى قاعدة لاداعية لها ، ولا طائل تحتها —

فالموضوع الذي ينعقد عليه البحث بيننا واضح لايحتاج الى تأويل ، وسهل لا يحتمل البسط والتطويل، وصريح فصيح ، لولا أنه أراد أن يبدلنا ذا علة بصحيح ، حيث أخذ على الشاعر قوله في « برلمان الطبيعة » .

لقد رشحت يا أفق السحابا وقد أجرت رياحك الانتخابا

وزعم أنه عسر القراءة الصحيحة المستقيمة الجرس ، ورأى أن الأولى به أن يقول :

لقد رشحت يا أفق السحابا وقد أجرت رياحك إنتخابا

بقطع همزة الوصل بعد الـ « التعريف » كمذهبه الجديد في اللغة ، فأوضحنا له أن الشاعر جرى مع اللغة الفصيحة من وجوب إسقاط همزة الوصل في درج الكلام ، وأنه ليس ثمة داعٍ لتحقيقها ، ولا ضرورة — نحوية أو عروضية — لاثباتها ، ولا ذوقية ولا بيانية كذلك ، وأوردنا شاهداً اصدق ما ذهبنا اليه . قول الله تعالى « بئس الاسم الفسوق بعد الايمان » فلما سمعت منه البينة جاء يجادلنا فيه ويقول إنه دقق هذه الآية في سورة « الممتحنة » فوجدها مثبوتة الهمزة بعد الـ « التعريف » ، ولا أدري — شهد الله — كيف دققها في سورة الممتحنة وهي ليست من آيها — وهي كذلك لا ثانية لها من لفظها في القرآن الكريم كله من « الفاتحة الى الناس » .

* * *

على أن العبرة في القرآن بالقراءة لا الرسم ، وما إن سمعنا ولا رأينا من القراء (حتى الشواذ) من قرأها أو رسمها كما دققها هو في سورة الممتحنة !!!

ونستطرد فنقول . إننا دققنا أسماء السور « الشرح (الانشراح) . الانفطار. الانشقاق» في طبعات مختلفات من المصاحف ، فما وجدنا فيها ما زعمه من إثبات الهمزة بعد الـ « التعريف » .

فيا أخانا : نأمل أن تعيد النظر في الآية الكريمة وهي الحادية عشرة من سورة « الحجرات » وليست « الممتحنة » ؟

وعسى ألاّ يكون موقفك منا موقف العربي الذي قرأ قول الله تعالى « قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الأرض . فقيل له : أخطأت ، فقال : في صدور السماء ، فقيل له : اخطأت فقال يا ويلكم إذا كان لا يوسوس في صدور الأرض ولا في صدور السماء فأين يوسوس ؟

وتعجبه هذا لا ينفي أن « الوسواس الخناس يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس » — وصدق الله العظيم .

ملحظ

محمد الصادق عفيفي

شاعر الوادي

حاجتنا

الى منطق علمي مركز

قرأت في العدد الفائت من المقتطف — نوفمبر — مقالاً للصديق الاستاذ فؤاد جيماز يرد به على مقالتي « النظائر وكيمياء النواة » . وقد أدهشني أن يكون معظمه لا يمت لبحثي بصلة دانية ، ذلك لأنه أسهب في الشرح عن تركيب النواة وكيفية صنع القنبلة الذرية وعن التغييرات التي تحدث للنواة عند تسديد القذائف اليها الفوتون الذي لم يكن في صميم الموضوع . لانني لم أقصد من مقالي شرح نظرية النظائر ولا الدخول في تفصيلات التغيرات التي تطرأ على النواة عند صنع القنبلة الذرية من الأورانيوم كما تصور ذلك ، ولكنني قصدت شيئاً غير ذلك بالكلية لا أدري كيف غاب عن بال حضرته . انني قصدت أن أبين بوضوح تام لا لبس فيه بأن الافعال الكيميائية في النوى هي من اختصاص علم الكيمياء لا الطبيعة. هذا هو المركز الذي دار عليه بحثي ، والحقائق الأخرى التي جاءت في معرض المقال كانت بالقدر الذي يلزم للتدليل والبرهنة لا للاسهاب والتفصيل .

فأنت ترى بأنه لم يكن هدفي الخوض في تفصيلات وبحوث طرقت مراراً وتكراراً ، ولكنني أردت شيئاً أبعد من ذلك وأعمق ، وهو أن أعالج بل أنقد نظريات علمية بمرتبة النواميس، وقلت الاستاذ أن الاقوال التي يتسلح بها هي إياها التي أردت نقدها كما هو واضح من مقالي السابق . ولقد أحسن صنعاً إذ أجمل قوله في ثلاث فقرات لولاها لما أدركت بالتأكيد ما هو قصده الاساسي من مقاله ، أهو كيف تصنع القنبلة الذرية من الأورانيوم وكيف تفجر ، أم كيف تبنى نواة الذرة ، أم ما هي التحولات التي تصاحب نواة الذرة عند إطلاق النيوترونات عليها ، أم الرد على مقالتي التي لا علاقة لجوهرها بمعظم هذا .

والآن نأخذ تلك الفقرات وهي خلاصة قوله كما صرح وتحصها على ضوء الواقع وهي :

(١) قال الاستاذ في الفقرة الأولى ما نصه بالحرف الواحد . « تختلف النظائر باختلاف عدد النيوترونات التي في نواتها » اهـ .

والجواب على ذلك أنني لم أقل عكس ذلك، بل لم أتعرض لانواع الدقائق التي تتركب منها النواة ، وانما كان بحثي مركزاً في تباين وحدات الوزن الذري في النظائر ما دام وزن البروتون والنيوترون واحداً في النواة .

(٢) وأما الفقرة الثانية فهذا نصها : « لا يوجد كيمياء ذرة وكيمياء نواة فالكيمياء

تخص حقل الذرة الخارجي بينما الطبيعة تخص مركبات النواة » اهـ

ان الأستاذ هنا نسي أني لم أقنع بهذا القول الذي كنت أنا صاحبه الأول ، وإني تعرضت له وللرد عليه اذ قلت في مقالي السابق ما نصه بالحرف الواحد :

« وربما معترض يقول بأن الافعال الكيميائية في النوى هي من اختصاص علم الطبيعة لا الكيمياء لأن الكيمياء خصصت قوانينها بالانطباق على الذرات كوحدات مستقلة ولا علاقة لها بالنوى ، ولأن النظريات الحديثة التي تتعلق بالاشعاع وتركيب الذرة وتفككها وهدمها هي نظريات طبيعية تختص ببحث القوى في النواة ولا علاقة لها بالكيمياء . فنقول له: إن هذا لا يمنع بأن تكون التفاعلات النووية أفعالاً كيميائية ما دام تعريف الفعل الكيميائي ينطبق عليها ، ولو اختص علم الطبيعة بمعالجتها فكما أن بعض البحوث الطبيعية لا يتخرج عن دائرة الطبيعيات ولو اختصتها الرياضة العالية ، كذلك الأفعال الكيميائية وكل ما يتصل بهذا البحث من قريب أو بعيد هو ضمن دائرة الكيمياء وتحت كنفها، ولا عبرة للآلات الطبيعية التي تكشف لنا كل يوم عن أسرار جديدة وتذلل ما استعصى علينا فهمه في كثير من الحالات الكيميائية المتعلقة ، فهذه الأدوات للطبيعة إيّاها هي التي يستعملها العلماء الآن في كافة القضايا العالمية تقريباً ، وعلى الأخص البحوث الفلكية والبيولوجية ... الخ »

فمن هذا يتضح بأن فقرة الأستاذ الثانية كانت ترديداً لسؤالي دون التعرض لمناقشة إجابتي عليه في صلب مقاله . فاعتراضه هذا كان اعتراضي في الأصل في مجال التساؤل. وأمانة النقل تقضي عليه بأن ينوّه بذلك . ولو أدرك حضرته القصد البعيد الذي رميت إليه وهو أنني أنكر على علم الطبيعة أن تكون الأفعال الكيميائية في النوى من اختصاصه ما دام تعريف الفعل الكيميائي ينطبق عليها ، أقول لو أدرك ذلك وكان المنطق العلمي الموكو والده، لناقش براهيني التي أدليت بها لتأييد ذلك الاعتقاد ان كان ذلك في مستطاعه، ولفكر طويلا قبل أن يورد في سياق بحثه ذلك البرهان الذي اعتمد عليه في تأييد صحة تلك الفقرة وهو قوله « إن تفاعلات النوى من اختصاص علم الطبيعة لأن الجسيمات التي تتركب منها يسري عليها قانون كقانون الجاذبية » .

اني لا أدري كيف وقع الأستاذ في هذه الهفوة ، وكيف خص النواة بالجذب والتجاذب دون الالكترونات ؟ لقد نسي أن قانون التجاذب ينطبق على كل مادة أو مجموعة من المادة في الكون . وبما أن الالكترونات جسيمات مادية مكهربة، فقانون الجذب يسري عليها أيضاً سريانه على النوى ، ولو أن للنواة قانوناً خاصاً غير القانون

النيوتروني . وما دام الأمر كذلك فوجب — على رأيه — أن تختص النواة لا الكيمياء بالفعل الكيميائي في الالكترونات وهذا مستحيل . وهكذا يتضح لنا أن هذا البرهان الذي اتخذه للتدليل على أن تفاعلات النوى من اختصاص علم الطبيعة لا الكيمياء المركبة فيها تخضع لقانون تجاذب ، باطل وبعيد عن المنطق العلمي .

(٣) وهذه هي الفقرة الثالثة . « إن استخراج الطاقة الذرية الكامنة في نظائر الاورانيوم ممكن على شرط أن تستعمل فذائف من النيوترونات بسرعات متفاوتة حسب استقرار نواة العنصر أو النظير . فمثلاً نحتاج الى نيوترونات ذات سرعة كافية للحصول على الطاقة الكامنة في النظير ٢٣٨ بينما نحتاج الى نيوترونات بطيئة في حالة النظير ٢٣٥ نظراً لعدم استقرار نواته فاذا دخل النيوترون الى النواة فعلوها وخرجت طاقة » . أو

ان من يقرأ هذه الفقرة يظن بأني أشك في انطلاق الطاقة الكامنة من جميع نظائر الاورانيوم مع اني لم أتعرض الى ذلك مطلقاً . وانما الذي جاء في مقالي هو « ان النتائج التي حصل عليها العلماء من تفاعل نواة الاورانيوم رقم ٢٣٥ لم تتفق مع النتائج الحاصلة في النوعين الآخرين ، أي أن مقدار الطاقة المنطلقة من الاورانيوم ٢٣٥ لم تكن بذات المقدار المنطلق من رقمي ٢٣٤ و ٢٣٨ مع أن لتلك النظائر الثلاثة رقماً ذرياً واحداً وطيفاً واحداً ونشاطاً اشعاعياً واحداً » . ولو أنعم الأستاذ النظر أيضاً في ذلك هو أول الأمر لأدرك ان المقصود هو التباين في مقادير الطاقة المنطلقة من كل من نظائر الاورانيوم وليس امكان انطلاق الطاقة من النظير ٢٣٥ دون سواه . وأظن بأنه بعد ما يعيد النظر في ذلك يعود فيوافق بأن مقادير الطاقة ليست واحدة في تلك الاشياء الثلاثة بالضبط .

والحقيقة التي أود أن يدركها حضرة الأستاذ والقراء الكرام هي اني لم أحاول في مقالي السابق أن أبسط أقوال العلماء في النظائر والطاقة الذرية أو أن استفيض في شرحها وتفصيلاتها ليأخذوا على عدم الاسهاب وعدم الاحاطة التامة في بعض فروع البحث ، ولكني حاولت هيئة بكراً هائلاً هو أعمق من ذلك وأدق وهو الشك في صحة أقوال أولئك العلماء ونظرياتهم العلمية بعد أن برهنت بالأدلة بأن تفاعلات النوى هي أفعال كيميائية تتأثر بقسم الذرة الداخلي كما تتأثر الكيمياء بالقسم الخارجي منها . فمن أراد أن يناقشني أو ينقد أدلتي فسأكون له شاكراً اذا عالج صميم الموضوع وبرهن بأدلة قاطعة على أن تفاعلات النوى ليست أفعالاً كيميائية . وبذلك فقط يمكن دحض براهيني التي عززت بها قولي بأن الأفعال الكيميائية في النوى هي من اختصاص الكيمياء لا الطبيعة .

السلط — شرقي الاردن مريس الك ايم

من الأخبار العلمية

معجزات طاقة الصوت

« تستأصل الحشرات الزراعية وتبيد سوس القمح والجراثيم وغيرها وتمزج الزيوت بالمياه وعناصر الأصوية بعضها ببعض . وتقشع الضباب وتحوله مطراً . وترشد السابحين الى مظان السمك . وتدل على مكامن الفواسات . وتقتل الارانب والسلاحف على بعد ٦٠ قدماً . ثم تطارد الطيور غير المرغوب فيها » .

كتبت في منتصف أكتوبر سنة ١٩٣٤ مقالا عن أحدث معجزات الصوت ، تضمن خلاصة ما بلغته حينئذ مباحث العلماء بشأنه — ثم جاءتنا حديثاً المصادر العلمية بالتفصيلات الآتية وهي أروع ثمرات استخدام طاقة الصوت في زمني الحرب والسلم :

من أطرف أنباء الدوائر العلمية التي وافتنا بها حديثاً المجلات الامريكية : استفاد العلماء أن أغرب الرسائل العلمية وأحدثها هو الصوت غير المسموع . وكيف ذلك ؟ هذا ما سنصفه في هذه العجالة :

يخترق الصوت غير المسموع ألواح الصفيح ، بله الفولاذ . ثم إنه يهشم الأغذية الفيحاء مما يشوبها من الجراثيم ، ويصونها من الفساد العميم ، دون إفساد الطعوم القديم وإنه يبيد الحشرات ويهلك الهوام . فلا يبعد إذن جعله للزراع سلاحاً جديداً ماضياً لتقتل آفات المزروعات ، وصيرورته لدخان المصانع والأفران وقيتاً لها خير مكافح لإنقاذ السكان من أضرارها والأدواء . فسيصبح إذن خير الوسائل العملية لتنظيف المدائن والمغاني ويتميز أيضاً بكونه وسيلة لتحويل ما قد يخيم عليها من الضباب ، مطراً مدراراً (١)

فينقذ بذلك الطيارين ، من الارتباك الذي يعتريهم عندما تتعذر عليهم الرؤية أو يستحيل عليهم الاهتداء الى مهابط طائراتهم التي ينشدونها ، فينجون من الاخطار . والمقصود بهذه الأصوات ، الأمواج الصوتية التي تفوق ما يستطيع الجنس البشري سماعه . لأنها تتذبذب في الثانية الواحدة ذبذبات سريعة جداً تتفاوت بين عشرين ألفاً ومائة ألف ذبذبة . وأغرب من هذا كونها تتوغل في الهواء ، وتتغلغل في الماء ، كما تنفذ في المعادن والأرض والصخر بلا توان .

وتتولد الأمواج الصوتية السريعة التذبذب ، الشديدة الضغط الكهربائي ، من جهاز كهربائي مولدها ، ينتج تياراً كهربائياً شديد الضغط ، فيطلقه في أداة من البلور الصخري ، فتتذبذب ذبذبات بنسبة محدودة . وتنشأ الموجات الصوتية أيضاً من أي شيء

(١) روت الجرائد المحلية في ٥ مايو سنة ١٩٤٧ أنه كان بين الفائزين بالمحصول على جوائز الملك فؤاد الأول التعليمية الدكتور محمد جمال الدين الندي المدرس بكلية العلوم فوجائزة فاروق الأول بالاسكندرية وقد تقرر إيفاده الى أمريكا لدراسة المطر الصناعي والكهرباء الجوية

متذبذب، سواء أكان وتر آمن أوتار الصوت أم وتر كنجة . أم طبلة مجهار الصوت في الأجهزة اللاسلكية . ومن الميسور للناس سماع الموجات الصوتية متى كانت ذبذباتها في الثانية تتراوح بين ٢٠ مرة و ٢٠٫٠٠٠ مرة أما اذا زادت على ذلك ، فلا يتاح لهم الشعور بها . وهذه هي موضوع بحثنا ههنا .

فلو جئنا بقرص صغير من البلور الصخري وجعلناه مثلاً يتذبذب مليون مرة في الثانية ، لحدثت أحداث غريبة جداً إذ تنبعث منه طاقة كالسحر . وهذه هي النتيجة العجيبة التي شرعت في دراستها طائفة من أرباب الصناعات المختلفة . وهي صناعة الطعام وصناعة القولاذ ، ثم الدهانات والصيدلة والألبان والنقل والطيران ، دراسة يهدفون بها الى الاستفادة منها في ترقية منتجاتهم وتحسين أحوالها .

وعدا ذلك فان زرّاع التبغ « الدخان » قد أخذوا في تجربة هذه الأمواج غير المسموعة . وذلك لاستئصال هامة الحشرات التي تسطو على مزارعهم حيث تقصد التبغ في إبان تخميره . وستجربها أيضاً مطاحن الحبوب لتوقاها صوص القمح ، وكذا الجراثيم التي تنضج أحياناً في الدقيق عقب تحضيره . وحذا حذوهم في عملهم ذلك منتجو عصير العنب والأنبذة فأخذوا يجربون آلات الامواج الصوتية في قتل الباكتريا التي توجد في الحامض الخليك . وقد عثروا في ذلك كون الموجات الصوتية تقتل البراتيم وذلك بتوليدها فقاعات هوائية دقيقة جداً في خلية الميكروب فتمزقها . وهذا هو مذهب هـ . د . فون جنيف (H. D. von Jenny) كبير مهندسي شركة منتجات تليفيرن في شيكاغو وهو المشرف على المباحث الخاصة بالأصوات غير المسموعة التي تستخدمها هذه الشركة في صنع الأجهزة المولدة للموجات الصوتية غير المسموعة السريعة التذبذب الشديدة الضغط ، وإليه يُعزى التصريح الذي خرج به « إن الفوائد التي يحتمل أن يجنيها الناس من الأجهزة المشار إليها قد لا تُحدّ » وحسبه فخراً كونه ناقض المبدأ الثابت العتيق وهو « استحالة امتزاج الزيت بالماء » فأثبت أن هذا أمر ميسور عن طريق الجهاز الذي تقدم وصفه . على أن تكون الموجات التي يتوسل بها الى إتمام تلك الغاية ، كثيفة . فيظل الزيت ممتزجاً دائماً ، وبهذه الوتيرة يتاح مزج الزئبق بالماء ثم البرافين بالماء (١) .

وعلى هذا المنوال قد عُبّد السبيل وسيفتح للباحثين ليقوموا بمزج المواد التي لم يتحتم مزجها امزاجاً في عصور التاريخ طرًّا ، لينتفعوا بها منافع شتى . ولنضرب لك الأمثلة الآتية وهي : — إذا أطلقت

(١) البرافين هو الكيروسين للفطر الذي لا طعم له ولا رائحة . ويستعمل دواء ملينا . ويستخرج أيضاً من الخشب

الموجات الصوتية غير المسموعة ، على المستحلب الفوتوغرافي ، وأدت فوته الخاصة بانتاج صورة جلية جامعة لدقائق المرئي ثم إنها تقوي إحساسه وتباته ، وربما تصبح الموجات الصوتية غير المسموعة ، الذريعة المنشودة من حقب مديدة لتيسير امتزاج عناصر « البوية » الزيتية بعضها ببعض . وفي هذا الصدد يقول فون جنيف « لا يبعد أن يبطل استعمال البطاقات التي يلصقها الصيادلة على قوارير الأدوية المزمع تناولها ، وهي التي تنبه المريض الى رج الزجاجة جيداً قبل شرب دوائه منها » أو تقوم آلة توليد الموجات الصوتية غير المسموعة ، بتحريك الدواء المقصود تناوله تحريكاً شديداً لتبقى عناصره بعدئذ ممتزجة دائماً بعضها ببعض. وكذلك تعمل هاتيك الآلات على تعجيل انتاج الامصال . فإذا عولج سائل من السوائل التي تربى فيها الميكروبات ، وذلك بالموجات الصوتية غير المسموعة ، فحض بمحفضة ثم وشيج ، أهلكت البكتيريا التي تشوبه ، وتولدت فيه أجسام دافعة أو مقاومة للميكروبات هي الامصال (١)

ثم إن هذه الآلات تحسن طرق العلاج بعقار السلفانيازول إذ تقوم بتهشيم بلوراته الخشنة ، وذلك بالذبذبات الصوتية فتوضع هذه البلورات في محلول ملحي لتكون مستحلباً فضفاضاً فتحقن المريض به تحت جلده وذلك بإبر دقيقة. وقد كانت هذه الطريقة محسوبة من الطرق المستحيلة ، كما يقول فون جنيف .

وطفقت مصانع منتجات الألبان في أمريكا تجرب تعقيم اللبن في درجة حرارة منخفضة بهذه الطريقة .

وتحقق الآن مصلحة المناجم في حكومة الولايات المتحدة الأمريكية موضوع الاستعانة بالأجهزة المولدة للأصوات غير المسموعة ، لتشع الدخان المسبب للقتام من المصانع والمساكن . وخلاصة هذه الطريقة أن الموجات الصوتية عند ما تنطلق في عمود من الدخان تجعل جزيئات الوسخ تحتشد بعضها مع بعض ثم تسقط الى قعر المدخنة . ويسوغ تزويد المواني الجوية بالأجهزة المذكورة آنفاً لتبديد الضباب . وقد استخدمت هذه الأجهزة في المحطة الاختبارية للاصفاف الجوي البحري في مدينة أركاتا بكاليفورنيا ، فقد جعل الموجات الصوتية تحول الضباب مطراً . فانقشع من ميدان الطيران انقشاعاً تاماً ، كان من شأنه هبوط الطائرات فيه آمنة مطمئنة. وأضحت شركات صنع الفولاذ والمطاط « الكاوتشوك » تستكشف بأجهزة الأصوات غير المسموعة ، صلاحية منتجاتها . وغرضها من ذلك تمييز غثها من سمينها . ومدار طريقتها

(١) عند ما تدخل أية مادة غريبة أو جرثومة في الدورة الدموية ، يقوم الجسم بصنع بروتين مخصوص هو الذي يطلق عليه اسم مقاوم الميكروب أو دافعه ، وهو يتميز بكونه يشتبك بالمادة الغريبة وبهذه الوسيلة يحول دون قيام ذلك الدخيل بأحداث نتائج مضرة بالجسم البشري

أن أية آداة من مصنوعاتها إما تمتص هاتيك الموجات الصوتية وإما تبددها فيستدل في كل حالة، إما على صلابتها وإما على تشققها أو تثقبها أو ما شاكل من العيوب أو المميزات.

وتصنع شركة بندكس الأمريكية للطيران أجهزة تولد أصواتاً غير مسموعة، بغية قياس الأعماق وتسجيلها ليستعين بها صيادو السمك التجاريون، على الاهتداء الى أسراب السمك والاسترشاد الى المواضع العميقة الخطرة في الملاحة، كما بادرت وزارة البحرية الأمريكية في خلال الحرب الماضية، الى تزويد بوارجها وسفنها وغواصاتها بأجهزة (الصوناز) ذات الأصوات غير المسموعة، قصد الاستدلال بها على مواضع سفن الأعداء. وتصنع مولدات الأصوات غير المسموعة على نموذجين أولهما لأعمال المباحث، وثانيهما: للأعمال الخاصة بتعقيم الأغذية ومزج عناصر الأدوية المركبة بعضها ببعض. فلا غرو إذن في الاقبال على هذه الأجهزة العجيبة التي وردت على معاملها الطلبات تترى حتى غمرتها مطالب طريفة. ومنها أن الشركة التي تصنعها وهي المسماة تليفنزبرو، تلقت كتاباً من موظف كبير بمدينة شيكاغو، مستطلعاً، هل يمكن صنع آلة لتوليد الأمواج الصوتية لتقضي على الحمام الذي يحط على عتبات نوافذ مسكنه؟ وكذلك الذي يستقر على الاسلاك الكهربائية؟ ثم جاءت الشركة رسالة أخرى من زارع في اقليم أوكلاهوما يستوضحها أعندها بندقية للامواج الصوتية لقتل الطيور المتعبة التي تسطو على ثماره بستانه؟ ومما لا شك فيه أن للأجهزة المولدة للموجات الصوتية غير المسموعة، مستقبلاً عظيماً حافلاً بمنافع شتى، تحمد الدهماء على الاعتراف بأن فضلها بعيد، وأن نجاحها أكيد. ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن فون جنيف نفسه قد سخر طاقة الأصوات غير المسموعة، على سبيل التجربة، في ادارة مثقب من المثاقب التي تستعمل في جراحة الأسنان. فأسفرت تجربته عن تخفيف أغلب الألم الذي يتجشمه المريض حينئذٍ. وفي هذا الشأن يقول جنيف إن المثقب ذا الصوت غير المسموع لا يدور في ضرس المريض، كما تدور المثاقب المألوفة بل هو يلطم الضرس ويتحرك اقبالاً وادباراً حركة سريعة تتولد منها حرارة تسبب ألماً ضئيلاً جداً في الضرس المزمع علاجه، ثم ختم كلامه قائلاً «وفي وسعنا أن نخترع بندقية تستطيع اطلاق (أشعة الموت) لتقتل أرنباً أو كلباً على بعد ٦٠ قدماً من بطلقها».

* * *

ومن محاسن المصادفات أني اطلعت حديثاً في أحد المراجع العلمية على وصف الغدارة التي اخترعت لذلك القصد فرأيت ايرادها فيما يلي:

اخترعت في أمريكا غدارة صوتية لقتل الثعلب وقتله. وهي ذات صوت غير مسموع، وتستطيع قتل كلب على بعد ٦٠

قدماً . وذلك بأمواج صوتية خفية سريعة التذبذب . وقد صرح مخترعها بأنها تقتل الحيوانات الصغيرة شللاً تاماً ثم تقضي عليها عاجلاً في بضع ثوان . كما تستطيع إحداث الشلل في الانسان مدى ثلث ساعة وتتولد قوتها من غاز وهواء مضغوطين في مستودع صغير في باطن الغدارة ، يطلقان منها عن طريق صفارة أسرع من الصوت « لا يتمكن المرء من سماعها » والصفارة فوهة دقيقة لا تعدو ثخانة قلم رصاص . ويقول المخترع وهو عالم من علماء الطبيعة تخرج في جامعة شيكاغو إن الصوت البشري لا تزيد ذبذباته في الثانية على ٨٠٠ ذبذبة . ثم أثبت مذهبه في تجربة جربها أمام الجمعية الامريكية لعلم السمع حيث عرض عليها آلة صغيرة تولد صوتاً غير مسموع تبلغ ذبذباتها ٤٥٠٫٠٠٠ ذبذبة وتدور بتيار كهربائي محرك شديد الضغط يطلق في ملف خاص فينجم عنه ذبذبة سريعة بحسب الطلب ، وذلك في أداة من البلور الصخري فتولد الموجات الصوتية . وبلغ من قوة الآلة المشار اليها ، أنها مزجت الزيت بالماء مزجاً تاماً ورفعت درجة الحرارة في حمام كيميائي محدق بها ٢٠٠ درجة في ثانية واحدة دون أحداث صخونة في ذلك السائل الذي تم مزج بعضه ببعض .

وفي إبان الحرب الأخيرة استخدمت للبحرية الأمريكية آلات الأصوات غير المسموعة لتقليد الرادار في تعليم طياري الأسطول طريقة تصويب القنابل من القاذفات الساهقة

وبعد كتابة ما تقدم قرأت في مصدر آخر أمريكي وصف الآلة ذات الأمواج الصوتية التي تطارد الحمام في أمريكا فأثرت اثباته هنا تماماً للفائدة قرائنا واليك بيانه:

تستخدم في منيابوليس في اقليم منيسوتا على نهر المسيسبي ، الموجات الصوتية التي لا يستطاع سماعها ، لمطاردة الحمام غير المرغوب فيه ، الذي يجثم على دار محكمة تلك المدينة ، احتياطاً لاقلاق راحة أرباب القضايا الذين يترددون عليها يومياً . وذلك بآلة اخترعت لهذا القصد ، فوامها الموجات الصوتية السريعة الذبذبات التي تولد في الثانية ١٧٠٠٠ ذبذبة مزدوجة . فتزعج نبراتها الحادة الطيور ازعاجاً شديداً . وكان اختراعها نتيجة للمباحث الحربية التي أسفرت عن وجود موجات صوتية مختلفة تزعج مسامع أي مخلوق إذ أثبتت أن الآذان البشرية مثلاً تنزعج من الموجات المزدوجة ذات الـ ٢٫٥٠٠ ذبذبة مزدوجة ، على حين أنها تقوى على سماع الذبذبات التي لا تزيد على ١٣٥٠٠ ذبذبة مزدوجة في الثانية كما تستطيع « الضفور » الموجات التي تبلغ ١٤ ألف ذبذبة مزدوجة . ولكن الموجات الصوتية التي تتذبذب ١٧٠٠٠ مرة فتطرد الحمام ، لا يمكن لاحد من سكان منيابوليس ، سماعها أو الاحساس بها .

عوض جنري

مكتبة المقتطف

معاني الفلسفة

تأليف الدكتور احمد فؤاد الاهواني

هذا الكتاب يخرج بنظرية جديدة ، هي أن الفلسفة ليست مقصورة على فئة من الناس دون فئة ، بل هي شائعة في كل إنسان ، ما دام يفكر ، ويعمل ، ويبدي رأيه في مشاكل الحياة ، وما فيها من خير وشر ، وفي الحياة الآخرة ، وما الى ذلك من المسائل التي لا بد أن يفكر فيها كل شخص . ومن هنا كان كل إنسان فيلسوفاً على هذا المعنى .

وقد رتب المؤلف الكتاب على قسمين ، الأول في تطور الفلسفة وبدأتها منذ ظهورها في اليونان ، وبلوغها الأوج عند سقراط وأفلاطون وأرسطو ، ثم انتقالها إلى العرب والمسلمين ، ثم نقلها إلى الغرب في عصر النهضة . وعندئذٍ بدأت العلوم المختلفة كالفلك والطبيعة والكيمياء وعلوم الحياة تنفصل شيئاً فشيئاً عن شجرة الفلسفة ، واغتصب العلم بذلك ميدانها .

وجعل القسم الثاني خاصًّا بأهم مشكلة بقيت للفلسفة اليوم وهي مشكلة المعرفة ، فتكلم عن المعلومات المختلفة الموجودة في العقل . وما هو العقل ، وهل المعرفة نظرية أم مكتسبة ، وبسط القول في فلسفة كنت الفيلسوف الالماني صاحب أشهر نظرية في المعرفة ، حتى بلغ إلى آراء المحدثين مثل برجسون وفلسفة البراجماتزم

والكتاب مطبوع في دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى الحلبي وشركاه . وثمن النسخة ١٨ قرشاً .

وسوف يجد جمهور القراء في كتاب معاني الفلسفة متعة وفائدة . إذ يخرج القارىء بفكرة واضحة لا غموض فيها عن الفلسفة .

١ — ألوان من أدب الغرب

للاستاذ علي أدهم — ٣٤٥ صفحة من القطع الوسط — نشرته دار المعارف بمصر

الاستاذ علي أدهم كاتب يعنى بالفكرة أدق عناية . فأنه فيما يتناول من البحوث فأن الفاعر الذي يحمل بالمعنى قبل كل شيء لانه يعرف أن ذلك هو روح الفن، لذلك يجد القارىء غذاء عقله فيما يكتب ، ويحس فيما يقرأ له انه يستثير ذهنه ويبعث فيه روح التأمل والتفكير .

وهو في طليعة كتابنا وفرة اطلاع ودقة بحث وجدية أسلوب . يعنى باختياره لموضوعه في البحث الفكري أو العلمي مما يلفت الى القارىء كل حواسه ، كما يعنى فيما ينقل من روائع القصة وبدائع الآثار الأدبية بأن يكون منقوله مما يثير في القارىء تأمله ويوجهه توجيهاً فكرياً صحيحاً .

وكتابه الأخير « ألوان من أدب الغرب » سلسلة من تلك الحلقة التي أخرجها ، وقد عني فيه بالتنويع في عرض هذه الألوان ، فهو يقدم لوناً من اساطير سالنيكوف ، ومن أحاديث تولستوي ، وأدب ترجنيف، وحكمة كريلوف في الأدب الروسي. ثم يتجه ناحية الأدب الفرنسي فيعرض لوناً من أدب اناتول فرانس في قصه ، ويميل الى الأدب الاسباني فيتكلم عن شخصية أدبية حديثة تعتبر أكثر ممثلي العبقرية الاسبانية في العهد الأخير هي شخصية ميجويل أونامونو لينتقل من ذلك الى الأدب الايطالي فيتكلم عن تشاؤم ليوباردي ثم يتجه الى الأدب التشيكوسلوفاكي فيتحدث عن فلسفة الزعيم مازاريك وسياسة هذا الفيلسوف ، ويعطينا بعد ذلك لوناً من ألوان الرسائل مما دار بين متزيني زعيم الحركة الوطنية في ايطاليا وبين زوجة كارليل ، ثم يتحدث عن ذلك المستشرق الايرلندي الذي تجنس بالجنسية اليابانية ويمدنا بألوان من آثاره لينتقل بنا الى رجل العالم الانجليزي ولز . ثم يعرض علينا صوراً مما كان بين كارليل وجيته الالماني ، وأثر كارليل في الأدب الانجليزي عما نقله من آثار جيته وغيره من زعماء الأدب في المانيا ليختم المطاف بعد ذلك بالحديث عن توماس مير تلنك .

* * *

وهو في هذا العرض يحدثنا عن طبيعة أدب كل أمة أو ما يتميز به ذلك الكاتب من غيره ، وهو في هذا المحلل الدقيق في تحليله لهذه الخصائص مما يجعل لهذا الاختيار قيمته النفيسة بالثروة التي تضاف الى أدبنا فتغنيه

٢ — تاريخ الحرم القدسي

للاستاذ عارف العارف بك — ١٢٢ صفحة من قطع المقتطف —
مطبعة دار الايتام الاسلامية الصناعية بالقدس (فلسطين)

في الوقت الذي تتجه قلوب الامم العربية جميعاً حكومات وشعوباً نحو فلسطين العربية وتخفق هذه القلوب بالدعوة الى انقاذها من براثن الصهيونية ، ويقوم الصراع العنيف هناك ليفهض الحق لاهل الحق في هذا الوطن العربي ... في هذه الآونة العصيبة يخرج الاستاذ عارف العارف بك حاكم منطقة رام الله في فلسطين كتاباً تاريخياً عن أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ونعني به المسجد الاقصى .

وليس كتاب الاستاذ العارف بأول ما وضع عن هذا الحرم القدسي فقد وضعت عنه شتى المؤلفات تناول فيها واضعوها هذا الاثر المقدس من نواحيه الهندسية أو العربية والتاريخية والصناعية ، ولكن المؤلف الفاضل أراد أن يتم نقصاً لم يكمل بعد كتاب « الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل » الذي وضعه القاضي مجير الدين حيث أراد الاستاذ عارف أن يدوّن ما ألمّ بهذا الاثر من الاحداث بعد التاريخ الذي وقف عنده القاضي مجير الدين تدويناً منطقياً متسلسلاً ، وساعده على إبراز فكرته ما قرأه لمؤرخي الفرنجة الذين ذهبوا مذاهب شتى في تعليل الكثير من الحوادث التاريخية التي لها صلة بالحرم القدسي .

وقد تناول موضوعه في عشرة أبواب بدأت بالكلام على مسجد الصخرة الذي بناه الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان بعد استشارة المسلمين وتاريخه خلال العصور المتعاقبة لينتقل من ذلك الى الكلام على المسجد الاقصى ومن بناه وتاريخ بنائه وحالته في كل عصر حتى اليوم ثم يتحدث في الابواب الاخرى عن قبابه ومصاطبه ومآذنه وأروقته وأبوابه ومياهه .

والاستاذ العارف مؤرخ دقيق في تحرّي صحة الاخبار ومناقشتها وإذا عرف أن هذا الكتاب جزء من سفر ضخم يضمه عن تاريخ القدس أمكن تقدير القيمة العلمية التي رصد المؤلف جهده ووقته لتحقيقها مما يدعو الى الاعجاب .

٣ — عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي

جزءان في أكثر من ٨٠٠ صفحة — نشرته مكتبة الآداب بمصر — مطبعة التوكل

الاستاذ محمود رزق سليم مؤلف هذا الكتاب من أفاضل الاساتذة بكلية اللغة العربية بالجامعة الازهرية وهو عالم بحاثة أراد أن يخدم الادب العربي الى جانب خدمته الثقافية

فتطلع نحو تاريخ هذا الأدب في شتى عصوره في مصر فوجد عصراً منها قد ظلم ، ذلك هو عصر المماليك ، فعكف على آثاره يقرأها ويدرسها دراسة العالم المتمحص حتى استطاع ان يخرج بهذه الدراسة المؤرخة لذلك العصر فرسم صوراً تتناول كل منها جانباً من الحياة فيه . وقد توخى في ذلك تبسيط الحديث بما يلائم عصرنا دون البعد عن جو العصر الذي يتحدث عنه مع الاقتباس وايراد النص القديم عند الحاجة الى الاشارة الى المرجع ليعين القارىء والباحث على متابعة الدرس ، وقد استهل بحثه بنظرة سريعة في تاريخ مصر من الفراعنة الى المماليك لتساعد القارىء أو تهيئه لدرس العوامل التي جعلت للادب المصري خصائصه . وقد صدر من هذه الحلقة الأدبية التاريخية القسمان الأول والثاني من الجزء الأول ، وأملنا أن نستطيع أن نتكلم على هذا الكتاب بدراسة وافية عند اتمام إخراجه كاملاً فنوفيه حقه من الدرس .

٤ — الكميت بن زيد ، شاعر العصر المرواني

الاستاذ عبد المتعال الصعيدي — ١٦٠ صفحة من القطع الوسط — نشرته دار الفكر العربي — مطبعة الرسالة

وهذا أثر من آثار العالم الفاضل الأستاذ عبد المتعال الصعيدي الذي تحدثنا منذ شهور عن جهوده في الأدب والدين يتناول فيه أثراً أدبياً هو القصائد الهاشميات وصاحبها الكميت ابن زيد — تلك القصائد التي وضع بها هذا الشاعر باباً جديداً في الأدب العربي . وقد أراد الأستاذ الصعيدي أن يجعل من هذه الدراسة كشفاً عن جوانب الزعامة الأدبية للكميت الذي يراه أحق بهذه الزعامة على شعراء عصره ، وهو عصر بني مروان ، وليبين أنه أحق بها من جرير والفرزدق والأخطل ، فهو يرى أن تشيع الكميت لبني هاشم سبب من أسباب تألب ملوك بني مروان عليه ورفع شعرائهم عليه والترويج لهم بين الناس حتى شغلوهم عن الكميت

٥ — العصبة

في سنة ١٩٣٥ قامت العصبة الأندلسية في سان باولو بالبرازيل بإصدار مجلة تخدم الغاية الرفيعة التي من أجلها أنشئت هذه الرابطة الثقافية في ذلك المهجر ، وهي تدريز الأدب العربي هناك بمختلف الوسائل وإيجاد الصلات القلبية وتوثيق روابط الولاء بين العصبة وسائر أندية الأدب العربي ومكافحة التعصب وتحبيس العقائد ونقض التقاليد التي تناقي روح العصر وتؤدي الى الجمود الفكري .

وقد كان لهذه الرابطة من نتاج وجهود أعضائها — وهم من خيرة أدباء العربية العاملين على رفع شأنها في مهجرهم والذين يفخر الأدب العربي الحديث بآثارهم الرائعة — خير دون

لجلة العصبة من أن تجد طريقها الى إعجاب القراء في مختلف أقطار العربية مهداً . ولقد فلّت تلك المجلة داسة برسالتها تشقّ طريقها الى جانب أكبر المجلات العربية وأرقاها حتى قامت الحرب العالمية الأخيرة ، وما كادت تبدأ سنة ١٩٤٠ حتى حرمنا وحرم المعجبون بهذه المجلة الرفيعة أصلوباً الرائعة إخراجاً، باحتجابها ، وكانت تحمل إلينا آثار إخواننا المجاهدين في سبيل النهوض بالأدب العربي في مهجرهم ... وأخيراً حمل الينا البريد بعد احتجاب طويل عدداً من هذه المجلة بعد أن عادت الى الظهور حاملة لواءها الذي حملته ست سنوات لتذيع على العالم العربي أصداء الصوت العربي الجميل الذي يصدح من وراء البحار ملحوظة بعناية محورها الكاتب الكبير الذي يعدّ من خيرة الكتّاب العرب الاستاذ جبران مسعود مع إخوانه أعضاء العصبة الأندلسية الأفاضل . . . وقد سرّنا عودة هذه المجلة لأن في ذلك امتداداً لظل الأدب العربي في بلاد جاهد اخواننا في العروبة في حملها وطناً ثانياً لهم ، ولم ينسهم كفاحهم هناك أن يجعلوا من هذه الاندلس الجديدة ميداناً فسيحاً للغة الضاد ، واننا إذ نعلن سرورنا نأمل أن تستطيع بقية المجلات والصحف العربية هناك كالشرق والاندلس الجديد وغيرها متابعة حركتها وجهودها لتكون عوناً على تمسك النشء من أبناء هؤلاء المهاجرين بلغة آبائهم وأجدادهم .

حسن كامل الصيرفي

١ — بين النيل والنخيل

قصيدة وداد سكاكيني — ٢٠٨ صفحات — دار الفكر العربي

أقاصيص من مصر بأنامل من سوريا ، وصور من حياة المصريين يصوغها ذهن من الشام ، ونظرات عميقة في شؤون النيل والنخيل تفيض بها قريحة سيدة كريمة ، هي السيدة وداد سكاكيني .

عاشت في مصر قرابة نصف حقبة من حلقات العمر ، فألفت أهلها ، وعرفت لهجاتهم ووقفت على عاداتهم، وتدبرت تقاليدهم، واصغت لها صيوبهم ، وتبدت لها فضائلهم ، ومن ثمّ أرادت أن تطلع أهلها وسائر المشارقة على ما شهدته ، فكتبت كتاب « بين النيل والنخيل » يضم بين دفتيه نخبة من الأقاصيص والصور المصرية جلية القسمات واضحة المعالم نابضة بالحياة فيها آراء في الاصلاح تدسها بين السطور دسّاً حتى لا تكون لها صفة « الأمر » بل صفة « النصح » وتدور في كل وحدة فنية من وحدات كتابها منحًى بعينه من مناحي الحياة المصرية غير متأثرة إلاّ بحقائق الحياة بنفسها في دارات الثراة وبيوت العذّج المتواكلين ومجتمعات الأمراء الراهبة وأحياء المتوسطين والموظفين .

وهذه المجموعة في مجملها تنفح عن حقيقة لا مجال لطمسها ، وهي أن الحياة في مصر « سكلانس » أو Cosmopolitan ، ترى فيها نماذج من الأنامي ومن العادات ومن اللباس ومن العقليات لا تكاد تجدها في بلد سواها . وتعليل ذلك كثرة الثقافات والغزوات التي تعاورت مصر في حقب تاريخها الطويل ، فتركت كل منها آثاراً لا تمحى ستظل باقية ما دامت مصر ملتقى لقارات ثلاث ، وما برحت محط كل سانح أفاق .

ومن الانصاف للسيدة وداد أن يشاد لها في هذا العدد بما تم عليه كتابها من حب صادق لأهل وادي النيل ومن مودة صحيحة تضمرها لمصر عن رضا ورغبة .

٢ — تاريخ العرب العام

تأليف سيديو — ترجمة الاستاذ عادل زعيتر — عيسى البابي الحلبي — ٥٤٢ صفحة من القطع الكبير

تُغبط اللغة العربية إذ تجد اليوم بين أبنائها عالماً ضليعاً وأديباً كبيراً أوتي ولعاً بالترجمة ، واقتداراً على التحري والتدقيق ، وصبراً وتجلداً كبيرين ، فتوفر على نقل سفر نفيس عن « تاريخ العرب العام » إلى لغة الضاد ألفه بالفرنسية المستشرق العلامة ل . ا . سيديو ليسدي إلى العرب نصفة وراع أعلاً لها ، ولينشر على العالم صفحات نضار سجلها العرب بتجيهم وإعلامهم وفكرهم وعلمهم فأقاموا البينة تلو البينة على أنهم جدير ون بالتقدير خليقون به .

فالأستاذ الكبير عادل زعيتر ، أديب فلسطين المعروف ، استطاع بترجمته لكتاب « تاريخ العرب العام » أن يتم الرسالة التي شاء العلامة سيديو إبلاغها للملأ ، لأنه يعتبر العرب بتراثهم الذي عُني فرنسيٌّ بتسجيل معالمه ومظاهره ، وفتح عيونهم على صديق لهم ينبغي أن يعرفه حتى الصبية الصغار في المدارس الابتدائية لأنه رجل عرف قدر الحق فأعلنه بين قوم مدبرين له معرضين عنه ، وقال قولته فدوت دويها لأن قائلها حمل شامخ توزن كل كلمة له بميزان مدق .

ولم تكن مهمة الأستاذ زعيتر مقتصرة على الترجمة — وإن كانت تلك التبعة مضنية مجهدة — بل تجاوزها الى تحقيق الحوادث والنصوص والأعلام التي تأثرت بالمعجمة تأثيراً أفقدها حرفيتها العربية ، وتثبت من حقيقتها وأصولها . فجاء هذا السفر النفيس متميزاً حتى على قرينه الفرنسي من حيث الاصالة والدقة .

ولي أمنية كنت أرجو الأستاذ زعيتر أن يحققها في كتاب « تاريخ العرب العام » وإني أعلم سلفاً أنها حمل ثقيل يهد الناهض به ، تلك هي أن يذيل الكتاب بقائمة بالأعلام

الواردة فيه ونقلاً لما جرى عليه الغربيون في ما يصنّفون لأن في هذا تسهيلاً لعمل المراجع وتيسيراً لمهمة الباحث .

ولست أعني بذلك أن الكتاب يُصاب لافتقاره الى فهرس الأعلام ، وإنما أعني إنه كان يكتسب صفة قريبة من الكمال لو أُودف بهذا الثبت .

٣ — شعر الحرب في أدب العرب

الدكتور زكي المحاسني — دار الفكر العربي — ٣٠٨ صفحات من القطع الكبير

أفي أدب العرب ملاحم حرب كآداب الغرب ؟

يجيب الأستاذ الدكتور زكي المحاسني عن هذا السؤال بنعم ، ويقول إنّ العرب شعب مفطور على حبّ الصراع والنزال ، لا يُهيب الوغى ولا يخشى المنون ، وتاريخ العرب من عهده الى يومنا هذا حافل بضروب من الشجاعة والبطولة والفروسة خلّدتها صفحات التاريخ وعكست صورها آدابهم وقريضهم .

أنت تقرأ كتاب «شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي الى عهد سيف الدولة » فيتنابك زهوٌ وفخار لأن شعر الحماسة عند العرب يكاثره عند الأعاجم ، ولأنه أقرب الى العجية والطبيعة من غيره ولأنه يطول ويقصر حتى لتجد له أثراً في شعر الغزل والتشبيب وهو مع ذلك شعر ينطوي على معانٍ نستطيع فهمها اليوم على ضوء الكشوف الحربية والعسكرية الحديثة ، فتعجب كيف غوت تلك المعاني عقول شعراء البيد ، وكيف تسامت أفكارهم حتى رأت المستقبل المجهول من وراء حجف كثيفة مسدلة .

***

ويقول الدكتور المحاسني في كتابه — وهو أطروحة مهدت له نيل درجة الدكتوراة — إن المعاني الحربية والحماسية تكاد تكون شاملة لكل ما يفوه به العرب وذلك لأنهم أهل حرب — والسلم عندهم فترة تأهب لقتال وطعان — فنشأ أطفالهم ونساؤهم نشأة لا تهاب حومات الوغى ، وأبدت فتياتهم بسالة وشجاعة وصلادة قلّ ما نجد لها اليوم مثيلاً . ويفرق الدكتور المحاسني بين شاعر الحروب العربية وشعراء الملاحم عند الفرنجة بأن ناظمي الملاحم العرب الأفحاج كابدوا الحروب وعانوها وكانوا وقودها ولظاها بينما غيرهم يتمثلون ويتصورون ويتخيلون وينسجون لسيج شعرهم من الأنباء التي تنقل اليهم .

وهذا سفر نفيس آخر تغنم المكتبة العربية لأنه يتفرد بأصالة في البحث وتخصص في الاتجاه ورصانة في الأسلوب وتبحر في درس الشعر العربي القديم

٤ — الدكتور حازم

مسرحية للاستاذ علي احمد باكثير
لجنة النشر للجامعيين — ١٤٢ صفحة من الحجم المتوسط

إعراض الكتّاب في مصر عن كتابة المسرحية أمرٌ معروف ، أما علّة هذا الاعراض فهي ما يحار المرء فيها .

والعجيب في هذا أن الأدب الغربي يمنح المسرحية — أو الدراما — هأواً كبيراً ويعدها من العمد الأساسية التي يرمي عليها بنيانه بينما الكتّاب العرب — ولا سيما المصريين — يغفلون هذه الدعامة الأدبية ويعرضون عن معالجتها .

لذلك نرى أن اتجاه الأستاذ علي احمد باكثير إلى الكتابة للمسرح — أو كتابة المسرحيات على أصدق تعبير — اتجاه طيب من شأنه أن يسدّ ثغرة تتسع كل يوم على الراتق . وقد أخرج في شهر واحد ثلاث مسرحيات هي « الدكتور حازم » و « سرّ الحاكم بأمر الله » و « ابراهيم باشا » فكان هذا رقماً قياسيًّا أغلب الظن أن أحداً لم يسجله من قبل .

ومسرحية الدكتور حازم التي نتعرض لها هنا مسرحية عصرية تفصح عن لون من ألوان الحياة في المجتمع المصري، وتعالج مشكلات تعتور العائلة المصرية بسبب نقص في التكوين الخلقي

وشخوص المسرحية هم : شاب معتدل أقبلت عليه الحياة ولكن انحلال العائلة جعلها تدبر عنه . وشاب آخر مثلاف فقد عنصر الأخلاق فجرفه تيار الهوى لولا يد مدت لانقاذه. وأبٌ كهل فقد رجولته فسيطرت عليه زوجة شابة خرقاء كادت توردة مورد التهلكة ، ووالد آخر اعتدّ بنفسه اعتداداً أهتى ذكاء يقضي على هناءة ابنته .

ومن هذه الشخوص ، ومن آخرين معهم ، صاغ الأستاذ باكثير مسرحيته صياغة سهلة هادئة التطور ، ولعلّ هذه هي علة روايته الأولى . فأنت تقرأ الرواية فلا تجد فيها ما يثير شعورك ويحملك على الانفعال ، هأنك في ذلك شأن قارئ الصحيفة الذي يمر بنبأ عن الانتخابات البرلمانية في نيوزيلندا مثلاً .

ومن عيوبها اقحام رجل « كبيوهي افندي » فيها ، فأعتقد أن هذا الكاتب — أو الباشكاتب كما يسميه المؤلف — شخصية كان يمكن الاستغناء عنها إن لم يكن لتوفير عدد شخوص المسرحية فلتوفير مرتبه الذي يتقاضاه من أسرة أخنى عليها الدهر تبصّرها .

والمسرحية على العموم مسرحية هادئة تفتقر الى عنصر الذاتية والتفرّد الأدبي ، وإن كان أهم ما انطوت عليه هو دروسها الأخلاقية وعبرُها الأدبية .

وديع فلسطين

فهرس الجزء الاول

من المجلد الثاني عشر بعد المئة

١ التكافل الاشتراكي — نظرية ما في النظام الاجتماعي : اسماعيل مظهر

١٩ وسائل النجاح : مصطفى عبد اللطيف السحرتي

١٤ مزدهرتان ثقافيتان تتفكر في لبنان : حسن كامل الصيرفي

١٧ الله وفلسفة الوجود : نقولا الحداد

٣٤ سراب (قصيدة) : عدنان مردم بك

٣٥ نظرات في النفس والحياة : ع . ش

٤٢ وحدة الفضل : ادوار مرقص

٤٥ حافظ وشوقي — صدى الحوادث عند الشاعرين : حسن كامل الصيرفي

٥٦ في التربية — الحرية في المدرسة : محمود حامد شوكت

٥٩ مشهد من مسرحية كليوباترة : محمد فهمي

٦٢ باب المراسلة والمناظرة « رد على رد : شفيق الساوي عمار : حاجتنا الى منطق علمي مركز : جريس الشرايحة :

٦٧ باب الاخبار العلمية « تجربات طاقة الصوت « عرض جندي

٧٢ مكتبة المقتطف « معاني الفضيلة ١ — ألوان من أدب العرب ٢ — تاريخ الحرم القدسي ٣ — عصر سلاطين المماليك وبقاياهم الحالي والادبي ٤ — الكميت بن زيد ، شاعر العصر الزواني ٥ — العصبية : حسن كامل الصيرفي : ١ — بين النيل والنخيل ٢ — تاريخ العرب العام ٣ — شعر الحرب في أدب العرب ٤ — الدكتور حاوم : وضاح فلسطين

لحق المقتطف

الحياة الاقتصادية في مربوط : جنة الصحارى الأفريقية وروض الصحراء الغربية : بقلم عبد اللطيف واكد

٥ ـ الحياة الاقتصادية

١ — الزراعة

اذا أخذنا بتقسيم العلامة « إنجلر » من حيث التوزيع الجغرافي للنبات فان الصحراء الغربية تنتمي لمنطقة الصحراء الكبرى التي تُعد من أفقر صحاري العالم . ومع ذلك فيمكن تقسيمها من الوجهة النباتية قسمين . قسم جدب . . وقسم نباتي :

١ — ﴿المناطق الجدباء﴾ : توجد في الصحراء مناطق تمتد عشرات بل مئات الأميال ، وليس فيها أي أثر للحياة النباتية ، ولعل أول شيء يتبادر الى الذهن ، بمجرد ذكر الجدب في مكان ما ، أن عدم وجود الماء فيه هو السبب المباشر في جدبه وإمحاله ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فإن الجدب لا يُنسب للجفاف الشديد ، اذ توجد أنواع خاصّة من النباتات تلائمها تماماً مثل هذه الظروف ، ويمكنها أن تعيش وتنمو ، بل وتعطي بزوراً تتكاثر بها تحت ظروف الجفاف لمدد طويلة ، ولا تحتاج إلاّ لرطوبة فصل الشتاء ، وما تجود به السما من قطرات الندى في آخر الليل كبعض أنواع الحريشة . والطرطير . والخامول . حتى وإن تأخر الغيث أربعة أعوام لا يهطل فان هياكلها الباهتة تظل قائمة في الصحراء ، وليس عليها من آثار ما تعانيه من جفاف غير بعض الذبول الذي يرين عليها في أوقات القيظ الشديد .

ولكي تستطيع هذه النباتات أن تقاوم العوامل المهلكة للحياة ، كالحرارة والجفاف وتحتفظ بوجودها ، عليها أن تتحصن ضد هذه العوامل ، لتضمن لنفسها المناعة من عبثها حتى تغالبها وتبقى تنعم بالحياة ، وتسمى هذه النباتات « بالنباتات الجافة »

وتحتال النباتات الجافة في ذلك بوسائل عدة ، فإما أن تكون وسائل هذا التحصن مخفية على أعماق بعيدة تحت سطح الأرض كأن تجعل النباتات لنفسها خزانات تكتنز فيها مدخراً من الماء والغذاء ، على هيئة درنات كالتّحيّر Erodium .. وهذا نادر .. !

وإما أن تكون ظاهرة في أجزاء النبات العليا ، كتصغير المساحة الخارجية المعرضة لتلك العوامل ومظهرها الفقر في الأوراق كالرتة Lavandula Coronapifolia أو الكثرة

العظيمة في الأشواك كالكداد Astragalus Forskelei أو التفاف حواني الأوراق لتظل قصها من الشمس ، ولتمنع الريح الجافة من أن تلامس سطحها عند هبوبها كما في الدرينيان Cayratia أو انطباقها على بعضها البعض كما في السنامكي Cassia acutifolia

وتقع تحورات أخرى في الأوراق التي كثيراً ما تختلف في الشكل والحجم والأنسجة والتركيب وكذلك الأمر في الساق .

وفضلاً عن ذلك فإن لنباتات الصحاري تحورات أخرى تتمكن بها من تحمل محنة الجفاف الكبرى .. وعدم ملاءمة الجو الصحراوي أثناء موسم الجفاف الطويل ، فالنباتات المعمرة تنمي جذوراً طويلة للغاية بالنسبة للنبات الظاهر على سطح الأرض . وقد تبلغ هذه الجذور في بعض الشجيرات بالنسبة لطول الساق الظاهر على الأرض عشرين مرة أو تزيد عن ذلك ، حتى تصل الى بعض موارد مختفية من الماء .. !!

والنباتات الحولية أو القصيرة العمر ، شبكة من الجذيرات الشعرية تنتشر تحت سطح الأرض مباشرة لتمتص الرطوبة التي خلفتها فيها المطر أو الندى ، فاذا ما جفت منها ذبلت ومات .

وليست قوة احتمال هذه النباتات ترجع لقدرتها فقط على تقليل التبخر الى نهايته الصغرى ، إذ يكون هذا التبخر أحياناً أكثر ارتفاعاً من المعتاد . وإنما يرجع ذلك لقدرتها العظيمة في امتصاص الماء من الأرض وإن قل أو ندر وجوده . وهذه المقدرة أعظم بكثير مما هي في النباتات الأخرى المعتادة . فقد يصل الضغط الأسموزي الذي به تسحب النباتات المياه خلال أنسجتها الى قوة تتراوح بين ٨ : ٢٠ جواً ولكن هذا يتساوى مع ما في النباتات الحولية الصغرى ، ويفوقه بكثير ما في النباتات المعمرة والأعشاب ، وقد اكتشف الهر فتنج Fitting أن الضغط في بعض النباتات يصل الى نحو مائة جو وذلك كما في زيارة أم الندى Reaumuria, L.

مما تقدم يتبين لنا أن الجدب لا يُنسب لعدم وجود الماء ، وإنما يرجع لعوامل وأسباب أخرى نذكر منها :

١ — فقر التربة في المواد الغذائية التي تحتاجها النباتات .

٢ — توجد أماكن منخفضة بها مركبات ملحية تخالط التربة بكثرة فالبقاء السبكراس Seburaso (٢٠) ولو أن في الصحراء نباتات محبة لها الملوحة . الا أنه توجد نباتات لا يمكن أن تعيش بالقرب منها ، ويصادف أن النباتات التي تحتمل هذه الملوحة لا يلائمها الطقس الذي به هذا النوع من التربة .

٣ — اجتياح الغزو الرملية لبعض المناطق ذات النبت ، فلا تُبقي على أي نبات عندما تغمره ، وإنما تهلكه بأسرع ما يمكن . اللهمّ الاّ اذا بقيت القمم النامية ظاهرة على سطح الأرض . هذا في حين أن الرابية الصغيرة التي تتكوّن أحياناً حول جذوع النباتات التي لها قوة احتمال التغيرات الجوية لها فائدة عظمى ، إذ انها تساعد على التبرعم كما انها تحتفظ بالرطوبة الجوية المتخلفة من الأمطار شتاء والندى ليلاً ، ولهذه الرطوبة من الأهمية العظمى للنبات مافيها .

٤ — رحيل البدو التي تتربى في الصحراء عامل هام في جذب بعض المناطق إذ انها تطوش القمم النامية لجميع النباتات الخشبية الصلبة ، وتأكل الحوليات التي تعطي بزوراً .

٥ — البدو . وهم دائبو السعي وراء الوقود للدفء غذاء ، ولطهي الطعام وعمل الشاي طوال أيام السنة ، فالبدوي سواء المتوطن أو المتنقل ، يقتلع من الأرض ما تصل اليه يده من الاحطاب خصوصاً نبات «البليل» إذ أن بقايا جذوره تعتبر وقوداً فائق الجودة ، لذلك تجده قد اختفى من الصحراء اللهمّ الاّ من منطقة قطرها ٣٠ : ٥٠ كيلومتراً من الواحات

ومن النادر أن تجد مرعى في الصحراء لم ترعه الابل مرة في العام على الأقل ، أو لم ترعه الأغنام التي تسعى وراء الكلأ بالقرب من مضارب البدو المقيمين بالصحراء .. وعلى العموم فان الانسان والحيوان عامل متلف دأب على ذلك آلاف السنين حتى أكسب هذه المناطق صفة الجدب

٢ — ﴿ المناطق ذات النبت ﴾ : وتنقسم قسمين (١) مناطق نباتية برية (٢) مناطق نباتية زراعية .

١ — المناطق النباتية البرية

وهي التي تنمو فيها نباتات كثيرة أو قليلة دون أن يكون في وجودها دخل لليد الانسان وتتكاثر هذه النباتات غالباً بالبزور التي تنتشر بين السهول والأودية وفي جميع مناطق نموها بعوامل طبيعية كثيرة أهمها :

١ — الرياح : وهي عامل مهم في نقل البزور ذات الشعر التي تتطاير في مهابها متنقلة من مكان الى آخر حتى تصادف المكان الرطب الذي تنمو فيه كالأرخ Leptadenia, R وهناك نباتات تتنقل بأكملها مع الرياح حيث تنمو من جديد في أماكن أخرى ، ونبات كف مريم Rose of Jericho مثل صريح على ذلك ، إذ عند ما ينقضي فصل الأمطار يلف هذا النبات الصغير فروعه فيصير كتلة كروية صغيرة تحتفظ داخلها بالبزور .. ثم تقتلع نفسها من جذورها ، وتستسلم للريح التي تدحرجها أمامها على أديم الصحراء فاذا ما سبقت الى مكان نديّ أو أدركها موسم الأمطار تفتحت وأرسلت بجذورها في الأرض ونمت مرة أخرى

وزهت الثمار وانفتحت تنثر البزور فيما حولها وفي خلال أربع وعشرين ساعة تكون قد نبتت وأرسلت الى الأرض بجذيراتها الدقيقة .

٢ — السيول : وعند ما تسقط الأمطار بغزارة في الصحراء تتجمع المياه وتتصدر نحو المنخفضات حاملة معها ما خلفه الموسم الماضي من بزور على الروابي ، فتوزعه على ما تمر به من أودية وسهول حيث تنمو عقب رشوحها .

٣ — الحشرات : وفي زمن الصيف تكثر في الصحراء الحشرات الصغيرة التي تسكن الجحور وهذه الحشرات تقضي ايام الصيف دائبة السعي وراء جمع مؤونتها حيث تختزنها في بيوتها تحت التربة وبين ما تجمعه بزور بعض النباتات التي تعثر عليها ، فاذا ما جاء فصل الأمطار نبتت هذه البزور ، وقد لوحظت مثل هذه الحالة في ناحية برج العرب حيث شوهدت بعض أنواع من النمل تحمل ثمرات الخبازى الى بيوتها لاعتمالها وقت الحاجة .

٤ — الطيور : وتحمل الطيور بعض الثمار ذات البزور من مكانها الى مكان آخر حيث تأكل لحم الثمار وتترك البزور التي ربما تصادف جوًّا مهيئًا للنمو . فتنمو . ١١

٥ — الجمال : وتتناول الجمال بين ما تتناوله من علف بعض الثمار ذات البزور الصلبة التي لا تهضم فتخلفها في روثها في أماكن بعيدة خلال رحلاتها الطويلة في الصحراء كالخروب مثلاً . وقد شوهدت بزوره في روث الجمال في أماكن كثيرة .

٦ — الحيوانات ذات الفراء : كالفئران مثلاً إذ تعلق بصوفها البزور أو الثمار ذات الأشواك أو البزور ذات الخطافات .. كالقريص Tribalus alatus

ومن أهم خواص نباتات الصحاري عدة الحساسية الرطوبية فان السيقان وأعناق الأزهار وصمامات الثمار وشعابات الأزهار أيضاً تتكمش بإحكام في بعضها البعض عند جفافها فاذا ما ابتلت انفرجت ، وتفتحت ، ولهذه الوصلة لا تنبعث البزور إلا في موسم الرطوبة .

وجميع هذه النباتات البرية تتبع فصائل عدة من ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين وبينها الحولي وذو الحولين والمعمر ، كما أنها تضم بينها الحشائش والأعشاب والشجيرات والأشجار .. ١١

أما الحوليات فوطن أغلبها المنطقة الساحلية وكثرتها الغالبة في مربوط حيث تنمو بعد سقوط الأمطار شتاء ، وتزهر في فصل الربيع مع النباتات الأخرى ذات الحولين والمعمرة فتحيل الصحراء القاحلة صيفاً الى فردوس جميل ، يلذ للنفس أن تستمتع بما فيه من نضار . لذا فقد أخذت المنطقة الساحلية وعلى رأسها مربوط شهرة واسعة بأزهارها الجميلة في فصل الربيع من أقدم العصور ، وإن الذي يرى تنسيق الأزهار في مجاميعها وتوزيعها

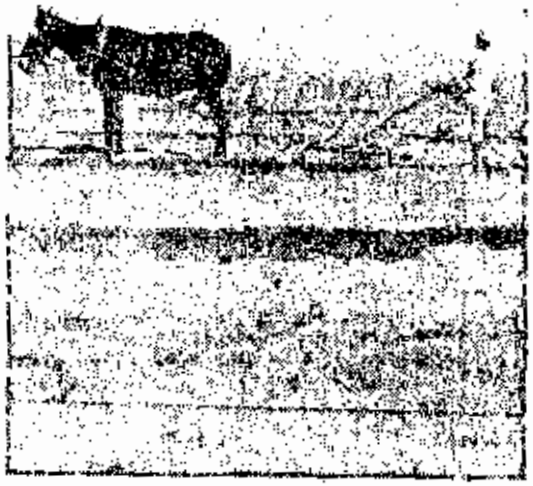

المحراث الأفرنجي يجره بغل يقسم البساتين
سنة ١٩٣٥ ببرج الغرب

معصرة زيتون بلدية وتصنع من خشب النخيل
وخشب الزيتون

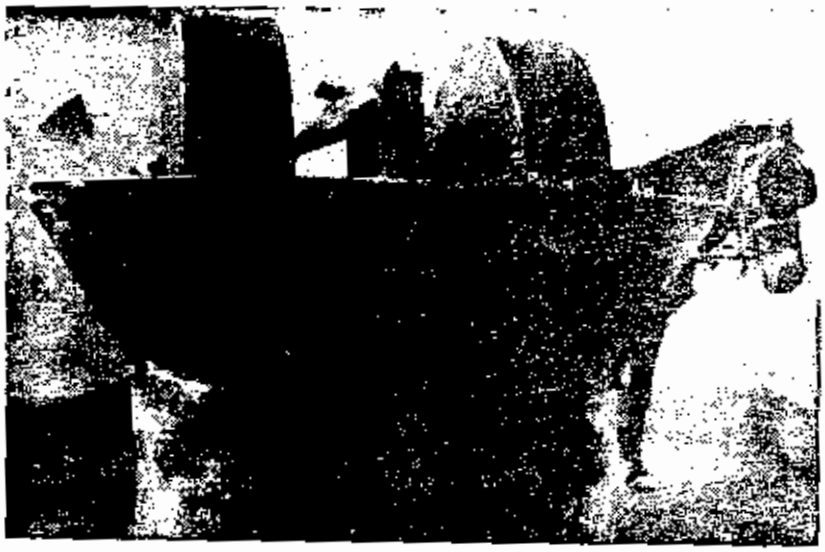

هراس الزيتون ببرج العرب سنة ١٩٣٥

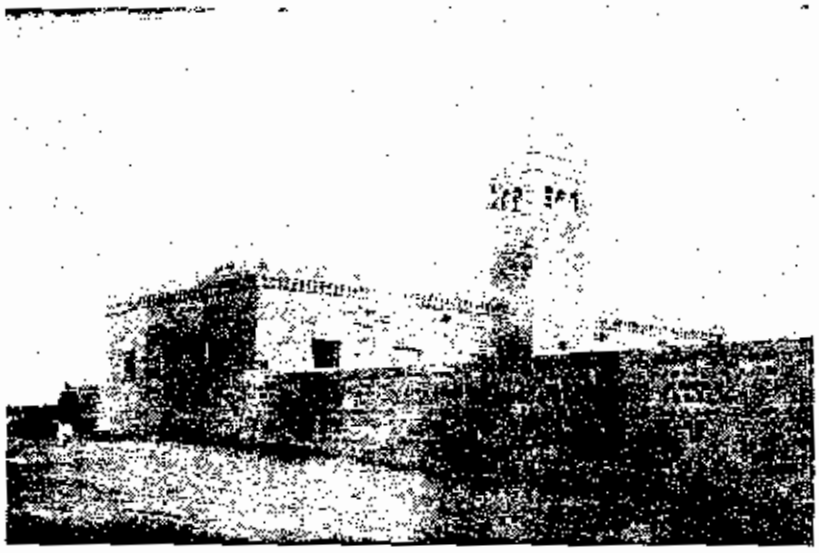

معمل الزيت من الخارج ببرج العرب سنة ١٩٣٥

المحكم، يُدهش كل الدهشة، إذ يجد أن الطبيعة قد تحدّت بهذا التنسيق والتنميق كل فنان بارع يختال ويزهو بما وُهب من فن في هذا المضمار .

ومن الطريف أننا نجد تفتح الأزهار الجميلة الألوان متعاقباً ، ففي ديسمبر تزدحم التربة بكرونات نبات الكلخيكم Colchicum Ritichu الذي تتعاقب صوقه الزهرية بسرعة بمشرات الأزاهير اللملية والحمراء اللون ، وقبل اختفاء هذا النوع تبدأ الشقائق تنشر رداءها الجميل الذي يظل منبسطاً فوق أديم الصحراء بلونه الوردي الباهت والأزرق الداكن ، وفي وسط الزهرة عيون سوداء تكسبها جمالاً ما بعده من جمال .

وتكثر هذه النباتات الشقيقية وتزدحم حول البرك وقد تبلغ السوق الزهرية في بعض الأماكن من ٥٠ : ٨٠ ساقاً في الياردة المربعة ، وتظل أزهارها تبسم من أواخر ديسمبر إلى أواسط فبراير .

وبلي موسم الشقيق أبصال كثيرة قد تبلغ أنواعها الثلاثين نوعاً منتشرة بين الأراضي المنزرعة شعيراً والأراضي البور، فتوجد أول نباتات Ongea fibrosa متجمعة كخصل بمستوى سطح الأرض ، ثم تليها الأزهار البيضاء لنباتات Ornithogalum tenuifolium التي توجد متقاربة حتى أن ما يوجد في الياردة المربعة يبلغ أحياناً المائتي نبات . بينما توجد أنواع بصل الفار (سلا) خصوصاً النوع Scilla peruviana الذي تنبعث حوامله الزهرية بأزهارها السنبلية الزرقاء مشرقة بين رمال الصحراء . وبينما تظهر أنواع الباصنت بزهراتها الزرقاء والأرجوانية والنبيذية اللون . ثم يأتي نبات Asphodelus microcarpus الذي يبلغ ارتفاعه حوالي خمسة أقدام ، وأخيراً تبدأ نباتات Alliums مشتهرة بأنواعها الاثنى عشر في مختلف البقاع فتكسو بألوانها القشدية والقرنفلية الصحراء جمالاً وبهجة . وفي مارس يظهر السوسن القصير Iris Sisyrin chium في البرك المكتنزة بكثرة حتى أن الياردة المربعة قد تضم أحياناً مائة نبات أزهارها مختلفة الألوان بين أزرق باهت وأرجواني . ودائماً تتفتح أزهار السوسن من الظهر الى وقت الغروب .. !!

واذا ما حلّ مارس ، وأخذ لواء الربيع يخفق فوق الحقول والرياض تربعت مربوط في الصدارة من الرياض النضرة الجميلة عليها الربيع البديع من جمال باسم إذ يزهر بها ما يقرب من مائتي نوع من النباتات ذات الأزهار الجميلة ، عدا الأنواع الأخرى التي تكون في الخريات

أيام إزهارها.. ويمكن حصر النباتات التي تزهر في هذه الفترة بين العائلات الصليبية .. والخشخاشية .. والبقولية .. والمركبة .. !!

فبينما نجد عدداً كبيراً من أزهار الخشخاش .. بلونها الأحمر القاني المبقع باللون الأسود عند قواعد البتلات .. ترف بين أصابع النسيم متمايلة على حوافها الزهرية صابغة الأرض من تحتها بلونها عند ما تسقط عليها أشعة الشمس نرى أن المنثور Matthila huimelis يزدحم بجمال غريب إذ يغطي ربع المساحة المخصصة تقريباً ، وهو يقوم أحياناً بدور الأطر للبسط الزهرية . وأحياناً ينمو منفرداً في مساحات لانهائية الإتساع ، ويخالطه في بعض الأماكن نوع آخر من العائلة الصليبية يعرف باسم Carrichtera إذ يبدو حاملا أزهاراً كالبرد .

وأهم النباتات ذات الأزهار الصفراء هي اللوتس Lotus والأقحوان و Vetches الحلبة التي تفترش التربة وتغطيها ، ثم الحميضيض وهذه جميعاً تصنع بساطاً زهرياً غاية في الجمال

ويتوفر اللون الأزرق والبنفسجي في نباتات عائلة لسان الثور مثل حناء الغول وشاق الحمامة Echium Sericeum وهذا النوع ممتاز جداً في هذه المنطقة إذ تبدو أزهاره كبيرة الحجم وبه أزهار كاملة ، إذ تحمل أعضاء التأنيث والتذكير معاً ، وأخرى عقيمة لا تحمل غير أزهار التأنيث ، وكلاهما مميز عن الآخر .

هذا من الناحية الزهرية أما من النواحي الأخرى فبين نباتات الصحراء أنواع كثيرة لها فوائد واستعمالات طبية وأخرى خشبية أهمها من الوجهة الطبية :

السنا أو السنامكي [١] العرفسوس [٢] العشار [٣] الحرمل [٤] الشيح البلدي أو البعثران [٥] لسان الحمل [٦] بصل الفار [٧] الوردة الدهماء [٨] السكران [٩] الحنظل [١٠] الكبار أو القبص [١١] الهيجليج [١٢]

ومن الناحية الخشبية :

السيال [١٣] السنط [١٤] الطلح [١٥] القرض [١٦] السواك أو الأراك [١٧] الطرفة [١٨] الحطب الأحمر [١٩] الحماط [٢٠] الدوم [٢١] الهيجليج والعوسج [٢٢]

---

(١) Cassia acutifolia (٢) ycirhyza O Iglabra (٣) Calotropis Procera (٤) Pegarium Harmala (٥) Artemisia judaica (٦) Plentago (٧) Scilla maritima (٨) Malva Silvestris (٩) Hyoscyamus Moticus (١٠) Citrullus Colocynthis (١١) Capparis Spinosa (١٢) Balanites aegyptiaca (١٣) Açacia tortilis (١٤) Acacia arabica (١٥) Acacia Seyal (١٦) Acacia sp. (١٧) Salvadora Persica (١٨) . (١٩) Tamarix (٢٠) Ficus Pseudo-yeomarus (٢١) Hyphaene sp. (٢٢) Lycium afrum

٢ — المناطق النباتية الزراعية

وتتكوّن من شريط ساحلي من التلال الشاطئية dunes يبلغ في سمته الميل تقريباً ، ومكوّناته حُبيبات جيرية ، وهذه الأحجار الجيرية معرضة دائماً لأن يعلوها ماء البحر ، وينحسر عنها . في عملية المد والجزر فيغسلها . ثم تؤثر عليها الرياح الشمالية فتنقل بعض جزيئاتها الى داخل الصحراء حيث تكوّن من ٦٠ ٪ الى ٧٠ ٪ من التربة المجاورة للشاطئ والتي تمتاز بخصبها ، وبثروتها النباتية البرية والزراعية ..!!

ويلي هذا الشريط من الداخل حوض ضيق سمته نصف ميل تقريباً ثم يلي ذلك زوج متوازٍ من الخطوط الحجرية الجيرية على مسافة ٢ ميل تقريباً وبينهما الحوض الجاف للذراع الغربي لبحيرة مريوط

والجزء العلوي في الخطوط المرتفعة خالٍ من التربة بفعل المطر الغزير الذي ينقلها إلى المنخفضات المجاورة حيث تترسب فوق بعضها فتكوّن مهاداً خصبة صالحة للزراعة . . أما قمم المرتفعات فغالباً ما تُتّخذ أماكن لقبور الموتى « قرافات » وكانت في الماضي السحيق موضعاً لإقامة القرى التي تشاهد أطلالها الدارسة ، أو توجد بقاياها رابضة دون سطح الأرض بقليل إذ تراكمت عليها السافيات فوارتها عن الأبصار . . !

وفي جنوب الخطّ الداخلي تنحدر الأرض تدريجيًّا لمسافة ١½ : ٢ ميل ثم تأخذ في الارتفاع تدريجيًّا أيضاً نحو نجاد الصحراء الغربية التي تمتد إليها منطقة سقوط الأمطار الساحلية لمسافة ستة أميال .

ومما يؤخذ من الدراسات التاريخية لهذه المنطقة أنها كانت آهلة بالسكان ، مليئة بمزارع الكروم التي ظفرت بشهرة واسعة خصوصاً النبيذ المستخرج منها . ويقول « استرابو » في ذلك « أن النبيذ الناتج من كروم مريوط أفضل أنواع نبيذ العالم » وقال المقريزي « إنّ بساتين العنب كانت منتشرة بكثرة في مريوط » وأجمع المؤرخون على أنّ مريوط كانت تدفع جزءًا من الخراج المقرر عليها زيتاً من المستخرج من كرومها . ولا يزال البدو في هذه المنطقة يطلقون على كل التلال المرتفعة اسم كروم ومفردها كرم أي حقل من العنب ، وهذا دليل على ما كان منتشراً حول القرى القديمة التي تدل على آثارها هذه التلال ، من بساتين العنب . . !(١)

ولقد بقيت هذه المنطقة زاهرة عامرة بالسكان الى ما بعد الفتح الاسلامي بثلاثة قرون ومنذ ذلك العهد البعيد أخذت في الإضمحلال العمراني ، وليس السبب في ذلك راجع لنقص

(١) أنظر الباب الخامس

في سقوط الأمطار ، أو لأي عامل طبيعي أثر على الحياة الزراعية فيها ، وإنما يرجع لأسباب أخرى سياسية واستعمارية

وتتكون التربة في منطقة مريوط عدا جزيئات الطبقة الجيرية التي تكون فيها ٣ر٣٥٪ وتقل كلما أوغلنا في الصحراء وبعدت الشقة بيننا وبين الشاطىء تتكون من جزيئات من رماد الصحراء قطر حبيباتها أقل من $\frac{1}{200}$ من البوصة بنسبة ١١٪ وطين ناعم بنسبة ٣ر٢٤٪ ورمل خشن بنسبة ٩ر٢٥٪ ومواد ذائبة بنسبة ٥ر١٪

وبالجملة فان أغلب أراضي هذه المنطقة ثقيلة كثيرة الحصب ولها خاصة التصبُّن إذا ما سقطت عليها الأمطار ، واذا ماجفت تماسكت وصارت صلبة ..!!

ويجري البيع والشراء لحق الانتفاع بالأراضي الزراعية — إذ لا ملكية في الصحراء — على أساس «مرى الأردب من الشعير» الذي يعتبر المحصول الأساسي لهذه المنطقة . ومرى الأردب هي المساحة التي تتسع لزراعة أردب من التقاوي . وحيث أن الفدان يأخذ ثلاث كيلات من التقاوي فمرى الأردب يوازي أربعة أفدنة تقريباً . ويساوي من جنيهين الى عشرين جنيهاً . وتزيد قيمة الأرض وتقل حسب قربها في صقع تل أو مرتفع من الأرض أو بعدها عن المرتفعات ، فكلما قربت من الهضاب والتلال كانت غالية الثمن وذلك لأنها تكون عرضة لأن يغمرها السيل المنحدر من فوق المرتفع الذي يجاورها فيزكو زرعها . واذا كانت بعيدة عن المرتفعات قل ثمنها لأن ما نصيبه من السيول يكون قليلاً .

ويجب أن يظفر المشتري بتوقيع شيخ العائلة أو القبيلة على عقد البيع ، وذلك ضماناً لعدم نقض البيع أو الرجوع فيه أو حدوث أي مشاغبات تعوق المشتري عن الانتفاع بالأرض

وأما الزراعات التي تزرع في مريوط فيمكن تقسيمها قسمين :

ا — زراعات حولية ب — زراعات معمرة

ا — الزراعات الحولية : وهي التي تزرع وتنتهي دورة حياتها خلال العام وتشمل الشعير وهو أهمها وبعض أنواع الخضروات التي تستهلك محليًا وليس لها أية قيمة تجارية

ب — الزراعات المعمرة : وهي التي تمتد دورة حياتها لأكثر من حولين وتزرع منها الزيتون والنخيل واللوز والخروب والفستق والخوخ والتين والعنب والعناب . وكذلك الأشجار الخشبية جميعها . ويعتبر الزيتون في مريوط كما ماس الزراعات المعمرة إذ يستخرج منه الزيت الجيد الذي يفوق في جودته جميع أنواع الزيوت المستوردة من الخارج وذلك بفضل صبر قسم البدائين على تنمية هذه الصناعة ونشرها في الصحراء . وأما اللوز فهو خير ما يمكن أن تستغل به هذه المنطقة من الزراعات لصلاحيته للإقامة تحت ظروفها الطبيعية القاسية ولأن ثمنه ونوعه غاية في الجودة .

١ — الثروة الحيوانية

ينقسم البدو المقيمون بالصحراء الغربية عامة ثلاثة أقسام من حيث الاشتغال بتربية الحيوانات ، وتنمية الثروة الحيوانية . ففريق منهم لا يأبه بها مطلقاً منصرفاً عنها للاشتغال بالزراعة وفريق يوزع حياته بين الزراعة وتربية الماشية ، وفريق ثالث لا يركن للزراعة مطلقاً وإنما يشتغل بتربية الأغنام والإبل .

وهذا الفريق الثالث يقطن غالباً بعيداً عن الساحل وليس له مستقر معلوم ، وإنما يقضي حياته متنقلاً بأنعامه وراء المراعي المخصبة . ففي الشتاء بعد ما تسقط الأمطار يأخذون في التجوال بين ربوع الصحراء سعياً وراء المرعى ، وإذا ما حل الصيف وأجدبت البادية انتقلوا الى الصحراء المجاورة للوادي من حدود مديرية البحيرة ومركز أبي المطامير أو الى أقاصي الصعيد .

أما الحيوانات التي يشتغلون بتربيتها ، ففي مربوط تكثر الأغنام والماعز . وأما في برقي والسلوم فإنهم يزيدون عليها الإبل بكثرة إذ يربونها على هيئة قطعان يدعونها ترعى في الصحراء .. أما المشتغلون في تربية الماعز والأغنام ففي كل عام يفصلون عنها الذكور فيبيعونها ويبقون على الأناث للتربية مع القطيع ، وهم في ذلك موسم عام هو شهر مارس من كل عام .. وذلك بعكس المشتغلين بتربية الإبل إذ لا يبيعون منها إلا عند الحاجة فقط وإنما يستغلونها في حمل الأثقال إما بالأجر بين الواحات المختلفة أو لحسابهم ان كانوا ممن يشتغلون علاوة على ذلك بالتجارة ..

ويبلغ تعداد الإبل في الصحراء الغربية ٢٥١٦٦ والأغنام ٧٣٦٥٨ والماعز ٢٩٨٨١ إلا أن هذا التعداد عرضة للزيادة والنقصان تبعاً للظروف والطوارىء المفاجئة .

ولمربي الأغنام نظام خاص في رعايتها ، إذ أنهم جعلوا العام بالنسبة للأغنام نصفين .. نصف تصوم فيه عن الماء فلا ترده .. ونصف تسقى فيه كل ثلاثة أيام .

فعند ما يبدأ الكلأ يكسو أديم الأرض مخضرته يمنعونها من أن ترد الماء مطلقاً ويكون ذلك عادة من أوائل نوفمبر ، ويظل هذا المنع الى أواخر ابريل أو منتصف مايو حتى تجف كل نبتة خضراء في الأرض ويقولون في ذلك « ما تشرب حتى تصيف الحشيشة » وبعد ذلك يسقونها كل ثلاثة أيام .. !!

ويخرج الرعاة بأغنامهم الى المرعى عند الأصيل من كل يوم فلا يعودون الى « المراح » إلا إذا ارتفع الضحى ، اللهم إلا في الأيام الغائمة فإنهم يواصلون الرعي طوال اليوم . إذن أنسب وقت للرعي هو الليل إذ يقضونه متنقلين بأغنامهم بين المروج .

والرعي مهنة بين مكال مربوط إذ يجمع الراعي القطعان الصغيرة من ذويها ويضمها بعضها الى بعض ، ويرعاها متجمعة لقاء أجر شهري يتقاضاه عن كل رأس وعادة لا يزيد أجر الراعي عن الرأس في الشهر عن خمسة قروش .. والراعي يستطيع أن يتعرف على كل رأس من الضأن ومَن صاحبها بما جُبل عليه من فراسة ومران.

وهناك رعاة يرعون الأغنام بالمشاركة في النتاج ، ومنهم من يرعى أغنامه هو أو يستأجر لها راعياً ان كانت كثيرة . .

ولبيع الغنم موسم عام يبدأ من شهر مارس ، ويسمّونه « قطف الحولي » ولذلك أسواق عامة تعرض فيها « الحوالة » بالألوف ويجري البيع والشراء على الصفقات بين التجار الذين يؤمّون هذه الأسواق والمنتجين . .

وأهم هذه الأسواق في الصحراء الغربية قاطبة « سوق الحمام » الذي يقوم من أصيل يوم الجمعة من كل أسبوع وينفض في ظهر السبت ، وترد اليه الأغنام من كل فج في الصحراء من أقصى طرابلس الغرب الى العامرية . ولا تعمر السوق ويحمى وطيسها إلاّ عند ما تبدأ أغنام برقة في الورود اليها . وترد الأغنام من برقة الى الحمام ، إما في القطار وذلك أخيراً فقط أي بعد الحرب الأخيرة عند ما صُرح باستعمال الخط الحديدي الذي مدته السلطات العسكرية بين مرسى مطروح وطبرق لأغراض حربية . عند ما صرح باستعماله مدنيًّا . وإما أن ترد بسوقها رعاتها في عرض الصحراء متنقلة بين المراعي . الى أن تصل الحمام .

وعدا سوق الحمام سوق العامرية وبهيج ومرسى مطروح ولكنها ليست بذات أهمية إذ العمل كله مركز في سوق الحمام .

وليس هناك أمتع من أن يرى الانسان التجار يعدون الأغنام فلهم في عدها طريقة تحمل الرائي على الضحك وقتاً طويلاً .

والبدوي لا يسره أن تلد شاته حملين بل إنه ليفضل أن تلد شاته واحداً في كل عام ، وسرعان ما يتخلص من التي تلد اثنين لأنه يرى فيها عترة لا تصلح للتربية إذ أنها لا يمكنها أن تظل قوية وهي ترضع توأمين .

وعدا النتاج ينتفع البدوي من وراء غنمه بالصوف وله موسم في أبريل إذ يقصّون الكبار والصغار ويقولون « يُجزقم » الغنم بدلاً من « يقص الغنم » ويتركون على كتف الحولي ابن العام الواحد خصلات من الشعر دلالة على أنه لم يمض الحول . . واذا ما فعلوه في العام الثاني تركوا خصلة أخرى على مؤخرته . . وكذلك الألبان فانهم يشربونها فقط أو يصنعون منها المسلي الفيحي

٣ — التجارة

وللتجارة في الصحراء نهج خاص ، إذ لا يعرف تجار الصحراء التخصص في الاتجار بنوع واحد من البضاعة وإنما يبيع التاجر كل شيء يلزم لحياة المعيشية وكل ما يمكن ان يتجر به ، فبينما تجده يبيع البقالة تجده يتجر بالأقمشة والحبوب والخضروات والفاكهة والحيوانات . . ولا تجد في الصحراء أبنية مقامة ملكاً للبدو إلا الحوانيت وهي مجمع الفتيان والرجال إذ تتخذ كمنتديات يجتمعون فيها أيضاً ويقضون بجوارها الأصائل وجزءاً من الليل وأوقات الفراغ ..

والتجارة إما يجري فيها البيع والشراء بالنقد أو على أجل . وفي حالة الأجل يتبعون طريقة خطرة ، هي طريقة (العقد) وتتلخص في ان البدوي يأخذ ما يحتاجه من بضاعة وتقود ويكتب عقداً للتاجر أو الدائن بأن يسلمه وقت السداد قدراً من المحاصلات التي تكون موجودة عند انتهاء أجل العقد ، وفي مقابل ذلك يتغالى التجار في ثمن البضاعة . والدائنون — إن كان الدين قرضاً — في امتصاص دم المحتاجين من البدو . وللمحتاج أن يأخذ أو يرفض وهو بطبيعة الحال أمام حاجته الملحة لا يسعه إلا القبول .

ولا بد من أن يضمن شيخ القبيلة المدين ويكفل الدائن السداد ان كان الدائن هذا من غير البدو ، حتى اذا ما حضر الموعد ولم يف المدين بدينه رجع الدائن بعقده الذي في يده على شيخ القبيلة الذي يجبر الممتنع على الدفع والسداد أو طلب التأجيل . . !

وعند طلب التأجيل يعقد عقداً جديداً ، وفيه مضاعفة للفائدة .. وهكذا من موعد الى موعد حتى يصبح الدين جبلاً .. ولقد حدثني أحد البدو ان اعرابياً فقد ناقة له على هذه الطريقة ، مقابل خمسة قروش .. إذ اقترض هذا المبلغ الضئيل على موعد ولم يف به ، وطلب التأجيل ، فعقد الدائن بريال .. ثم طلب التأجيل عند الموعد الثاني .. فكان العقد بخمسين قرشاً تسلم للدائن إما شعيراً أو نقداً وهكذا الى ان جاء ذات يوم وأخذ الدائن ناقة الرجل وفاء لدينه إذ كان الدين الذي على المدين يفي بثمن الناقة .

ويعقد البدو على ثلاثة مواسم هي :

الموسم الأول : « ويسمونه عقد الحول » وموعده شهر مارس من كل عام ، وذلك عند عزل الذكور من أبناء الغنم بعد رضاعها من خمسين الى ستين يوماً إذ تلد الأغنام غالباً في شهر يناير ويظل الحمل الصغير يرضع أمه ستين يوماً يُعزل بعدها ان كان ذكراً ..

الموسم الثاني : « عقد الدمير » ويعتبر ثاني المواعيد وأهمها ويحل بعد الحصاد اي في مايو واوتوبر .

الموسم الثالث : عقد السمان : وهذا قاصر على طائفة قليلة من البدو وهم صائدو السمان من سكان الساحل ويحل الموسم في شهر سبتمبر وذلك عندما تبدأ الطيور هجرتها من شمال البحر الابيض المتوسط الى جنوبه ، أي من الشاطىء الاوروبي الى الشاطىء الافريقي . وتبدأ الهجرة بتحرك أفراج الطيور في الثلث الاخير من أغسطس إذ تظهر على الساحل الافريقي في أوائل سبتمبر وذلك هرباً من شتاء أوربا القارس البرودة وطلباً للدفء في أفريقيا ذات الشتاء الدافىء . وبما أنه يقطع مسافات طويلة عبر البحر لا يأكل ولا يستريح فانه يصل الساحل الافريقي منهوك القوى متعباً قد أضناه الجوع فلا يكاد يرى الشاطىء حتى يلقي بنفسه على الارض . هنا يكون الصيادون قد أعدوا له شباكاً صغيرة مخفية خلف الاعشاب والشجيرات خصوصاً المتنان ، وعند ما يهبط السمان يسرع الى الاختباء خلف أي شجيرة فلا يجد غير هذه المخابىء المهيأة تهيئاً سحرياً فيدخل فيها . وبعضهم يضع له بعض الحب لكي يغريه بالدخول . وعادة يجعلون الفتحة التي يدخل فيها نحو الجنوب لأنه دائماً يتجه وهو على الارض نحو البحر ويمر الصيادون كل ساعتين لجمع ما يمكن أن يكون قد دخل في المصايد . وعندما يحس الطير بقدم تدب نحوه يحاول الهرب نحو البحر فتحجزه الشبكة التي تقوم كحاجز يمنعه من الفرار . ويجمعونه فيقدمونه للتجار الذين يحضرون لشرائه خاصة لكي يصدروه الى بلاد القطر . وعلى هذا الموسم يعقد هؤلاء الصيادون ويسددون العقود

وهناك موسم رابع ضئيل لا يعقد عليه الجميع بل فئة قليلة من البدو وهو اذا كان للرجل إبنة على أبواب الزواج يستدين على مهرها وهذا نادر

٥ — لمحة تاريخية

يطلق اسم « مريوط » على الأقليم المتاخم لحدود مدينة الاسكندرية الغربية من الداخلة الى مدينة الضبعة لمسيرة ١٦٥ كيلو متراً نحو الغرب على الساحل الافريقي للبحر الابيض المتوسط . . وهذا الاقليم الصحراوي مأهول بالسكان من العرب الرُّحَّل الذين يُعرفون الآن بقبائل « أولاد علي » ولقد كان قدماء المصريين يعرفونهم باسم « قبائل ليبو Lebu أو ريبو Rebu أو الليبيين » وكان الاغريق القدماء يطلقون إسم « الليبيين » على قوم يقطنون إقليماً عرفوه إذ ذاك باسم « إقليم التَّحنُّو أو التَّمُحُّو » وكان متاخماً لحدود مصر الغربية على مسيرة عشرة أيام من حدود الوجه البحري ، وكانوا يعيشون كما يعيشون اليوم قبائل متناثرة في عرض الصحراء في ذلك الشريط الساحلي الذي تنفحه السماء كل عام بصيِّب الغيث فينتج أطيب الثمرات

وكثيراً ما كانوا يتجمعون تحت إمرة واحد منهم ويغيرون على مصر مقتحمين حدود الوجه البحري ، وليست إغارات الليبيين هذه بالأمر الذي يُعرف له تاريخ بالضبط ، وانما هي شيء قد انطوى في ثنايا المجهول ككل ما حدث قبل التاريخ ، إلا أنَّ الأمر الذي نستطيع أن نجلوه على ضوء البحث والتحقيق أن هذه الإغارات معروفة منذ عام ٤٠٠٠ ق . م . إذ تشير أقدم أخبار الوجه البحري الى منازعات ومشاحنات مستمرة وقعت بين أهليه والليبيين ، لذلك لايبعد أن تكون « المملكة البحرية (٢١) تحت حكم « ملوك ليبيا » ومما يرجح ذلك أنَّ الجهة الغربية منها قد انصبغت بصبغة هؤلاء القوم ، تلك الصبغة التي بقيت ظواهرها حتى زمن « هيرودوت » المؤرخ اليوناني الشهير . وثمَّ دليل آخر ، ذلك أن معبد « صالحجر » (صايس) الواقعة غربي الدلتا والمعتبرة مركز النفوذ الليبي ، سُمِّي نديماً « بقصر ملك الوجه البحري » ثم أن رمز المعودة المسيطرة على ذلك المعبد وهي « نيت » استعمل في الوشم كثيراً على أذرع الليبيين ، ولا يبعد أن « صالحجر » كانت وطناً لملك ليبي قديم ، ووُجدت رسوم بارزة على جُدُر معبد هرم « صاحورع » بسوسير ، تمثل أربعة أمراء ليبيين واضعين على جباههم أصلال الفراعنة ، يظن أنها وصلت إليهم لصلة دموية بينهم وبين ملوك ليبيا الذين حكموا الوجه البحري سابقاً .

هذا قبل حكم الأسر الفرعونية ولما أن قبض على زمام أمور الدولتين البحرية والقبلية ،

ملك واحد ، وتطلع الى الاصلاح ، ورأى ملوك الأسرة الأولى أن يضعوا حد لمهاجمة هؤلاء القوم لهم فتطلعوا الى الصحراء الغربية . ولكن شيئاً لم يحدث خلال حكم الأسر الأولى والثانية والثالثة الا في عهد الملك « سنفرو » آخر ملوك الأسرة الثالثة . إذ تجمعت فكرة التحصن الحربي من جميع الجهات الشرقية والغربية فخرج إلى الصحراء وبسط نفوذه على إحدى الواحات الشمالية إذ اعتبرها معقلاً حربياً هاماً يقيه شر هجمات الليبيين ، وكان ذلك في المدة قبل سنة ٢٩٠٠ قبل الميلاد .

ويعتبر هذا الغزو أقدم ما قام به ملوك مصر في الخروج الى تلك الجهات . إلا أننا نجدهم لا يعيدون الكرة ، ولا يقفون في وجه الليبيين الا مدافعين صائنين لحدودهم المستمرة ويبدو ذلك جلياً في عام ١٩٧٠ ق . م . حينما أغارت القبائل الليبية على الوجه البحري — كعادتها من قديم الزمان — تخرج اليهم « مرنبتاح » (٢٢) لكي يردهم ، ولكن التاريخ يقف بنا عند خروجه على رأس الحملة ولا يروي لنا من أخباره معهم شيئاً غير (وبينما كان منهمكاً في قيادة الحملة التي خرج بها اليهم إذ وصله نعي أبيه فعاد مسرعاً دون أن يخبر أحداً من رجاله بوفاة الملك حيث وقع نقل العرش) ، ومن حيث أن أخبار هذه الحملة قد وقفت عند هذا ، فمن الراجح جداً أن الغزاة تلقوا درساً قاسياً على هجومهم هذا الذي لم يعاودوه ردحاً طويلاً من الزمان ، فلو لم يكن ذلك لما رجعوا عن غزو مصر . ولما جلس الملك على عرشه مطمئناً ، ولا رجح وقوع تعاهد بين الطرفين للاختلاف الكبير بين الدولة المصرية المنظمة . والقوم المهاجمين الذين لا يعرفون غير النظام العصوري الذي لا أساس له ولا دوام

وظل الليبيون ردحاً طويلاً من الزمان لا يقومون بإغاراتهم حتى كان عام ١٥٤٧ ق . م . بينما كان الملك « أمنحتب الأول » يتابع سيره فاتحاً في بلاد النوبة إذ بلغه وهو عند الشلال الأول نبأ إغارتهم على الحدود المصرية الغربية فعاد اليهم مسرعاً (٢٣) ولكننا لا نعلم أيضاً من أمر المعارك التي دارت وقتئذ إلا ما جاء على لسان « احمس بن ابنت » من أنه قتل ثلاثة من الأعداء ، وقطع أيدي كثيرين من الأسرى ، وأن جلالة الملك كافأه على ذلك كثيراً » .

يلوح لنا مما تقدم أن الملك « أمنحتب الأول » أنزل بهم من الفناء الشيء الكثير حتى أننا نرى أنهم لم يعاودوا الهجوم الا عند ما وجدوا لهم حلفاً يناصرهم . وذلك انه لما توفي « رمسيس الثاني » أخذ سكان البحر الأبيض المتوسط (٢٤) يزحفون على شواطىء مصر فنهبوا وسلبوا واستباحوا ثم اتحدوا مع الليبيين ، وأهالي آسيا ، فضغطوا باستمرار كالموج الزاخر على حدود الأمبراطورية المصرية . وكانت خطتهم محكمة إذ ثبت

الثورة على الملك « منفتاح » في المستعمرات الآسيوية ، فاضطر لاخضاعها . وشغله هذا الأمر عن تلافي الخطر المحدق بالبلاد من الحدود الغربية إذ أخذت الحال غربي الدلتا تتغير من سيء الى أسوأ ، ذلك لأن الليبيين أخذوا يزحفون على مصر بفريق مستعمراتهم على شاطىء البحر الأبيض المتوسط التي أخذوا يستوطنون فيها متقدمين شيئاً فشيئاً ، نحو الدلتا ويحتمل أن تكون طلائعهم قد وصلت وقتئذٍ الى قناة عين شمس ، ومما هو جدير بالملاحظة أن جهات غربي الدلتا قد امتزجت بالدم الليبي امتزاجاً تاماً وكثرت فيها الأسر الليبية . II

تقدم الليبيون بمستعمراتهم الاستيطانية غربي مصر ، حتى بلغوا الشاطىء الغربي لفرع النيل الكنوبي Canopic المعروف وقتئذٍ بالنهر الكبير ثم استوطن ليبيون آخرون بالواحتين اللتين جنوبي وغربي الفيوم (٢٥) ووصف منفتاح هؤلاء القوم « بأنهم يحضرون أوقاتهم محاربين ليعلؤوا بطونهم كل يوم ، وقد أتوا الى مصر ليحصلوا على ما تحتاج اليه أفواههم »

ولما زاد عدد الليبيين بالدلتا ، تجاسروا وتطاولوا على فرعون مصر فجمعوا شملهم وكوّنوا قوة للتأهب للاستيلاء على أرض مصر ، وكانوا وقتئذٍ تحت قيادة ملكهم المدعو « مريي Meryey » وهذا أجبر بدو التحنو أي القبائل الليبية التي لا تزال منتشرة في عرض الصحراء الشمالية الغربية أن ينضموا اليه ، ثم استعان بقرصان البحر الأبيض المتوسط ، وأحضر زوجه وأولاده ، كما فعل ذلك حلفاؤه (٢٦) وأخذوا يزحفون على مصر للاستيلاء عليها والاستيطان بها .

وعلم « منفتاح » بالخطر الذي يهدد كيان مملكته ، فحصن قلاع عين شمس ومنف ، وفي آخر مارس من السنة الخامسة بلغه خبر زحف الليبيين على مصر فاستدعى رجاله بسرعة وأمرهم بحشد جيوشه وتجهيزها للقتال في مدى أربعة عشر يوماً ، ورأى في المنام « المعبود بتاح » في هيئة شيخ عظيم أهدى اليه سيفاً ، وطلب منه أن يُبطل الخوف والوجل ، فلما حلّ منتصف أبريل كانت الجيوش المصرية معسكرة غربي الدلتا ، وبالغة صفوف الأعداء .. وذلك وقت المغيب بالقرب من « پريرع Perire » وهي مدينة مجهولة الموقع بالضبط ، لكنها تبعد عن القلاع التي هي رأس الطريق الموصل الدلتا بصحراء ليبيا بعدة أميال .

وكان « لمنفتاح » بالقرب من « پريرع » قصر عظيم وسط كروم كثيرة ، وشرقي ذلك تمتد حقول الدلتا الجميلة الجويلة الخيرات ، والتي كان مزارعوها في ذلك الوقت ، يحصدونها في همة ونشاط .. فلما وقع نظر الليبيين على هذه الخيرات العظيمة ، ازدادت همتهم ، واشرأبت أعناقهم إليها ، فاخترقوا صفوف القلاع الغربية ، وهناك التحموا بجيش منفتاح بالقرب من قصره في صباح الخامس عشر من ابريل ، واستمرت المعركة دائرة الرحى

بشدة مدة ست ساعات ، انتهت بطرد الليبيين بعدما تكبدوا خسائر فادحة ، فتتبعهم « منفتاح » بجيشه كما تفعل الجيوش الحديثة ، ومزقهم شر ممزق ، واستمر في اثرهم حتى بلغ « جبل قرون الارض » وهو آخر حدود الدلتا الغربية ، ومنه هرب الليبيون . أما « مريي Meryey » فقد فرّ الى بلده بائساً من النصر ، تاركاً جميع أسرته وأثاث منزله في أيدي المصريين الذين استولوا على أسرى عديدين من الاعداء كما قتلوا منهم عدداً كبيراً ، وتقدر خسائر الليبيين وأحلافهم بتسعة آلاف قتيل ، تلثهم تقريباً من سكان البحر الابيض المتوسط ، أما الأسرى فيبلغ عددهم هذا المقدار أيضاً ، وقد وقع بين القتلى أنجال ملك الليبيين الستة . . وغنم المصريون من هذه المعركة أشياء كثيرة . . منها تسعة آلاف سيف نحاس ، وعدد غير قليل من أدوات الحرب المختلفة ، وأطلعة جيلة أخرى ، وأثاث بديع وُجد في خيام ملك الليبيين ورؤساء بلاده يفيض عن ثلاثة آلاف قطعة . . ولما نهب المصريون خيام الأعداء أضرموا فيها النار ، فالتهمتها وصارت رماداً تذروه الرياح . . !!

ورجع الجيش المصري الى قصر « منفتاح » شرقي الدلتا ، يسوق إليه الجيش المنقلة بأيدي الأسرى (٢٧) وأمتعتهم ، ثم أحضرت الغنائم تحت شرفة القصر الملكي ، فتفقدها الملك . واستقبل جمهور رعيته الجذل ، وبعد ذلك جمع أمراء مملكته في القاعة الكبرى من قصره . وألقى عليهم خطاباً عظيماً . . وبينما جلالته يوجه كلامه نحو أمرائه وصل اليه نبأ من قائد قلاع غربي الدلتا يفيده أن ملك الليبيين هرب مخترقاً خط الدفاع المصري ليلاً ، وأن قومه يئسوا منه فخلعوه ، وملّكوا عليهم غيره من خصومه . . وهكذا سقط الجزب الحربي في ليبيا ، ووقف كل هجوم من تلك الجهة على مصر في عهد منفتاح . .

ويُستدل من الفرح العظيم الذي عمّ أهالي القطر ، أثر هذا النصر الحربي أنّ هذا الجذل لم يكن لمجرد الفوز العسكري ، بل كان أيضاً لخلاص مصر من الوقوع في أيدي هؤلاء الأدعياء ، فقد وقف بذلك سلب غربي الدلتا الذي استمرّ جيلاً تقريباً . بواسطة الليبيين ، لذلك لم يكن هذا النصر درءاً الخطر دائم هدّد الإمبراطورية المصرية فقط . . بل كان فرجاً وخلاصاً من « كابوس » أثقل كاهل الأهلين ، وأذاقهم مرارة الحياة حيناً من الدهر .

وتوفي منفتاح عام ١٢١٥ ق . م . وعقبه ثلاثة ملوك آخرين سادت البلاد في ظلهم فترة خمول أدّت بها الى الضعف ثم الى الفوضى ، وكان الليبيون يترصدون حركات البلاد وسكناتها ويجدون في تدهورها وانحدارها نحو الضعف من حين الى حين ما يبعث في نفوسهم الأماني العذاب . . .

وتولى رمسيس الثالث ثاني ملوك الاسرة العشرين في عام ١١٩٧ ق . م . أي بعد منفتاح بسبعة عشر عاماً ، فوجد نظام القطر الداخلي في حاجة الى العناية والاهتمام من أثر ما نالت منه يد الفوضى ، فاشتغل في اصلاح ما فسد ، الأمر الذي شغل كل وقته فلم يتمكن من علاج الخطر الليبي إلاّ مكرهاً ، كما حدث أيام منفتاح — ومما زاد الطين بلة أنّ سكان شواطىء البحر الأبيض المتوسط أخذوا يفدون بكثرة على مصر ، وقد سلكوا في هجومهم طريقين ، أحدهما طريق سوريا ، فأعالي الارنا موط وتلكة آمور — وكان الهجوم من هذا الطريق على هيئة هجرة ، والثاني طريق أساطيلهم التي سيرها رجال جسورون منهم عن طريق شواطىء الدلتا ، وقد اتبع هؤلاء الاخيرون أساليب النهب والقرصنة أينما حلوا . ولما وصل الفريق الثاني الى شواطىء أفريقيـة حيث وجد فيه الليبيين الذين أظهروا تمام استعدادهم للاتحاد معهم على نهب الدلتـا واحتلالها . زحفوا جميعاً على مصر تحت قيادة ملك الليبيين « تيمر Themer » وكان الهجوم على مصر من غربي الدلتا بطريق البر والبحر .. والتقت الأعداء بجنود « رمسيس الثالث » بجوار مدينة « رمسيس الثالث معاقب أهل التمحو » أي « ليبيا » وهنـاك هزمهم رمسيس وحطم جانباً من سفنهم وأسر الجانب الآخر ، فرجع الأعداء بعد ما خسروا كثيراً ، لأنّ قتلاهم بلغوا إثنى عشر ألفاً وخمسمائة نسمة ، وأسراهم ألف نسمة على أقل تقدير .. وكان أغلب القتلى من الفرسان .. !!

واحتفل « رمسيس الثالث » بهذا النصر احتفالاً كبيراً كما كان متبعاً عند ملوك الفراعنة ، فقابل في شرفة قصره أعيان بلاده الفرحين ، واستعرض الغنيمة الحربيـة ، ووهب كثيراً من الأسرى « لآمون » كالمادة الجارية ، وعمّ البلاد وقتئذٍ الأمن والسلام . وإليك ترجمة ما قاله الملك :

« لقد أمكن كل امرأة الآن أن تسير خارج دارها كما تريد رافعة ثيابها بلا خوف ولا وجل لأنه لم يعد أحد يتعرّض لها »

وحصن حدود مملكته الغربية ضد الليبيين ، فشيد قلعة ومدينة على رأس الطريق الممتد من غربي الدلتـا الى الصحراء وذلك في مكان مرتفع « يعرف بجبل قرون الأرض » الوارد ذكره في أخبار منفتاح .

وكأنما كان « رمسيس الثالث » يخشى إغارة الليبيين ثانية فجعل يستعد للطوارىء ، ومع ما كان يسود البـلاد من هدوء ، ومع أنّ بوادر الإضطراب لم تبدُ في أفق الامبراطورية المصرية ، فقد وقع فعلاً ما كان يحتاط له جلالته ، وخلاصة ذلك أن سكان الغرب الأقصى بدأوا بهجرة عظيمة ثانية الى غرب الدلتـا ، ويرجع السبب في ذلك الى قوم يقال لهم

« المشواش Meshwesh » قطنوا الصحراء المجهولة الحد وتنشئر غربي بلاد الليبيين ، وقد ذكر « هيرودوت » هؤلاء القوم تحت إسم « ماكسيز Mexyes » وهم بلا جدل أصل البربر الذين استعمروا شمالي أفريقيا ، والمشواش قوم متمدينون نوعاً ، ماهرون في الفنون الحربية ، مسلحون جيداً ، قادرون على القيام بحركات هجومية ضد فرعون مصر ، وقد أخذت قبائلهم في هذا الوقت تتحد تحت سلطة أمير منهم ، فكوّنوا مملكة قوية طمحت نحو الاستعمار وكانت هذه المملكة المشواشية تبعد عن موطن فرعون مسيرة عشرة أيام غربي الدلتا ،

ولما كان الليبيون قد عرفوا بثمرة في السنة الخامسة من حكم «رمسيس الثالث» لم تعد لهم رغبة في غزو الدلتا ، ولكن المشواشيين غزوا بلادهم وأتلفوها ثم اضطروهم للاتحاد معهم في محاربة مصر ، بعد ذلك انضمّ الى هؤلاء الأعداء قوم آخرون ثم تولى قيادة الحملة المدعو «مششر Meshecher بن ملك المشواش « كپر Keper » وقد كان غرضهم الأول الهجرة والاستيطان بالدلتا ، وقد صمموا على العيش في مصر والاستيلاء على تلالها وسهولها ، فصاحوا بصوتٍ واحد « لنستوطن مصر » ثم عبروا الحدود المصرية في الشهر الثاني عشر من السنة الحادية عشرة من حكم « رمسيس الثالث » .

أخذ القوم يغزون مصر من الطريق الغربي كالعادة أيام منفتاح ، فحاصروا قلعة « هاتشو Hutsho » التي تبعد عن حدود الدلتا بنحو أحد عشر ميلاً وتقع بقرب ترعة « مياه رع » وفي تلك الجهة وتحت أسوار « قلعة « هاتشو » هجم «رمسيس الثالث» مع جيشه على أعدائه هجوماً عنيفاً ، وأخذت حامية القلعة المذكورة تمطر الأعداء في نفس الوقت بنار حامية ، حتى دخل رعب فرعون في قلوبهم ، وعجزوا عن المقاومة ، ودبّ الذعر بينهم فولوا هاربين لكن قلعة ثانية أمطرتهم ناراً حامية ، وقت هربهم ، فقضت عليهم بقسوة .

وبعد ذلك تعقبهم « رمسيس الثالث » بجيوشه لمسافة أحد عشر ميلاً من حدود الدلتا حتى تأكد من هروبهم تماماً من أرض مصر ، ثم استراح هناك في حصن يعرف بحصن « مدينة رمسيس الثالث » على « قمة جبل قرون السماء » .

وانتهت هذه المعركة بقتل « مششر Meshesher » قائد المشواشيين وأسر والده « كپر Keper » وقتل ما يبلغ ألفين ومائة وخمساً وسبعين نسمة . وأسر ما يبلغ ألفين واثنين وخمسين نسمة . بينهم نساء يزيد عددهم على رغم هذا المقدار ، واليك ما قاله رمسيس عن معاملته لهؤلاء الأسرى :

« لقد أعتقت رؤساءهم في قلاعي بأسري ، ووهبت قوادهم ورؤساءهم الذين وهبتهم لتلك القلاع كعبيد بأسري ، وعاملت نساءهم وعيالهم نفس المعاملة » .

وبلغ عدد الأسرى المشواشيين الذين سُخروا عبيداً لخدمة قطيع المعبد المسمى « رمسيس الثالث المنتصر على المشواشيين بجوار مياه وع » الف نسمة تقريباً ، وقد اعتبر جلالته هذا النصر العظيم عيداً احتفل به سنوياً ، وسماه « عيد قتل المشواش » ولقد نعت جلالته نفسه بالألقاب الآتية « حامي مصر ، والمدافع عن الأقطار ، وفازي المشواشيين ، ومُتلف أرض التحنو » .

وهذه هي المرة الثالثة التي سُدّدت فيها القبائل الغربية عن الدلتا . ولم يعد عند « رمسيس الثالث » مجال بعد ذلك للخوف من تلك الجهة . . إنما يلاحظ أن فكرة الاستعمار عند الليبيين لم تنعدم بالمرة ، والمعروف أنّ هؤلاء القوم لم تنعد لهم كلة بعد ذلك ، ولكنهم أخذوا يهاجرون متسللين الى القطر المصري ، كما فعلوا قبل حكم الأسر ، وقد قاموا بذلك تدريجياً ، وبنفر قليل لم يقلق فرعون مصر ، لكنه لم يقاومهم ، ولم يلق بالاً اليهم لما يعلمه عنهم من ضعف لا يقوون معه على القيام بأية حركة حربية ضده . .

واستمرّت هجرة هؤلاء القوم المستضعفين حوالي مائتي عام تقريباً استطاعوا في خلال المدة الأخيرة منها ان يبسطوا نفوذهم على الوجه البحري . . وقد ساعدهم على ذلك زيادة الجنود الليبية المأجورة بالجيش المصري زيادة مطردة ، ولما كان جزء الجيش المعسكر بالدلتا لحفظ النظام هناك تحت ادارة رئيس كهنة آمون ، وتحت قيادة ضباط مشواشيين قابضين على قلاع تلك الجهة فقد قوي نفوذ المشواشيين هناك .

وحدث في عهد الأسرة الحادية والعشرين أن أحد الليبيين « التحنو » المدعو « بيراوا Buyuwawa » استوطن مدينة « إهناس Heracleomlis » فرزق ولداً يدعى « موسن Mosen » عُيّن بعد ذلك في وظيفتي معبد إهناس وقائد حرس تلك المدينة . بعد ذلك صارت هاتان الوظيفتان وراثيتين مقصورتين على أفراد هذه الاسرة ، ثم رزق « موسن » بنجل يدعى « شيشنق Sheshonk » لُقب فيما بعد « برئيس المشواش الأعظم » وكان قوياً ثرياً حتى أنه لما توفي إبنه المدعو « ناملوت Namlot » دفنه بالمُرابة باحتفال عظيم ، ووقف عليه خيرات كثيرة من أرض وحدائق وعبيد وخدم وقرابين يومية . بعد ذلك اتضح له حدوث تلاعب من الموكول اليهم الاشراف على إجراء هذه الخيرات ، فتوسط لدى ملك لا يزال مجهول الاسم من ملوك الأسرة الحادية والعشرين ليعاقب المهملين وليصدر بذلك أمراً من « آمون » بطيبة (٢٨) ويرجح كثيراً أن القواد الليبيين بالدلتا جروا على هذا المثال حتى أصبح لهم نفوذ كنفوذ شيشنق المذكور أو بعبارة أوضح حتى

استأثروا بالسلطة في أيديهم تدريجيًا ، وقد استمرّت الأسرة الحادية والعشرين والضعف المطرد مدة حكمها البالغة مائة وخمسين عامًا تقريبًا ، كانت خلالها ذرية « بيواوا » بمدينة « إهناس » تظهر وتعظم حتى تمكن أحد ذراريها وهو « شيشنق » حفيد شيشنق سالف الذكر ، من قيادة أسرته الليبية ونشر نفوذها — على الأرجح — على الأراضي المجاورة الى قسم « منف » شمالاً ، وقسم « أسيوط » جنوبًا .. وفي عام ٩٤٥ ق . م تمكن رئيس هذه الأسرة من الاستيلاء على عرش مصر ، والتربع فيه بمدينة « تل بسطا » (٢٩) شرقي الدلتا .. ؟

واعتبر « مانيثون Manethon » (٣٠) «شيشنق» هذا مؤسسًا للاسرة الثانية والعشرين وهكذا تربع الليبيون على عرش مصر في غير حاجة لامتشاق الحسام ..

وبمجرد جلوس « شيشنق » على عرش مصر ، حصر هذا الشرف الرفيع في أفراد أسرته وذراريه ، وقد توصل الى ذلك بأن زوّج ابنه بابنة « بسيب خنو الثاني » آخر ملوك الاسرة الحادية والعشرين ، وبذلك منح إبنه حقًا شرعيًا في تولي العرش بعد وفاته ، وذلك من طريق زوجته الفرعونية والمعروف عن « شيشنق » هذا أنه كان حاكمًا قويًا شجاعًا ، نهض بمصر وعزم على استرجاع عزها القديم ومجدها الأول ، فبسط نفوذها على « فلسطين » وجعل سيادتها هناك فعلية بعد ما كانت إسمية فقط فقد غزاها في عام ٩٣٦ ق . م . وانضوت كلها تحت لوائه ..

وعاد شيشنق بعد الغزوة بغنائم ، تجدد بذلك عهد فراعنة مصر الأقدمين ، ونقش جلالته على جُدُر « الكرنك » بطيبة الجزية التي تقاضاها من « فلسطين والنوبة » — الخاضعتين له وقتئذ — بالقرب من نقوش ملوك مصر العظام ، ثم عين حاكمًا ليبيًا على الواحة الكبرى (٣١) وعهد الى أحد الرؤساء الليبيين في الاشراف على غربي الوجه البحري وطرق مواصلاته البرية الى الواحات ، ويعتبر هذا بدء ضم الواحات الى مصر بصفة دائمة .. وهكذا رجع لمصر لأمد قصير بعض مجدها الذي عرفته زمن الامبراطورية في عهد الأسرة التاسعة عشرة لما أخذت ترد على خزائنها جزية الأقاليم الواسعة الممتدة من شمال فلسطين الى أعالي النيل جنوبًا ومن الصحاري الغربية غربًا الى البحر الأحمر شرقًا ..

ولما اضطجعت الميزانية شيد شيشنق العمارات الشامخة ، كما فعل فراعنة مصر الأقدمون منذ مائتي سنة تقريبًا ، فاختط « تل بسطة » واتخذه قاعدة لملكه ، وأوسع الكرنك بطيبة ، وكان له ابن يدعى « يوبت Yewepet » عينه رئيسًا لكهنة آمون بطيبة .

وفي عام ٩٢٠ ق . م . توفي « شيشنق الأول » وتولى بعده ابنه « أوسركن الأول »

Osorkon » زوج ابنة الملك « بسيب خنو » وكان اعتلاء هذا الملك للعرش مطابقاً للتقاليد والعادات المتبعة ، وقد حكم « أوسركن الأول » حتى عام ٨٩٥ ق . م . وتوفى خلفه عدة ملوك آخرين ، ولا جدال في أن هؤلاء الحكام الليبيين قد تطبعوا تماما بالطباع المصرية ، فقد « شيشنق الأول » دفن ابنه في « العرابة » واتبع العادات المصرية نحو الموتى ، فوقف على قبر ولده الخيرات على وفق ما تقتضيه طقوس الديانة المصرية .

وبالرغم من احتفاظ الضباط الليبيين بأسمائهم الأصلية ، فإنهم حافظوا على الأسماء والعادات الفرعونية التي ألفها المصريون لمدة تقرب من ألف وخمسمائة عام كما أنهم عبدوا المعبودات المصرية ، وقدموا لها القرابين كالمصريين ، وذلك رغم أنهم من البربر ، وأنهم شديدو المخالفة للمصريين .. !!

ولقد وردت عبارات مختصرة مدونة بين ما نقشه رئيس كهنة آمون ، على جُدُر معبد الكرنك ، تشير الى أن حكم الملوك الليبيين الثلاثة الأخيرين في « تل بسطة » كان مشحوناً بالانقلابات والاضطرابات مدة مائة سنة تقريباً .. وقد هشّم هؤلاء الملوك آثار مصر العظيمة بقسوة عديدة ، فحطم شيشنق الثالث تمثال « رمسيس الثاني » الضخم الذي كان « بتنيس » واستعمل أجزاءه لتشييد صرحه العظيم « بتنيس » أيضاً .. !!

وانتهت مدة حكم الليبيين حوالي عام ٧١٢ ق . م . بخضوع مصر للملك أثيوبيا الذين ابتدأوا باستلام الحكم من أيدي الليبيين خلال الأسرة الثالثة والعشرين عام ٧١٨ ق . م . ولكنه لم يُنتزع تماماً إلاّ في عام ٧١٢ ق . م بزوال الأسرة الرابعة والعشرين التي دامت مدتها حوالي ست سنوات ، وبذلك تكون سلطتهم ظلت مبسوطة على مصر مدة ٢٣٣ سنة تقريباً .. !!

ومنذ هذا العهد .. — عهد الليبيين — صارت صحراء مريوط والصحراء الغربية الشمالية والجنوبية تابعة لمصر يرثها من يرث عرش النيل على مر العصور . !!

***

وفي عام ٣٣١ ق . م . شقت جحافل الاسكندر المقدوني منطقة مريوط في طريقها الى « فرطيوم » (٣٢) حيث بدأت رحلتها عبر الصحراء .. وعلى رأسها الملك العظيم قاصداً معبد الآلـه الأقدس آمون الرابض تحت ظلال النخيل في واحة سيوة (٣٣)

على أن الصحراء في ذلك الحين لم تكن آهلة بالسكان إلاّ الى حدّ محدود فقد أُبيح لهم التدوّ والرواح بين وادي النيل والصحراء ، فضلوا الاقامة بالوادي أو على مقربة منه حتى يتمكنوا من الحصول على عيشة أرغد مما يجدون في ربوع الصحراء التي تلفحهم بحرورها

صيفاً . ولكن يد الزمان جُبلت على التغيير والتبديل ، ولقد كان من جراء هذه الحالة الأزلية أن تبدل حال الصحراء فعمرها الناس واكتظت بالسكان ، وذلك عندما لوّح قياصرة الروم للمصريين بمشعل المسيحية . . اذ ما كادوا يقبلون ذلك حتى هبّ القوم مستنكرين ما جاء السادة يحملونه إليهم ، واستبشعوا أن يتركوا وثنيتهم التي يتمسكون بها بشدة ، ولهم فيها عقيدة صلبة لا تلين مهما قاساهم . . فانهم ليتعبدون لعبادة أوثانهم ، ويتفوقون كل عقيدة سواها . وانهم ليرون في كل ما عدا دينهم بدعة وضلالاً . فليس من السهل إذن أن يتركوا عقيدتهم إجابة لرغبة الفئة الحاكمة ، وإذعاناً لإرادة قيصر . لذا فقد شبّ صراع عنيف بين الوثنية المصرية ، والمسيحية الرومية كان من جرائه أن فرّ المصريون بدينهم الى الصحراء ، ولاذوا بها هروباً من تعسف الرومان الذين نسوا أن العقيدة لا تحارب . . وانهم استوطنوا المنطقة الساحلية حيث الأمطار تهطل بغزارة والأرض وافرة الخصوبة ، فابتنوا المدائن وحفروا الآبار التي ينتفعون بها صيفاً . وغرسوا البساتين ويُحتمل أن يكون التجاؤهم الى الساحل هو أول ما دار بخلد من ركنوا الى الهجرة منهم . . اذ أقاموا بين البدو القاطنين فيه . على أن التعسف قد اقتفى بهم فرحل كثيرون منهم الى الواحات ليعتصموا بها من يد طالبيهم . .

وسواء أكان هذا أم ذاك ، فقد اكتظت المنطقة الساحلية بالسكان مما جعلها تعمر وتزدهر طيلة القرن الأول الميلادي ، حتى أن الأقاليم العامرة الآهلة بالسكان والزراعة ، كانت تنتهي حيث يبدأ إقليم « فورينا » (٣٤) ولم يكن ليفصل بين الإقليمين مفازة من أرض كما هو الآن . ولقد تردد في كتب « بطليموس » (٣٥) و « استرابو » (٣٦) أسماء مدن كثيرة كانت منتشرة في ليبيا ، وجاء في كتاب « المسعودي » (٣٧) أن إقليم ليبيا كان يحتوي على أربع وعشرين مدينة ، ما عدا القرى الصغيرة . . ويقول « المقريزي » : ان ساحل البحر من مدينة الاسكندرية حتى حدود « برقة » (٣٨) غرباً كان مليئاً بالحدائق التي تنتج أطيب الثمر . . !!

وظل المهاجرون اللاجئون بوثنيتهم الى الصحراء يقيمون في تلك المدائن (٣٩) الى أن ابتدأ القرن الميلادي الثاني ، وأخذ الناس يدخلون في دين المسيح طواعية واختياراً ، وقل الاضطهاد ، فنزح من بالصحراء الى الوادي ، اللهم إلاّ من رغب في حياة القداسة والرهبانية ، والذين لم يصل دين المسيح الى قلوبهم .

وفي أواخر القرن الثالث الميلادي عاود القوم الهجرة الى الصحراء ثانية فراراً من وجه « دقلديانوس » امبراطور الروم الذي ثار على المسيحية وأبنائها ، وأمر بذبح كل من يعتنق

ديانة المسيح لارتداده الى الوثنيـة ، فكانت النتيجة لهـذا الاضطهاد أن فرَّ مسيحيون مصريون ورومانيون الى الصحراء والواحات حيث أقاموا المعابد والكنائس التي لا تزال آثارها باقية في بقاع كثيرة حتى الآن . .

ولم يكد الحال يستقرّ بعد ذلك بين الحاكم والمحكوم حتى هبت نار الاضطهاد ثانية أشد مما كانت عليه في عهد الصراع بين الوثنية المصرية والمسيحية الرومية في القرن الأول الميلادي . . إذ كانت علة العلل في ذلك هي تلك العـداوة القائمة بين « الملكانية » و « المنوفيسية » وكانت الطائفة الأولى كما يدل عليه اسمها ، حزب مذهب الدولة والامبراطورية وحزب الملك والبلاط وكانت تعتنق العقيـدة السنية ، وهي ازدواج طبيعة المسيح ، في حين أن الطائفة الأخرى وهي حزب « القبط المنوفيسيين أو اليعاقبة » أهل مصر كانت تـتبع تلك العقيدة وتستعظمها ، وتحاربها حرباً عنيفة في حماسة هوجاء .

واشتد الخلاف بين الطائفتين حين تولى الامبراطور « فوكاس » الذي صار على سُنة القضاء على مذهب « اليعاقبـة » في مصر قضاءً مبرماً ، لا هوادة فيـه ولا رحمة ، إذ بلغ الاضطهاد والتعسف أقصى ما يمكن أن يصلا إليه ، وكان اليعاقبة لا يرضون إلاّ أن يمحوا كل أثر من آثار مذهب « الملكانية » ولكن أنى للمحكوم أن يقف في وجه حاكمه منابذاً مقاوماً ؟؟ لذا اضطر القبط أمام ما كان ينزله بهم الروم من تعسف أن يعاودوا الهجرة الى الصحراء فيقيموا بها بعجاة من الظلم والاستبداد ، وقد اتخذوا منها معقلاً يقيهم ظلم « فوكاس » الذي لم يكف عن إيذائهم حتى ثار « هرقل » من « قورينا » وسار الى « القسطنطينية » حيث اسقط « فوكاس » عن العرش وتبوأ مكانه . . ثم جاء الفرس وانتزعوا مصر من يد هرقل ، وسار الجيش الفارسي في الصحراء لاول مرة ، وكانت وجهته بنطابوليس (٤٠) التي كانت ذات مكانة عظيمة وقتذاك ، وبقي الفرس سادة البـلاد عشر أو إثنى عشرة سنة . . ولعلهم قضوا ثلاث سنوات يمهدون لسلطانهم في طول البلاد وعرضها بين « مصر وبُنطابوليس » ، ثم قويت عزيمة « هرقل » بعد هـذه السنوات العشر ، فطرد الفرس عن كل أملاك الامبراطورية ، وبينها مصر . . ثم لاح له بعد أن وضعت الحرب أوزارها أن يوحد المبادىء المسيحية ، بعدما رأى ما كان من نتائج الخلاف المذهبي من إضعاف الامبراطورية وتفتيت كتلتها ، ذلك الخلاف الذي قام أبد الدهر بين أبناء الدين الواحد ، لذلك رأى هرقل أن ينشيء مبدءا جديداً ، ثم أراد حمل الناس على اعتناقه واتباعه والعمل به ، ولكن قبط مصر كانوا يرون فيه بدعة لا نهاية لها إلاّ الضلال ورأوا في اتباعه كفراً وخروجاً على ديانة المسيح لذلك لم يرضوا به بل رغبوا عنه في مبدئهم الأول .

وأصرّ الإمبراطور على إرغامهم إلا أنهم لم يخفقوا بإرادته ، بل ثبتوا عند رأيهم ، فخيرهم « ولاة هرقل » بين اتباع المذهب الجديد وبين الجلد فالموت . . ! ! فكانوا يفضلون الاستشهاد في سبيل ما يرونه حقًّا على العيش في ظل الباطل . . وعلى هذه الحال من الاضطهاد عاشت البلاد عشر سنين طوال عاود معها الأهلون الهجرة الى الصحراء .

ولقد كانت « مريوط » طيلة الحكم الروماني أزهر وأعمر من شتى الصحراء الغربي وليس أدل على ذلك من أن تحمل الحكومة التي كانت قائمة وقتذاك منطقة « مريوط » وحدها جملة ربط الخراج الذي كان مفروضاً على الصحراء كلها وكانت المجوية تدفع لصفها مالا والنصف الآخر نبيذاً مما يستخرج من كروم العنب التي كانت قائمة بسهول مريوط . . ! !

* * *

ولم يكد نور الاسلام يشرق على الشمال الافريقي بفتح « عمرو بن العاص » لمصر . ولم يكد القائد العربي ينتهي من بسط نفوذه على الوادي ونشر لواء الاسلام تحت سمائه حتى أرسل « ابن عبدالله الحكمي » لفتح مدائن مريوط . فتم له ذلك على أيسر وجه . .

وفي نهاية القرن الثالث الهجري بدأ الاضمحلال يدب في طول الصحراء وعرضها . وقد شمل مريوط أيضاً فأهملت مدائنها حتى اندثرت ، وآبارها حتى غاض الكثير منها ، ورحل عنها من كان قد هاجر اليها ، ولم يبق بها الا بقية من البدو الرحّل الذين لا يرتضون بالصحراء وعيشها بديلاً ، وهم الذين يعرفون الآن باسم قبائل « أولاد علي » .

أما ما هو السبب في إطلاق اسم « أولاد علي » على سكان الصحراء الغربية ؟ فهذا ما نريد أن نجلوه في هذه السطور مما استقيناه من روايات مشايخ العربان المقيمين الآن بالصحراء ، إذ ما زال الجميع يرددون « انه عندما مرت قبيلة بني هلال بالصحراء الغربية حوالي القرن الخامس الهجري في طريقها الى بلاد المغرب « لفتح القيروان » سقط « الزناتي خليفة » تركت في عرض الصحراء . إحدى بناتها لأنها حملت سفاحاً ، وتركت معها بعض المال والعبيد ، وكانت تدعى « سُعدَى الهلالية » فوضعت ولداً ذكراً أسمته « حركاته » ثم قذف البحر بأحد اليونانيين من صائدي الاسفنج ، غرق مركبه ، وهلك من معه من رفاق ، وما أن رأته « سُعدى » حتى اضطرته على اعتناق الاسلام ، ثم تزوجت منه ، وقد أنجبا ثلاثة أولادهم « علي » و « هنداوي » و « برغوث » .

من هذا يتبين لنا أن « سعدى » قد تركها أهلها في ضواحي برقى مطروح إذ الاسفنج يكثر في منطقتها البحرية ، واليونانيون يجدّون في طلبه من هذه المنطقة

ومات الأبوان ، وتركا الأخوة الأربعة ذوي ثروة ، ولكنهم كانوا صغاراً .

وكان البدو المقيمون حولهم يعدون أن أجدادهم « بنو هلال » ولما كان « لبني هلال » مكانة ملحوظة في نفوس الأعراب ، فقد تقدمت أربع قبائل ، وتبنت كل قبيلة واحداً من الأخوة الأربعة متطلعة إلى أن يكون لها من نتاج غنائمها وجالها وراضيها نصيب يزيد على ما كانه لثروته التي ورثها من وراء أمه . وهكذا فاز الخراج بإضافة ثروة كل واحد منهم حتى إذا ما شبوا في ثروة طائلة نصبت كل قبيلة فتاها زعيماً عليها .

ولكن « حرباً » لم يرض بهذه الزعامة الصغيرة ، ولم يقنع بهذا العدد القليل من الأتباع ، بل طمع في الزعامة المطلقة ، فما كاد أخوته الآخرون يطالعون على عزمه ، حتى أخذوا — متحدين — في مطاردته هو وأتباعه ، وأجبروهم على الرحيل ، فساروا الى « الجبل الأخضر » في « برقة » فأقام فيه « حرب » بمن معه من أتباع . ولا يزال « بنو حرب » الى الآن في موطنهم الذي نزح اليه جدهم الكبير .

ومرت سنون كان « علي » خلالها قد ضمّ إليه أخاه « هنداوي » واتحد الاثنان وطاردا أخاهما « برغوثاً » حتى رحل هو أيضاً الى « طرابلس » ثم قوي « علي » وأراد أن يبسط نفوذه على « هنداوي » وقبيلته .. وكان أن نشبت الحرب فيما بينهما ، إلا أن « علياً » استطاع أن يجلي « هنداوي » وقبيلته عن الصحراء فألزمهم حدود وادي النيل في صحراء الصعيد . وهم العرب « الهنادي » .

ومرت سنون أخريات فإذا أولاد « علي » ينشقون على أنفسهم فانقسموا قسمين :

١ — علي الأحمر : وهؤلاء اتخذوا موطنهم في الصحراء بالمنطقة الواقعة بين الضبعة والعلوم . ويقولون « علي الحَمَر » بفتح الحاء والميم ، وقد عُرفوا بالأحمر لحمائهم .

٢ — علي الأبيض : وهؤلاء استقروا في مريوط وغربي مديرية البحيرة ورمل الاسكندرية ، على أن تطورات الزمن جعلت بعض هؤلاء يرحلون الى جوار أولئك وبالعكس

وينقسم البدو عامة قسمين من حيث كيانهم الاجتماعي :

١ — مرابطون ٢ — صعاوى ..

١ — أما المرابطون : فهم أولو الفضل أو البركة المسالمون أو خدامهم ولهؤلاء مكان ملحوظ في نفوس الناس لا يتعلق على غنى أو فقر الواحد منهم وإنما يُجلّون أينما حلوا ولا يُهان واحد منهم وإن بدأ هو بالإساءة ، وكثيراً ما يقوم المرابطون هؤلاء بحل المشكلات والصلح بين العرب ، وحكمهم نافذ على كل بدوي وليس لأحد أن يخالف إرادتهم مطلقاً ولو على رغمه ، وعدتهم في ذلك أن يُخيّر المرابط من احتكموا إليه : هل يريدون فاتحة

خير أو فاتحة شر ! فإن قبلوا حكّه قرأ لهم الفاتحة ودعى لهم بالخير وإلا عكس الآية وفي ذلك ما يخشاه العرب .

وإلى رحاب هؤلاء المرابطين يلجأ كل ذي حاجة فمن طالب زواج ممن لا يرتضونه فيستعين بأحد المرابطين عليهم . الى عارية من زيجة يرضاها عليها آلهاً . . وغير ذلك من حاجات البدو التي لا تنتهي .

٢ — أما السعادى : فهم شُطّار كسور العرب الذين لا ينتمون لأحد من المرابطين وليس في أجدادهم أحد من أصحاب الفضل والبركة وهؤلاء لا يُعمل حساب الواحد منهم إلا إذا كان قوي الشكيمة ذا بطش وقوة ، إذ لا يخاف أحد البدو عاقبة الإساءة اليه .

قبائل مربوط

أما القبائل التي تعيش في مربوط فأهمها :

(١) السناجرة : وتعتبر أقوى قبائل مربوط شوكة وأكثرها عدداً وأصعبها مراساً وتمتد مضاربها من مرسى مطروح الى كفر الدوار وحوض عيسى (٢) العقاري : وتلي قبيلة « السناجرة » في الشوكة وهما دائماً في تنازع لا يحد من تفاقه إلا قسوة عقوبات قانون العرب العرفي وكثرة الغرامات التي تنصب على كاهل الطرفين المختصمين . . وهي من برج العرب الى « العلمين » (٣) الطوارة : وهؤلاء من المرابطين ، ولهم مكان ملحوظ في نفوس جيرانهم ، وهم من « سيدي كرير » الى « برج العرب » (٤) العوافير (٥) القطمان (٦) القنيدات (٧) الفناوير (٨) المسون (٩) عائلة ابراهيم .

وليس كل المقيمين « بمربوط » من البدو الأصليين ، كلا فإن نظام « الزالة » معترف به عند العرب فكل غريب ينزل بجوار قبيلة له أن يكتب نفسه وعائلته ضمن أفرادها ، ويكون محسوباً عليها . . له ما لهم وعليه ما عليهم يغوثون لنصرته ، ويذود معهم عن حقوقهم التي تعتبر حقوقه هو أيضاً . . يدافعون عنه إذا ما اعتدى عليه معتد . . واذا ما أساء هو لأحد أفراد العائلة التي هو نزيل عليها ، فأكرم أخلاق العرب وأصحها عندما يعفون عن خطئه فلا يأخذونه به لأنه غريب لا شوكة له إلا بهم . . !!

٦ ـ نظرة عامة

فيما تتطلبه الصحراء والواحات من إصلاح

أرى أن نجمل في هذه السطور التالية ما الصحراء عامة والواحات في حاجة إليه من إصلاح حتى يمكن استغلالها على الوجه الأكمل لتأتي بما هيئت له من خير فتعود على أهليها وبلاد القطر بالنفع الكبير خصوصاً وأن مجال الاستغلال الزراعي آخذ في الضيق بالنسبة لقلة الأراضي التي تضاف المساحة التي تزرع في الوادي من عهد بعيد مع إطراد زيادة عدد السكان فإن لم نبادر بالقيام بعمل حاسم فإن العقبى لن تحصد وليس لنا من مجال نتنفس فيه غير الصحراء بأراضيها الخصبة المهملة التي يمكن اذا ظفرت بقليل من العناية .. أن تضيف الى مساحة الأراضي الزراعية بالوادي مثلها والى الانتاج الزراعي والحيواني أضعافه وتعود الى البلاد حالة الرخاء واليسر الآخذة في الزوال شيئاً فشيئاً .

أما هذه الاصلاحات فيمكن تلخيصها في النقط الآتية :

أولاً — ﴿ الماء والزراعة ﴾

١ — المنطقة الساحلية

١ — ﴿ تحسين وسائل الري والزراعة ﴾ سبق أن عرفنا أن الري يعتمد في المنطقة الساحلية على موردين من الماء هما :

أولاً : السيول : ولا أقول الأمطار .. وإن كان زيد هو ابن عمرو .. وعمرو هو أبا زيد .. ولا يمكن لزيد أن يجيء الى الدنيا إلا من طريق عمرو .. !!

فالسبب في تواجد السيول بطبيعة الحال هي الأمطار .. ولكن . ليست كل منطقة مطر تحدث سيلاً .. بل لا بد لذلك من سقوط أمطار غزيرة .

والأمطار تسقط عادة فيما تسقط على جزر الصحاري ، وسهولها .. بنسبة واحدة ولا يمكننا أن نحدث ريًّا إلا إذا تحدرت من فوق الهضاب ، والتلال ، واتخذت طريقها في أخاديدها التي تحفرها لنفسها بنفسها ، أو يحفرها لها الأهلون في منابع السيول

ومنحدرات التلال .. نحو السهل المنخفض .. متجمعة هيئاً فشيئاً حتى يتكون منها ما يمكن أن يُحدث الري .. ألا وهو السيل .. !!

وكما خلق الله الوديان العظيمة لتواصل الأرجاء .. وأجرى فيها الأنهار .. لتستقط الصحاري بسهولها الصغيرة ، وأوجد لها الهضاب والتلال ، لكي تقوم منها مقام النهر في الوادي الكبير ..

فالتل .. أو الهضبة .. أو المرتفع أيّاً كان قدره .. مقامه من السهل الذي يجاوره مقام المروى من الحقل ، إذ أنه هو الذي يمده بالسيل الذي يروي زرعه وينبت فيه الكلأ .. لذا فإن لكل جبل أو تل حوضاً يرويه كما لكل نهر أو بروش حوضه الذي يرويه ، وينفيض عليه من مائه ، وكل مالك أو منتفع بالسهل المجاور للجبل له الحق كل الحق في الانتفاع بالمنحدرات المجاورة لأرضه وفي اتجاهها ..

وذرى التلال .. وقمم الجبال هي الحدود الفواصل بين حق انتفاع المنتفعين بها عن يمين وعن شمال ، ولا يمكن لأحد أن يتحايل على حق الآخر حقه من الماء إن أمكن التحايل ..

مما تقدم يتضح لنا انه لا بدّ لكل مساحة مزروعة في المنطقة الساحلية .. لا بد لها من مسطح واسع يظل غير مزروع لكي يمدها بالسيل المتجمعة مما يسقط عليه من أمطار . أما تقدير هاتين المساحتين بالنسبة لبعضهما ، فقد أرى أنه سيكون ضرباً من التخمين إلاّ إذا أجريت تجربة دقيقة تستغرق زمناً طويلاً حتى يمكن الجزم بما يحتاج الفدان المزروع من مسطحات التلال المجاورة لكي يُروى ريّاً جيداً في موسم الأمطار .

وإني لأرى ضرورة قيام بعض ذوي الخبرة بإجراء هذه التجربة .. كما أرى الانتفاع بالوديان الكبيرة ، كوادي التمر ، الذي يقع على مسيرة خمسة عشر كيلومتراً غربي مدينة مرسى مطروح في مد الأراضي المحيطة بالمدينة بالماء العذب صيفاً لإمكان زراعة بعض الخضروات والحدائق وذلك بقيام سد في شمال الوادي ليحول دون ذهاب مياه السيول الكثيرة في البحر هباءً وبغير ما فائدة تجتنى من ورائها كما أجري في صحراء سينا .. إذ أقيم سد الرفعة في الأيام الأخيرة .. !! وبذا لا تعتمد المدينة على ما يرد اليها من الاسكندرية أو يقتصر استهلاكها على ما ينجح بالطريقة المعطلة دون غيره .

(ثانياً) — آبار الثوالي أو آبار تحت التربة : يجب حفر الآبار القديمة الموجودة بالصحراء لإمكان الري صيفاً اذا اضطر الأمر إليه ..

في المنطقة الساحلية آبار كثيرة منها المستعمل حتى الآن ومنها الذي جرت عليه يد الزمان بالدمار فطمير وبقيت بعض آثاره تدل عليه . ومن أهم هذه الآثار التي تُستخدم دليلاً

على وجود بئر قديم :

١ — الكروم : وهي التلال الصغيرة . خصوصاً اذا جاورت أرضاً مستوية عليها أو حولها ما يشبه بقايا الأسوار من أحجار منظومة في أطوال مختلفة بعض الشيء محاطة بسياج من نباتات العنصل الذي يظهر بشكل واضح أثناء موسم الأمطار . فالاعتقاد السائد أن القدماء كانوا يستعملون العنصل في حفظ حدود أراضيهم الزراعية . ووجود الكرم بجوار السهل الصغير المنبسط المصوَّر دليل على أن هذا ركام بيت — اذا وُجِدت به الأحجار المربوعة المنحاة (قناطر) — وإذا كان التل خالياً من الأحجار فهو مخلفات حفر البئر . وفي مثل هذه الأماكن يبحثون عن الآبار القديمة

٢ — العوسج : فشجيراته المعمرة إذا ظلت مخضوضرة خلال الصيف غير بادية التأثر بالجفاف الذي أفعل المنطقة جميعها استدلوا بها على وجود بئر تحتها خصوصاً اذا كان حولها بعض من الأحجار ، إذ أن جذورها تذهب في جوف البئر المطمورة لأنها تكون أكثر رطوبة من غيرها مما جاورها من الأرض .

فللقديم من هذه الآبار روافد ممتدة في باطن الطبقة الصخرية التي تلي الطبقة العليا ، منحوتة في جوفها ، وقد تذهب هذه الروافد الى مسافات بعيدة كما هو الحال في آبار العامرية ومرسى مطروح . وهذه (الجيوب) الجانبية هي التي تمد البئر بالماء العذب طوال العام .

ولكي يظل البئر عذب الماء صالحاً للشرب ولري الزراعة يجب ألا يزيد الحفر عن ذراع ونصف ذراع بعد ظهور الماء حتى تظل موارده قاصرة على الطبقة التي تحتوي مياه الرشح ثم يُمتد في حفر الروافد الجانبية ، أو الجيوب — كما يسمونها — على نفس المستوى

ويمكن للبئر ذات الجيب الواحد أن تمد عائلة تدار بصفة مستديمة دون أن ينضب منها الماء أو تتغير عذوبته .

ولرفع ماء هذه الآبار بالماكينات يجب الا تركب عليها الماكينات الثابتة بل تستعمل في رفع مائها الماكينات المتنقلة الصغيرة حتى اذا ما نضب ماء بئر انتقلت الى غيرها على أنه يجب ألا تُبذَل أية محاولة في جمر البئر واختراق الطبقة الصخرية التي تلي الأسفنجة المشتملة على ماء الرشح حتى لا نصل الى مستوى البحر فيصير الماء مالحاً غير صالح .

وتختلف أعماق هذه الآبار بين ٩ أمتار وصبعة وعشرين متراً . فكلما قربنا من الساحل قلَّ العمق وكلما بعدنا عنه موغلين في الصحراء زاد العمق . ويتبع ذلك بطبيعة الحال قلة التكاليف حال الانشاء وكثرتها .

على أنني استطعت حفر بئر جديدة عمقها إثنى عشر متراً ومسطح فوهتها العليا ١٥٠ سم٢

بخمسة رجال في خمسة وأربعين يوماً . وكان أجر الرجل عشرين قرشاً في اليوم فتكون جملة التكاليف لإخراج البئر ٤٥ جنيهاً عدا مصاريف بناء الجزء الأعلى منه . . ولكن الأهالي يحفرون بتكاليف أقل بالنسبة لقلة الأجور التي يدفعونها فيما بينهم

ويجب عدم الاعتماد على الأمطار والسيول كمصدر لمياه الري ، بل يجب مد الترعة النوبارية الى أكبر مسافة ممكنة في جوف الصحراء ، ليمكن استغلال الأراضي الزراعية المحصبة بزراعة الفواكه والمحاصيل ذات النفع القيِّم ، ولعلَّ أكبر دليل نقيمه على صلاحية هذه المناطق لأي استغلال زراعي ما صادفته شركة جناكليس من نجاح لما توافر لمياه الري بالترعة المذكورة وكيف أن الفدان الواحد من زراعات العنب يغل ما يزيد عن المائة جنيه في العام . . ولعلَّ أكبر فرية افتراها أجنبي في مصر هي تلك الدعاية الواسعة النطاق التي تقوم بها شركة جناكليس رغم ما تلاقيه من نجاح ورعاية رجال وزارة الزراعة لها . . هذه الفرية التي أملاها عليهم شعورهم بتنبه الأذهان المصرية لاستغلال أراضي الصحراء بزراعات العنب والزيتون لما لمس المواطنون ما يعود على الشركة من ربح وما ينعمون فيه من عيش رغيد لم يحلم به أبناء النيل في أرض النيل . . هذه الفرية التي تتلخص في أن أرض الصحراء لا تصلح لزراعة العنب إذ أن الأشجار لا تظل ولا تنجح إلاَّ الى أجل قصير لذا فانهم سيقتلعون ما زرعوه بالأمس . . ومن الغريب أن هذه الدعاية التي لا أعتبرها إلاَّ تعمية لأبصار المصريين الذين فكروا في الصيف على نهجهم حتى لا يجدَ لهم مزاحمون في الأسواق الداخلية والخارجية قد وجدت من يصدقها . . وبالرغم من أنهم جادون في تشريفهم عنه فانهم ما زالوا يزرعون ولم يقتلعوا شجرة واحدة من شجيرات العنب . . العنب الذي ظل قرونا يعطي أحسن نتاج ويكفي أن علمنا فيما تقدم ذكره أن رومانيا كانت تفتخر بأجود أنواع النبيذ من كروم مريوط . . أبان حكم الرومان لمصر . .

ولريب قائل أن مد الترعة الى جوف الصحراء يصادفه صعوبات كثيرة ، أهمها أن مستوى سطح الأرض ليس مستوياً في كل المناطق . . ولكن ذلك لا يقف أمامنا كعقبة في سبيل تنفيذ هذا المشروع فيمكن التحايل على رفع الماء الى المناطق المرتفعة المنسوب بواسطة الطلمبات التي تقام عند نهاية الترعة في أول كل منسوب ، فكل صادف سير الترعة مرتفع يتعذر التغلب عليه ذلناه بطلمبة رافعة . ومن مرتفع الى مرتفع حتى نبلغ الغاية ، ونشرف على القصد الذي أهدفنا اليه . . !!

الري . . !!

أما وقد عرفنا الموارد المائية التي بالصحراء والتي يجب أن تتوفر في المنطقة الساحلية ،

فيمكننا والحالة هذه أن نتحدّث عن طرق الري فيها في المناطق التي ستظل معتمدة على مياه الأمطار . ولكي نتمكن من الوصول الى حقيقة مقنعة سنتخذ ما قمت به من ابحاث في منطقة برج العرب كأساس لدراسة الري الواجب اتباعه في هذه البقاع الساحلية .

أولاً : الري شتاء

ونطبق بنا بعد أن تبين لنا أن السيول هي المورد الأهم لمياه الري في الصحراء الشمالية أن نعتبر فصل الزراعة فيها هو فصل الشتاء ، وأن نعني بدراسة الري فيه . إذ أن حاصلاته هي ما يعوّل عليه الأهلون.

ا — ري الزراعات الحولية

وأهم هذه الحاصلات هو الشعير إذ هو عماد الثروة الزراعية في أغلب هذه المنطقة خصوصاً في ناحية سيدي براني والسلوم ، فالجميع يزاولون زراعته لأنه قوام حياتهم المعيشية ، فمن أتاه ربه محصولاً وفيراً منه فهو في اطمئنان ويسر . ومن لم يعطه فله الشقاء طوال العام.

والشعير لا يكلف جهداً في ريه . إذ بعد سقوط الأمطار أول مرة في أواخر أكتوبر أو أوائل نوفمبر ، ينثرون الحب ، ويحرثون الأرض ، ثم يتركون الزراعة بعد ذلك لما تفيض به السماء من صيب غيثها حتى يحين الحصاد .

على أن أغلب البدو وزراع الشعير خاصة لا يأمنون للزراعة عقب المطرة الأولى إذا جاءت مبكرة في أواخر أكتوبر إذ يخشون أن يطول المدى بينها وبين المطرة الثانية فتصادف عوامل الجفاف البواكير الصغيرة فتموت .

ويستطيع البدوي أن يتنبأ بما سوف يكون عليه موسم الأمطار من قلة أو غزارة. وهل سيكون مبكراً أو متأخراً . وأهم العلامات التي يستندون اليها في تنبؤاتهم هي هجرة الطير من الشمال الى الجنوب ففي أواخر الصيف تبدأ الطيور بالهجرة من الساحل الأوربي الى الساحل الأفريقي . فان بكرت بتوافدها على الساحل المصري كان موسم الأمطار مبكراً . وإن جاءت بكثرة كانت أمطار الموسم غزيرة ، والعكس بالعكس .

وإنهم ليستبشرون خيراً إذا سقطت الأمطار موزعة بحساب كل شهر من أشهر الموسم مطرة غزيرة . أي في نوفمبر مطرة ومثلها في ديسمبر ، وأخرى في يناير ، ورابعة في فبراير ، وخامسة في مارس .

وإنهم ليحسبون حساب المطرة الأخيرة التي يرجونها في مارس ويعلقون عليها أهمية كبرى بالنسبة للمحصول ، إذ هي التي تقدم وتؤخر.. لذا فهم يقولون في أمثالهم المأثورة «إن

كان زرعك عطيب وراه مارس ، وان كان زرعك صايا وراه مارس !

أي أن أمطار مارس هي القول الفصل في شأن المحصول فان جاءت غزيرة أفادت الزروع المتأخرة الصنيفة وألحقتها بالمبكرة القوية ، وان لم تأت فلا خير يرجى من وراء زرع مبكر أو زرع متأخر

ومن هذا نجد أن الشعير في حاجة لخمس أو ست ريات طوال حياته .

على أن غزارة الأمطار في شهر ديسمبر بالنسبة للزراعات المتأخرة كقلتها في شهر مارس بالضبط بالنسبة للمحصول ، إن كانت الزراعة في البقاع المنخفضة المستوى ، فاذا تراكمت المياه في هتين الفترتين فوق النباتات الصغيرة الغضة وأدركتها برودة الليل .. فانها تودي بالزراعة ، وربما قضت عليها قضاء مبرماً .

وتخف هذه الكارثة بعض الشيء إذا ما أدركتهم في شهر ديسمبر إذ يتمكنون من إعادة زراعة الأرض ، ولكنهم على أي حال لا يفيدون من ورائها شيئاً يذكر

وما يسري على الشعير يمكن أن يسري على بقية المحصولات الطويلة الأخرى التي تزرع في الشتاء .. الا ولذا أرى ضرورة استغلال المناطق المنخفضة بزراعة الحدائق إذ أنها أكثر احتمالاً ..

ب — ري الحدائق

ولعل الزائر لمنطقة برج العرب يلمس اختلافاً بيناً ، وفارقاً كبيراً بين حدائق الأهالي ومزرعة البساتين .

فحدائق الأهالي ذات أشجار قوية نامية نماء حسناً ، بالرغم من أنها لا تجد من الخدمة والعناية ما تجده الأشجار التي في مزرعة البساتين .. ولو ان المسألة كانت عكسية لما كان هنالك ما يستلفت النظر ، أو يوجب الاستغراب والدهشة .. إذ المفروض أن مزرعة البساتين مزرعة نموذجية تجد كفايتها من العناية التي لا يستطيع ذلك البدوي .. الذي لا يملك دابة تجر له محراثه ولا جلد له على العمل — بذلها نحو أشجار حديقته ..

ولكننا لو دققنا في الأمر قليلا لوجدنا أن عدم مقدرة ذلك الاعرابي وعجزه ، قد أفاداه من حيث لا يدري . وكما أفاد الاعرابي الكسول من خموله وعجزه جنى قسم البساتين من وراء مقدرته واعتماده على القوى الآلية الضر والخسران .

أما كيف أفاد العجز البدوي ، وخذلت القوة والمقدرة (قسم البساتين) فهذا ما أحب أن أعرضه — كما أرى — لعل لأحد فيه رأياً .

فما لوحظ أن قسم البساتين أول ما قصد المناطق الزراعة فيها عام ١٩١٨ لم يكن قد وضع سياسة مرسومة للسير عليها وإنما جاء كل شيء اجتهاداً ، لذا فلم يبن أهمية كبرى على أهم مصادر الري في هذه البقاع الصحية المراس ، معتمداً — إلى حد كبير — على القوة الآلية وما يمكن أن ينتزعه بواسطتها من باطن الأرض من المياه الارتوازية وكانت النتيجة أن غرس الأشجار في كل ما استطاع الاستيلاء عليه من الأراضي ، سواء أكانت مرتفعة أو منخفضة ، فأوجد مزرعة ذات مساحة واسعة دون أن يحسب رجاله الذين ابتدأوا بالعمل هناك ، حساب ما تحتاجه هذه المساحات المترامية الأطراف من مسطحات أخرى خالية لكي تمدها بماء الري . وهل سيمكن التلال المحيطة بالمزرعة أن توفر لها ما يلزمها من ماء الري خلال موسم الأمطار ، وهل سيمكن الحصول على السيول التي تنحدر كل الارتفاعات من مسافات بعيدة أم أن بعض الأشجار سيجد نهايته والبعض الآخر مقضي عليه بالحرمان .. مطمئنين كل الاطمئنان على ما سوف يخرجونه من المياه الارتوازية .. إذ جندوا لذلك عدداً من الماكينات الثابتة .. !!

ولرب قائل إنها كانت تجربة ، وكل تجربة عرضة لأن تنجح وأن يصيبها الفشل . ولكنني أقول إن التجربة لا تكون في هذه الرقعة الواسعة من الأرض وكان يمكن إجراؤها في مساحة صغيرة كما انتهج القسم أخيراً في محطة تجارب (الدراع البحري) ومحطة تجارب (مرمى مطروح)

ثم اتبعت في ري الأشجار طريقة أرى أنها كانت بدائية ، وكانت محاولة يُقصد من ورائها علاج الخطأ الذي وقعوا فيه .. ولا أقول ذلك ناقداً إياهم بل بالعكس فإن لهم فخر الخطوة الأولى ، فكل خطوة أولى تحتاج أكثر من الأمور يعوزها الكثير من الجرأة والشجاعة . ولولا خطؤهم الذي وقعوا فيه لما استطاع أحد بعدهم أن يهتدي .. ففي ظلام الخطأ يستطيع الإنسان ذو البصيرة أن يرى نور الصواب ..

فلقد كان المتبع أن تدار الماكينات للري حال سقوط الأمطار لكي يمكن توفير ماء كثير للري لا يحتوي على كثير من الأملاح فيستطاع الحصول على أكبر نسبة من الرطوبة الأرضية مع تجنب الأضرار التي تنجم عن الري بالماء المالح وحده .. ولربهم استمروا على ذلك في خلال الشتاء فقط ، فقد كانت الأضرار يمكن أن تحتمل في البقاع المرتفعة والقليلة الارتفاع التي تحصل من مياه السيول على قدر كاف .. بل كان الري يستمر خلال الصيف أيضاً كلما احتاجت الأرض إلى الرطوبة التي تتطلبها حياة الأشجار

وعلى هذا الأساس كانت الأشجار التي في المناطق المرتفعة المنسوب تنقص بدلاً من أن تزيد وتنمو .. لأنها لا تأخذ كفايتها من مياه الأمطار ، فحاول القائمون بالأمر إذ ذاك

تعويضها بالماء المالح الذي لا أرى فيه إلا سموماً تنفثها الماكينات لتقتل بها الاشجار .. ولقد كانت النتيجة المحتومة لمثل هذه الحالة أن تلاشت الاحواض القليلة التي حولها محطة السكة الحديد . وكان ذلك بطبيعة الحال من تأثير الأملاح الموجودة في مياه الماكينات خصوصاً في الاماكن التي تروى بكثرة في فصل الصيف . فقد يتطلب عن مياه الماكينات في تربة الاراضي التي يغمرها السيل ١٤٠٠ وحدة ملحية في المليون .. وفي الاراضي التي لا تظفر بشيء يذكر من مياه السيل ١٣٠٦٠ وحدة .. وهذا القدر الاخير كاف جداً لأن يوقف النمو اذا لم يقتل الاشجار ، إذ أنه يفسد طبيعة التربة ويجعلها غير صالحة للزراعة ..

هذا ما جناه قسم البساتين من وراء قوته واستعداده الآلي أما ما أفاده البدوي من وراء عجزه . فقد اضطره العجز لأن يقتصر على زراعة الأراضي الواطئة (مواطىء السيل) حتى يستطيع خدمتها ولم يلق بالاً لري حديقته بعد السنوات الثلاث الأولى أثناء الصيف

وهنا كان لا بد من علاج لما أخطأ فيه السابقون . فالاشجار قائمة في الأرض ، والاصلاح يتطلب تمهيد الأرض وتسويتها ، حتى يمكن للأشجار أن تتساوى في نصيبها الذي تناله من السيول التي تغمر الأرض وتركد فيها إذا كانت منخفضة المستوى ، وتمر على الأرض المرتفعة المستوى مر الكرام دون أن تحدث فيها أثراً من رطوبة حتى أخذت أشجارها في التدهور والانتقال من سيء الى أسوأ . بينما الشجرات التي تنال حظها وفيراً من الماء في أحسن حال .

وفي غمار هذه الحالة تراءى لي (وكنت قائماً بالأمر في هذه البقاع في السنوات الأخيرة) أن أبدأ بالمغامرة فتممت الري صيفاً عن الأشجار القوية الواقعة في مواطىء السيول .. وجعلت أرافبها بدقة فإذا بها بدلاً من أن تتصوح خلال فصل الجفاف ظلت ذات خضرة وقوة حتى أدركها فصل الأمطار .

وفي العام الثاني أخذت في تقسيم الأرض المنزرعة الى أحواض صغيرة مراعياً (تنشيز) كل مساحة ذات ارتفاع واحد على حدة ، بيتون قوية يزيد ارتفاعها عن النصف متر .. وجعلت لكل منسوب قناة خاصة به وعلى مستواه لكي توافيه بالماء الذي يحميه به « الغايات الخارجية » ، ليمكن غمر الأرض جميعها بالسيل وحبسه عليها بواسطة السدود القوية فلا ينحدر كما كان قبلاً الى الأماكن المنخفضة مغرقاً فيها دون غيرها .

ولم أدر الماكينات للري مع سقوط الامطار كما كان متبعاً ، بل عقدت النية على عدم الادارة قبل شهر فبراير رامياً من وراء ذلك الى غرضين .

الغرض الأول : ترك الفرصة للأرض أن تغتسل من الأملاح المتخلفة من الري في السنة

الماضي قبل أن نضيف اليها أملاحاً جديدة ..

والغرض الثاني : ترك الفرصة لمياه الأمطار كي تتسرب بواسطة الرشح ، خلال الطبقات الأرضية حتى تختلط بمياه الآبار ، وثلاثة أشهر أرى أنها مدة كافية لذلك ليمكن الحصول على مياه إرتوازية عذبة الى حدٍّ كبير .

وحل فبراير وأدرنا الماكينات فإذا الغرض الذي أهدفت اليه يتحقق ، وإذا الماء يتدفق عذباً لا ملوحة فيه ، فروينا ريتين متعاقبتين حصلنا من ورائهما على الرطوبة الكافية الى وقت طويل ، إذ اتصلت رطوبة مياه الماكينات برطوبة مياه الأمطار التي سقطت خلال الموسم .. وكانت الأشجار في طور الإزهار فلم تدركها براكين الجفاف حتى بلغت الثمار مبلغاً أصبحت معه لا يخشى عليها .

على أننا كنا في منتصف إبريل قد انتهينا من ري المزرعة جميعها ريتين وهذا كل ما استطعنا أن نحصل عليه قبل أن تزداد ملوحة المياه .. وأقفلنا الماكينات بعد ذلك الى أجل قابله فبراير الثاني

وليس أدل على صلاحية هذا النظام في الري من أن الانتاج قد طفر من ١١٥٠٠ ك . ج . من الزيتون الى ٥٠٦٩٠ ك . ج . مع أن عدد أشجار المزرعة عندما أعطت ١١٥٠٠ ك . ج . كان ١٨٠٠٠ شجرة وعددها عندما أنتجت ٥٠٦٩٠ ك . ج . كان ١١٤٠٠ شجرة .. إذ كنا قد تخلصنا قبل ذلك من الأشجار الرديئة ..

مما تقدم وعلى ضوء هذه التجربة أرى أن الري بالماكينات خلال الصيف وبعد منتصف أبريل غير جائز مطلقاً واذ لم تسقط أمطار كافية خلال الموسم .. وأمامنا دليل آخر يمكننا أن نقيسه على أن ذلك لن يؤثر في الأشجار تأثيراً سيئاً البتة وهذا الدليل يسطع بوضوح في أشجار الأعالي التي لا تظفر بقطرة من الماء خلال الصيف . ومع ذلك فهي اذا قورنت بأشجار « مزرعة البساتين » نالت الاستحسان ..

وفضلاً عن هذا فان الري بالماكينات يتعارض تعارضاً تاماً مع الغرض الذي نسعى جاهدين من أجله ، وهو نشر الزراعة الجافة بين البدو بالطرق التي يستطيعون ممارستها والحصول على أسبابها المتفقة مع مقدرتهم المالية فلا تكلفهم جهداً ولا نصباً . . !

٢ — يجب الاستيلاء والمحافظة على أنابيب المياه التي قام بمدها الجيش الانجليزي خلال الحرب الأخيرة بين أبي المظامير في نهاية الترعة النوبارية المذكورة وطرق حتى تصل مياه النيل الى أبعد مسافة ممكنة من الصحراء التي يقضي بنيها الظمأ في السنوات القليلة الأمطار فاذا توفرت المياه العذبة أمكن لمن يرغب الاقامة في الصحراء ريها أو يقيم وهو ناعم وإذا

ما عمرت البقاع الصحراوية لا بد وأن يفكر الواقفون عليها في الاستغلال بعد ما يدرسونها دراسة وافية بأناة وهدوء . فتنشط فيها الحياة الاقتصادية ولا تكون حركتها قاصرة على طائفة خاصة لا منافس لها وليس لها هدف الا امتصاص دم بنيها وإحباط مساعيهم نحو التقدم وشل حركتهم . كلا حاولوا القيام بعمل نافع يعود عليهم بالخير .

٣ — مشروع منخفض القطارة : ولعل القارىء كثيراً ما سمع بهذا المشروع الجليل ، ولعل الكثيرين لا يذكرون ما هو هذا المشروع ولا ما ينطوي عليه من نفع كبير وخير للبلاد . لذا سنذكر موجزاً عنه فيما يلي :

« يقع منخفض القطارة في الجزء الشمالي من الصحراء ، وفي منتصف المسافة بين وادي النيل والحدود الغربية وتبلغ مساحته ١٩٥٠٠ ك . م . م أو ما يقارب مساحة الوجه البحري والبحيرات ، ويبلغ متوسط عمقه ٦٠ متراً ويقع فيه جزء ينخفض الى ١٣٤ متراً ، وهو يعد أعمق بقعة من الأرض عُرفت حتى الآن في أفريقيا . ولقد تكوّن من تأثير الرياح التي حملت من طبقاته الرخوة مكوناتها الرملية الى الجنوب الشرقي ورسبتها على شكل تلال رملية هائلة يشاهدها رواد الصحراء على خطوط مستقيمة يربو طول بعضها على المائة ك . م. وتكتنفه من الشمال والغرب هوامش صخرية تعلو عن قاعه في بعض الأجزاء حوالي ٣٠٠ متر . أما في الجنوب والشرق فيعلو قاع المنخفض تدريجياً الى متوسط منسوب الصحراء .

ويرجع الفضل في معرفة منخفض القطارة الى العالم الكبير « الدكتور جون بول » الذي كان مديراً لمساحة الصحاري المصرية فقد كان يقوم في أوائل سنة ١٩٢٧ بأبحاث في الصحراء فنبه الى مزايا المنخفض ، ثم اشترك مع دولة حسين سري باشا ، في بحث مشروع الانتفاع بهذه المزايا في توليد القوى المحركة .

أما وسائل الاستغلال ، فيؤخذ من المذكرة التي وضعها « سري باشا » عن المشروع انها تنحصر في توصيل المياه من البحر الأبيض الى المنخفض بواسطة ترعتين يمر الماء في أغلب أطوالها بنفقين من البناء ويسقط منهما في القطارة .

ويبلغ طول الخط من البحر الى المنخفض خمسة وستين كيلو متراً تقام محطة توليد الكهرباء في نهايته . وتتكون الأرض التي يمر فيها النفقان في أغلب طولها من أحجار جيرية وطفلية يسهل إنشاء النفقين فيها بواسطة حفارات دائرية مركبة جرياً على ما هو متبع في انشاء أنفاق السكك الحديدية .

وقد قُدرت النفقات التي يتطلبها توليد قوة كهربائية مقدارها ٥٥ ألف كيلووات بمبلغ ١٧٫٥ مليون من الجنيهات وهي نفقات ليست بالباهظة اذا قورنت بما يتطلبه مشروع

عادي انتوليد مثل هـذه القوة الكهربائية من محطة تربينات بخارية تقام على النيل وتدار بالفحم لأن إنشاءها يحتاج الى مليونين ونصف المليون ، وتستلزم إدارتها ٧٦٠ ألف جنيه في السنة والصيانة ٦٠٠ ألف جنيه . فاذا روعي أن الفرق بين صيانة المحطتين هو ٩١٠ ألف جنيه وحوّل هذا الرقم الى رأس المال بفائدة قدرها ٣ر٥٪ لمدة ثلاثين سنة لكانت النفقة ٩٠٠ر٤٠٠ر٠٠٠ جنيه

ولقد كانت النية متجهة لاستغلال القوى الكهربائية المولدة من هذا المشروع لإدارة طلمبات الصرف في شمال الدلتا ، وتسيير قطارات السكك الحديدية في الوجه البحري ، وإضاءة البلاد الواقعة بين مديرية بني سويف والبحر الأبيض . هـذا الى جانب إدارة المصانع الأهلية بقوة كهربائية زهيدة الثمن .. !!

ومما انطوى عليه المشروع من المزايا أن وجود بحيرة في القطارة يدعو الى التفكير بزيادة كمية الأمطار التي تهطل في الصحراء من تأثير تبخر مياه البحيرة . يضاف الى ذلك رفع منسوب المياه الجوفية في الصحراء القريبة مما يؤدي الى زيادة المساحات التي تزرع في الواحات .. !!

وإذا نُفِّذ هذا المشروع يمكن إدارة الطلمبات التي تقام لرفع مياه ترعة النوبارية إذا مُدت فيستطاع توصيل الماء إلى أبعد نقطة داخل الحدود المصرية وبثمن زهيد وتكاليف لا تذكر بجانب ما سيعود على البلاد من خيرات .. ويمكن الإكثار من العنب والزيتون . والغابات تسد حاجة البلاد من الأخشاب وتفادى الوقوع في مثل ما وقعت فيه البلاد من ورطة غلاء الأخشاب وانعدام بعض أنواعها عندما نشبت الحرب الأخيرة .. ولا ريب أن في تنفيذ هذا المشروع قيام صناعات كثيرة تعود بالخير على أبناء القطر جميعاً .

٤ — تتبع وزارة الزراعة سياسة مفيدة في الصحراء تتضمن توزيع أشجار الزيتون واللوز والفواكه بعد التثبت من نجاحها في هذه المناطق بتجربتها سنوات عدة . على الأهلين بغير مقابل وذلك لمساعدتهم أولاً في إيجاد سبل للارتزاق يستعينون بها على العيش . وثانياً تهدف الحكومة من وراء ذلك لتثبيت البدو في أماكنهم فيخلصون صفة النزوح الى الرحيل كلما أجدبت الأرض من الشعير أو تراءى لهم ذلك ، إذ أن البدوي عندما يجد أن له أشجاراً تعطيه محصولاً يستطيع الانتفاع به فلا ريب أنه سيرابط بجوار أشجاره ويتعذر عليه الرحيل . زد على ذلك ما في المشروع من سد للعجز فيما تحتاجه البلاد من زيت الزيتون والزيتون المخلل فتستورده من الخارج بأثمان باهظة . ولكن هذا المشروع على ما فيه من فائدة كبيرة فقد أرى فيه نقصاً إذ أنه ينفذ بديكتاتورية واسعة النطاق بين البدو والحكومة

فللبدو حرية أخذ الأشجار أو الرفض اذا ما عرضت عليهم وفي هذه الطريقة تضييع للوقت بلا مبرر ، إذ يمكن تنفيذها بقوة القانون والإدارة فيجبر كل بدوي يضع يده على أرض تصلح لزراعة الأشجار متوفرة فيها الشروط المطلوبة على استلام العدد الذي يقدره رجال الزراعة لأرضه من الأشجار .. ويكلف بالمحافظة عليها ويعاقب إذا أهمل حتى إذا ما كبرت الأشجار وأثمرت تُركت له فانه سيحافظ عليها رغم أنفه حبًّا في النفع الذي سيجنيه من وراثها وبذلك نختصر الزمان الطويل الذي سوف نقطعه في اتباع سياسة عدم الارغام فهذه ثروة قومية قبل كل شيء وإن كان ظاهرها مصلحة الأفراد .

ب — منطقة الواحات

أما منطقة الواحات فهي في حاجة الاستمرار في إخراج العيون حتى يمكن استغلال جميع الأراضي القابلة للزراعة فيها ، وأحق الواحات بالعطف والرعاية هي الواحات البحرية إذ أن مياهها قليل جدًّا لا يكفي لإنتاج المحاصيل التي تقوم بأود سكانها ، ولذا فانهم يستوردون ما يلزمهم من قمح ودقيق من وادي النيل بفادح الثمن . ومنهم من يواجههم الجوع في فترات من العام أهمها قبل نضج البلح بقليل ولذا يضربون مثلاً في ذلك إذ يقولون « الجوعة الغبرة في طقة الصفرا » أي عندما يبدأ البلح في التلون باللون الأصفر ، في هذه الفترة لا يجدون من يقرضهم ولا من يبيعهم على أجل اذ استنفدوا محصول العام المقبل قرضاً وعقداً .. فلو أن عندهم من الأراضي الزراعية التي تجد من الماء ما يكفي إنتاجه لسد حاجتهم لما كانوا على هذه الحالة التي أوردت .

ثانياً — ﴿ اليد العاملة ﴾

« المنطقة الساحلية غنية برجالها على الوضع الذي هي عليه الآن من الاعتماد على الأمطار وعدم وجود وسائل أخرى للري . أما منطقة الواحات بجميعها في حاجة لأيد عاملة لتنتج إنتاجاً صحيحاً إذ أن السكان المقيمين علاوة على قلتهم فانهم كسالى لكثرة ما انتابهم من الأمراض ولعدم دخول دم جديد فيهم لذلك فهم في إضمحلال دائم وضعف مستمر ، وسوف لا تكون العاقبة محمودة إذا لم يلقح البدم جديد غريب عنهم .. وهذه الحال يمكن إصلاحها بثلاثة أمور :

١ — ترحيل عائلات من الريف المصري للإقامة بهذه البلاد واستغلال أراضيها وخصوصاً من المديريات المزدحمة بالسكان كالقليوبية والمنوفية وجنوب الغربية ، فإن هذه البلاد المزدحمة بلغ فيها الضيق أشد مرحلة ، إذ أن أربعة رجال وخمسة يتقاسمون فدانا لا تجوز

فدان من الأرض تكفي بكميتها من وراء إفلاحه وزراعتهم . . الأمر الذي من جرائه ارتفعت قيمة الايجارات الزراعية وتغالى الملاك تغالياً بلغ حد الفحش ، وكثيراً ما يؤدي التنافس على استئجار الأراضي الى وقوع جرائم قتل بين الأفراد .

إذن فما الداعي لاضطراب الأمن وتنافس السكان على أمر يمكن أن يُحل بأيسر السبل . وما الداعي أيضاً لإقامة هؤلاء الناس الذين ضاقت بهم الأرض في قراهم وهم لا يملكون فيها شيئاً ، وهم لا يرحلون إلى جنبات السعة والعيش الرغد بما ستفدقه عليهم تلك السهول الخصبة المترامية الأطراف من خير عميم . تلك السهول التي لا تجد من يستغلها في الوجه الذي ما خلقت إلا من أجله . ولقد كانت هذه الأراضي تُستغل من زمان بعيد إبان أن كانت الواحات تعج بالسكان . فما أيسر أن تنتقل بعض عائلات الفلاحين لاستئناف استغلالها من جديد .

ولن تكون أول الفاعلين لمثل ذلك ، فلقد خطت ايطاليا اتفاشية مثل هذه الخطوة في جرأة وحزم وعزم . عندما أرادت استعمار طرابلس استعماراً فعلياً وذلك بأن نقلت قرى إيطالية بأسرها من بلادها الأوروبية الى سهول طرابلس الافريقية للاستيطان بها ، وبدأت في تنفيذ المشروع قبل الحرب الأخيرة بقليل فهيأت بضع قرى حديثة في ليبيا وأعدت الأرض للزراعة ثم نقلت اليها عشرين الف إيطالي وإيطالية .

ولندع « المريشال بالبو » حاكم ليبيا إذ ذاك يحدثنا عن ذلك عند ما سأله أحد الصحفيين عن تطورات المشروع حتى دخل في طور التنفيذ . .

قال « المريشال بالبو » :

« خطرت لي هذه الفكرة منذ عام فقط ، وكنت إذ ذاك أقلب وجوه الرأي في السبل التي تُمكننا من استعمار ليبيا والاستفادة منها على أحسن وجه ، فبدا لي أننا إذا نقلنا قرى إيطالية بأسرها من بلادها الى سهول ليبيا لخففنا بذلك عنهم ألم الهجرة والفراق ، لأن المهاجر منهم لن يخلف وراءه في وطنه أهله ومن يحبهم من صحب ، بل سينتقل الجميع معاً ، فيحسون أنهم في وطنهم مايزالون . ورأيت أن أنقل معهم كذلك مدرستهم القروية ، وكنيستهم الصغيرة ، وكاهنها الخاص حتى يكتمل لهم « الجو » الذي ألفوه قبلاً . . في وطنهم الجديد . . !!

وقد رأيت أن ذلك العمل يمكننا كذلك من محاربة الملكيات الكبيرة ، والوقوف في وجه الحركة التي نشطت منذ حين في ليبيا ، وهي إقدام المموّلين الايطاليين على شراء مساحات هائلة من الأراضي الليبية وتركيزها في يد الملاك الكبار ، فهذا المشروع يجعل الأرض ملكاً للمهاجرين . . وكلٌّ له نصيبه . . !!

ولقد قدّرنا لكل فردخمسة وعشرين فداناً لا يؤدي عنها مالاً ، واستطعنا أن نقنع

في المواقع الجديدة أنظمة كاملة للري حتى توافرت المياه وصالت بها تلك الفياقي الساهمة ، ولم تغادر موضع بئر رومانية قديمة ، أو مكاناً يصلح لحفر بئر إرتوازية إلا والماء يسيل فيه .. وأقيمت المساكن في القرى ، كل منزل ثلاث غرف وحمام ومأوى للنعم .. وزودنا القرية بمدرسة وكنيسة وطبيب ومكتب البريد ، ومخفر للشرطة ، ولم يستغرق هذا أكثر من شهور عشرة ، كان لدينا بعدها مأوى صالح لعشرين ألف إيطالي .. »

فياحبذا لو أتيحت الحكومة المصرية مثل هذا النهج في بلاد الواحات والساحل الشمالي.. إذن لتوفر لدينا ميدان واسع للانتاج ومصدر رزق عظيم..

٢ — وثم أمر آخر يمكن استغلاله وما هو بعسير التنفيذ .. وهو أن لدينا آلافاً من الرجال خلف جدران السجون .. فاذا هناك من الضير على المجتمع إذا صُرح لهؤلاء السجناء باصطحاب عائلاتهم والرحيل بهم الى هذه البقاع والاقامة فيها طوال المدد المحكوم بها عليهم تحت الحراسة ، فيفلحون الأرض لهم وذووهم مقابل أجور معتدلة تقدر لهم تقديراً ويعطون ما يقوم بحاجتهم المعيشية ويحفظ الباقي لهم حتى إذا ما أوفوا مدة سجنهم خُيروا بين أخذ المتجمد لهم مالاً لكي يبدأوا به عملاً شريفاً بدلاً من الخروج من السجن الى التشرد وبين إقطاعهم أرضاً من التي أفلحوها أعواماً لكي تستقيم لهم سبل العيش والارتزاق مع إعفائهم من الضريبة حيناً ، أرى أن أغلبهم سيفضل الاقامة ما دامت سبل العيش والكرامة مكفولة لهم . وهل يرتكب المجرم جرائمه غالباً إلا تحت تأثير ضنك الفقر وصلصلة أغلال الفاقة .. ؟؟ ان السجن تأديب وتهذيب وإصلاح وإن هذا لخير طريق للتأديب والتهذيب والاصلاح من جميع الوجوه ..

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يمكن إدخال الدم الجديد في عنصر الواحيين بهذه الطريقة وذلك بترك حرية التزاوج بين المهاجرين السجناء والأهلين المقيمين .. !!

٣ — منع الهجرة الى وادي النيل :

فلقد أغرم أهل الواحات الجنوبية — الداخلة والخارجة — بالهجرة الى وادي النيل حرياً وراء الكسب ، ومن الغريب أن أكثر أهل بلدة ناحية يهاجرون إليها ، وصناعة يشتغلون فيها في مهجرهم دون تغيير ولا تبديل حتى أن المهاجر منهم اذا لم يجد مهنة كالتي يمتهنها أبناء قريته ظل عاطلاً الى أن يجدوا له عملاً كالذي يشتغلون فيه وإليك بيان البلدان التي يهاجر أهلوها والجهات التي يهاجرون اليها ، والاعمال التي يزاولونها .

(١) أسمنت : ويهاجر أهلوها غالباً الى الزقازيق ويعملون حمالين وحوذية

(٢) بُدخلو : « « الى القاهرة « بحي الخضيري » ويعملون حمالين وحوذية

(٣) بلاط : ويهاجر أهلوها الى طنطا والمنصورة وحلوان « ويعملون في « ممتوقدات الفول المدمس »

(٤) تنيده : ويهاجر أهلوها الى مصر الجديدة ويعملون « بوابين »

(٥) القصور : « « الى القاهرة باحياء « الغالي والسيدة زينب وباب الشعرية وشبرا « يعملون طهاة وخبازين ومنهم الآن أصحاب مخابز كبيرة في القاهرة « كمحجوب القصوري » وأصحاب مطاعم فخرة كعبد النبي سليمان بالسيدة زينب .

(٦) الجديدة : ويهاجر أهلوها الى حول جامع الكحكية وباب البحر بالقاهرة ويعملون زبالين وطهاة .

(٧) الراشدة : كالجديدة

(٨) القصر : ويهاجر أهلوها الى الحسينية بالقاهرة ويعملون في مهن كثيرة

(٩) المعصرة : « « الى قسم الجمالية ويعملون في المطاعم والمحال التجارية

(١٠) الموشية : « « الى ناحية الجامع الأحمر بكلوت بك ويشتغلون في الخانات وغيرها .

(١١) موط : ويهاجر أهلوها الى باب البحر والسويس ويعملون « جرسونات »

(١٢) الخندلو : « « الى الجامع الأحمر كالموشية

(١٣) عين القضا وعين الرخا : ويهاجر أهلوها الى بولاق ويشتغلون في صناعة الفول المدمس .

ومما يلفت النظر حقًا وجدير بالذكر أن لكل بيت تقريباً في بلاد الواحات الداخلة على الأخص مهاجراً في القاهرة خاصة وفي الجهات الأخرى عامة . وهذا المهاجر يشتغل ويرسل من كسبه الى أهله مايلزمهم من حاجيات للمعيشة التي يصعب الحصول عليها في الواحات كالشاي والسكر والقماش . وهم يرسلون إليه البلح الزائد عن حاجتهم لتصريفه . ولكل مهاجر أن يقيم في مهجره عامين يعود بعدهما الى موطنه على أن يحل محله في عمله ومهجره آخر من ذويه مدة عامين أخريين ثم يتبادلا .. ومن الغريب حقًا أن يلي كل منهما اصاحبه فيترك المهاجر أنوار المدينة ويعود الى الصحراء لكي يُعشي بلهيبها في الصيف . ويقطف عيشها وبردها القارس في الشتاء .

وأهل الواحات المقيمون في مهاجرهم ذوو وطنية فذة حقًا وكرم سائمي إذ لا يكاد يهبط الأرض التي يقيمون عليها قادم من بلادهم حتى يتبارى الجميع في اكرامه فلا يتركون له الفرصة لإنفاق درهم واحد في أية ناحية من النواحي . فان كان من طلاب الاعمال بحثوا

له عن حمل وإن كان زائراً فطلبوا منه كرماه الى أن يودعوه على رصيف محطة القاهرة ..

وثم ظاهرة أخرى تبعث على العجب حقاً إذ أنهم يتناسون أحقادهم وما هم قائم فيما بينهم من عداوات في بلادهم اذا ما جمعهم مهجر واحد . فاذا عادوا الى بلادهم عادت أحقادهم وعداواتهم تظهر من جديد فلا تنفع لها تلك الأيام التي قضوها في المهجر كشقيقين .

ولقد أفادوا من الهجرة كثيراً وخسروا كثيراً .. أما ما أفادوه فظاهر في بعض متاجرهم التي تقوم الآن في القاهرة وغيرها وأما ما خسروه فاني أورده في ثلاثة أمور :

١ — (من الوجهة الاقتصادية) :

كثرت الهجرة فقلت اليد العاملة فلم تجد الحدائق والزراعات من يتعهدها بالعمل والرعاية وكذا العيون .. فماتت أغلب الحدائق وغاضت معظم العيون .

٢ — (من الوجهة الأخلاقية) :

تعوّد الزواجي أن يتزوج ولا يبالي بزوجه إذا ما حل موعد هجرته فيتركها شابة بلا رجل مدة عامين أو أكثر . ولهذه الزوجة الشابة أحاسيسها ورغباتها التي لا تجد من زوجها الغائب ملبيًا فتضطر الى العيث مما أدى الى هدم الأخلاق هدماً لا قومة لها من بعده إلا بمعجزة .

٣ — (من الوجهة الصحية) :

المهاجر في مهجره حريص على الدرهم فكثيراً ما يصاب بأمراض خبيثة ويضن على نفسه بثمن العلاج حتى اذا ما عاد الى بلده محملاً بالأمراض الفتاكة راح يوزعها بسخاء على الزوجات اللاتي هاجر أزواجهن .. لذا فقد انتشر فقد الابصار بين الأطفال .

ولهذا جميعه ..

أرى منع الهجرة منعاً باتاً حتى يمكن التخلص من هذه التكبلات الثلاث التي منيت بها الواحات الداخلة وبعض بلاد الواحات الخارجة كقرية جناح ..

ثالثاً ﴿المواصلات﴾ :

وتلعب وعورة الطرق الموصلة للواحات جميعاً دوراً خطيراً في عدم تقدمها وسيرها نحو الرقي سواء أكان اقتصاديًا أو اجتماعيًا . ولقد لمس ولاة الأمور هذا الأمر في الفرق الشاسع بين مدينة الخارجة التي يصلها ببلاد القطر خط حديدي وبين بقية البلاد الأخرى البعيدة عنها بالواحات الداخلة بل والقريبة منها بالواحات الخارجة أيضاً فانك لتلمس فيها انتقبضين في كل شيء .

فأهل الخارجة « المدينة » يبيعون محصولاتهم أغلى من البلدان الأخرى لقربهم من محطة السكة الحديد وكل القرى سواء أكانت بالواحات الداخلة أو الواحات الخارجة تبيع

بسعر الخارجة المدينة (ناقص) تكاليف التنقل . وتكاليف التنقل الصعبة في يد المتعهدين وأصحاب السيارات لولا تدخل الحافظة في الأمر بين الحين والحين للحد من تغالي هؤلاء المتعهدين ومن على شاكلتهم من أصحاب السيارات .

غير ذلك فان أهل الخارجة « المدينة » يحصلون على حاجياتهم بأثمان أقل من البلدان الأخرى فمثلا « قمع السكر » وصل ثمنه في « باريس » وتبستين من الشعير أي أربع كيلات بينما ثمنه في الخارجة لم يتعد وقتذاك الثمانية قروش ، فاذا كان الشعير هو الرخيص فان ثمنه لن ينحط حتى يبلغ القرشين للكيلة وإن كان السكر هو الغالي فانه لن يتكافأ بأية حال مع ثمن أربع كيلات من الشعير ، وأما السر في ذلك فهو أن القرية بعيدة عن المواصلات ، والمستهلك في أمس الحاجة والتاجر يتحكم لانه هو سيد الموقف .

هذا مثل نسرقه على ما فيه حكان القرى البعيدة من غبن ولو ان الطريق الحديدي امتد بين هذه القرى اذن لارتفع عن كاهل أهليها ما يلاقونه من غبن شنيع .

ثم أمر آخر سيكون نتيجة لتيسير المواصلات وهو جعل الموظفين المنقولين لهذه البلاد لا يشعرون بأنهم من المنضوب عليهم أو الضالين . لذلك فقد تقدم الحكومة الى هذه البلدان التي لا تصلها بالعالم غير آلة التلفون المغروية في ركن من أركان حجرة العمدة ويقوم عليها خفير بندقيته كأنما ليحرسها أو ليحول دون وصول الفضوليين اليها . ولقد سمعت بنفسي طبيباً بيطريًا ينطق بالشهادتين بخشوع وتجلى عند ما سمع صفارة القطار في مرمى مطروح وكان هو قادماً معي من سيوه .

قلت له : ما السبب في هذا التعلي وهذا الخشوع . ؟؟ فأجاب إنما أشكر لربي فضله إذ أعادني الى العمران من جديد وأشعرني أني قربت من البلاد التي تنبض بالحياة . !! قلت : وفيم أشعرك . ؟؟ قال : إذ سمعت صفارة القطار شعرت أني لست من الدنيا ببعيد !!

وعلاوة على مدّ الخط الحديدي بين الواحتين الداخلة والخارجة يجب تكملة وصف الطريق الممتد بين مرمى مطروح وسيوه ، فانه طريق وعر لا يمكن اجتيازه بسلام واطمئنان : فكل سيارة تمر فيه مقتضي عليها بالعطب حتى تنتهي منه وما هو بالطريق القصير إذ يبلغ طوله ٢٩٢ ك . م . وصف منها ٤٥ ك . م

أما الواحات البحرية فهي الواحات الوحيدة التي لم تظفر برعاية كاملة ، وإني لاعتقد أن آلهة لم يظفروا من الحكومة بأية خدمة غير أذى رجال الحدود لهم وتسلطهم عليهم بحق وبغير حق ، ولكم استعرخوا فلم يجدوا مغيثاً ولا مجيباً . فليرحمهم الله هم وسكان الدوادرة لانهم ليسوا محجوبين من سكان القطر مطلقاً إذ أن هذا ما يبدو على مظهرهم وحالة بلدانهم .. !!

وواحة النرافرة هي الواحة الوحيدة في الصحراء التي كفاها الله شر تسلط رجال الحدود على أهلها فانهم نوعورة الطريق الموصل لواحتهم لا يستقبلون موظفي الحكومة إلا كل خمسة أعوام مرة إذا عن لأحد أن يذهب إليهم في عزلتهم . . ولقد ذهب أحد الضباط من مصلحة الحدود يوماً ليكي يرى ما هي هذه الواحة . . ولما أن استقر في دار العمدة سأله : ما هي آخر مرة رأيت فيها موظفاً من قبل الحكومة . . ؟؟ فقال العمدة منذ ثلاثة أعوام . . !

رابعاً ﴿ الجمعيات التعاونية تؤدي خدمات جليلة لأهل الصحراء ﴾ :

كان المفروض أن ينجح التعاون في الصحراء والواحات وتمشياً مع هذا الفرض بدأت بإنشاء جمعية تعاونية في برج العرب في عام ١٩٤٥ وقد بدأت الجمعية عملها برأسمالة جنيه وما وافى آخر العام حتى كانت الاكتتابات الجديدة والأرباح قد أبلغت رأس المال الى الآلف جنيه تقريباً وساعد معالي احمد عبد الغفار باشا الجمعية لدى وزارة الشؤون الاجتماعية فمنحتها إعانة مالية مقدارها سبعمائة جنيه . وسارت الجمعية في تحسن مطرد الأمر الذي أغرى سعادة محافظ الصحراء بإنشاء جمعية أخرى في مرسى مطروح وفعلاً نفذ المشروع ولكن الجمعية وقفت عن التقدم ولم تصادف نجاحاً . . وحار الجميع في أمر هاتين الجمعيتين فكيف أن إحداهما ناجحة والأخرى لم تصادف توفيقاً . . ولكن الأمر الذي لم يخف عليّ بإزاء ذلك هو أن الجمعية التي أسستها نجحت لأسباب أهمها . . أنها وجدت هيئة كفلت لها مورداً لا ينضب من العملاء ذوي المرتبات وقبضت على الأمر بشدة إذ كانت تقوم على طائفة من العمال فواتيها ربعمائة عامل أجورهم حوالي الآلف جنيه شهرياً وهؤلاء يتعاملون مع الجمعية بالآجل ولكن الجمعية الأخرى وجدت منافسة التجار المحليين في البيع على الآجل وليست هناك الهيئة التي تضمن دوام الحركة وتداول رأس المال . والبدوي مغرم بالشراء بالآجل وإن كان المال ملء جيوبه لأنه يأمل أن يماطل في الدفع ومن هذه خلتهم لا يستقيم بينهم حال مطلقاً . . هذا في المنطقة الساحلية . أما في الواحات فاني أرى غير ذلك — إذ لا ريب أن الجمعيات التعاونية في الواحات أمر لابد منه لانقاذ صغار الزراع من تحكم التجار الجشعين الذين لا يقف جشعهم عند حد . إذ يأخذون محصولاتهم منهم بأبخس الأثمان ويبيعون لهم حاجياتهم بأسعار جاوزت حد الإرهاق وهم تحت ضغط الحاجة الملحة لا يستطيعون الرفض

وإن الجمعية التعاونية لتستطيع تصريف محصولاتهم بأمانة وبأثمان عالية ، وفي نفس الوقت تستحضر لهم حاجياتهم بأسعار لا تقبل المزاحمة . فتصبح فاذا هي بمثابة ميزان للتجار الجشعين الذين لا يحيدون عن استغلال الظروف القاسية التي يقع تحتها المستهلكون . وفي نفس الوقت تنقذ الأهالي من براثن المرابين الذين يفتكون بصغار الزراع ويمتصون دماءهم حتى

يقصوا في أغلال الافلاس والفقر والفاقة إذ أن الجمعيات التعاونية ستقرض المحتاجين بفوائد زهيدة القيمة . وعلى هذا يمكن أن يستقيم الحال .

خامساً : ﴿ إنشاء واحات جديدة ﴾ :

ولربما كان غريباً أن أتقدم بمثل هذا الاقتراح . ولكن إذا اتضح أن هنالك مساحات واسعة النطاق تقع فيما بين الواحات الخارجة والواحات الداخلة تقدر بمئات الألوف من الأفدنة الجيدة التربة . خصوصاً عند النقطة المعروفة « بأبي منقار » التي تتوسط سهولها المستوية المسافة بين الواحتين .. إذاً لما كنت مغرباً فيما أقدمه من اقتراح ولانضم إلى رأي كثيرون خصوصاً وأن كل الوسائل مهيأة . فالماء يسهل الحصول عليه . والسهل منبسط عظيم . أما الايدي العاملة ، فأرى أن تخصص لاستعمار هذه السهول طائفة من العائلات الفقيرة التي سيجري ترحيلها أو السجناء الذين سينقلون لهذه النواحي .

وفي المسافة بين واحة باريس .. وواحة بولاق بالواحات الخارجة سهل آخر لا يقل عن سابقه خصباً وانبساطاً . فلو أنشئت القرى في هذه السهول وأخرجت العيون بماء الري لعم النفع وازدادت ثروة البلاد

سادساً : ﴿ تحسين وسائل الزراعة ﴾ :

ان في الطرق المتبعة في الزراعة في هذه المناطق لعقماً وإجهاداً لا يأتي بما يستحق من نتائج فالفلاح يقلب الارض لزراعة المحاصيل بساعديه بواسطة فأس ثقيل مجهد في العمل يسمى « الطورية » أما المحراث فانهم لا يعرفونه ولربما عرفوه ولكنهم لم يستسيغوا العمل به لأنهم تعودوا ذلك من قديم الزمان . فالفدان الذي يكلف الفلاح المصري يوميز لحرثه وإعداده للزراعة يستغرق من الفلاح الواحي عدة أيام ولهذا السبب تراهم لا يتوسعون في الزراعة . فان قوى سواعدهم وحدها لا تكفي الا لفلاحة هذا القدر اليسير من الارض ولو أدخلت آلات الحرث البلدية والافرنجية واستغلت القرى الحيوانية والبخارية ودُرِّبوا عليها لاستطاع هذا العدد من الرجال انتاج أضعاف ما ينتجه الآن بقوة ساعده .

ولو علم القارىء أن الفلاح السيوي يضطر لملوحة أرضه أن يقلب التربة الى عمق كبير لكي يهيىء مهاداً أقل ملوحة للبزور التي سيزرعها — وان هذا العمق يزيد عن المتر . إذن لعلم إلى أي حد يجهد هذا المسكين نفسه في سبيل الحصول على لقمة الخبز ليس إلا .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فان تمحهم وأرزهم وشعيرهم يدوس بحوافر الماشية فينتج عنه حب ملوث وتبن لا يصلح لغذاء الحيوانات وبذلك يضيع المجهود بين أرض لا تعطي ومحصول رديء النوع والسبب كله واضح للطرق البدائية التي يعملون بها .

ويجب أن يراعى تغيير الأنواع الموجودة لديهم الآن من الحبوب إذ أنها خليط من أنواع منحطة الصفات فلو أبدلناها بغيرها من الأنواع الجيدة الصفات الحديثة لجاءت بغلة وافرة .

وكذلك يجب إدخال زراعات أخرى جيدة مما ثبت نجاحه بالتجارب في وادي النيل سابعاً : ﴿زراعة الغابات﴾ :

ليس من الضروري أن تشغل جميع هذه المساحات بزراعة المحاصيل الحقلية المعتادة ففي زراعة أشجار الفاكهة مجال كبير وفي زراعة الأشجار الخشبية مجال أوسع ، ولا شك أن الجميع قد لمسوا حاجتنا الى الأخشاب عند ما حالت الحرب الأخيرة بيننا وبين ما يرد منها من الخارج فلو ان هذه المساحة استغل جانب منها في زراعة الأشجار الخشبية لأمكن أن تسد حاجة القطر بعد سنوات قليلة ، وليس ذلك فحسب بل ويمكن تصدير الفائض منها للبلاد الشرقية الأخرى . وزيادة على ما تقدم فإن وجود مساحات من الأشجار العالية الوارفة الظلال أمر لا ريب يعمل على تلطيف حرارة الجو الى حدّ كبير في فصل الصيف فيمكن الاقامة في ربوعها دون عناء .. ولا جدال في أن مساحات كثيرة ستنشأ بجوار زراعة الغابات .. وكذا يمكن استغلال الغابات في صيد الطيور إذ أنها ستتجأ اليها في تلك الربوع الفاحلة التي ستأوى اليها أيام الشتاء خاصة وسيكون فيها مجال لا بأس به لتسلية الهواة وارتزاق المحتاجين ..

ثامناً : ﴿الثروة الحيوانية﴾ :

ان أكثر الحيوانات عدداً في بلاد الواحات هي الأبقار والماعز ، ثم الأغنام وهي التي يرغب فيها الأهالي . على أن الموجود منها من سلالات غير جيدة فذيعة لم يطرأ عليها أي تحسين في النوع .. فالأبقار قصيرة القامة رديئة التركيب علاوة على ما بها من الضعف والهزال ولقد اكتسبت هذه الصفات المنحطة بالتوارث على مر الزمن . ويرجع عدم تحسين صفاتها لأسباب كثيرة منها :

١ — بُعد البلاد عن العمران ، وصعوبة المواصلات التي يتعذر معها استيراد المواشي الجيدة من بلاد وادي النيل لتحسين السلالات المحلية بالواحات فكثيراً ما تتفق الماشية في الطريق وليس هناك من يجرؤ على تكبد نفقات يرى ألا جدوى من ورائها ولا نفع ..

٢ — عدم تغذيتها التغذية الكافية لقلة المراعي والحاصلات الزراعية والحبوب الفائضة عما يتطلبه الانسان لغذائه هو .. وإن ما يزرع من البرسيم لقليل بالنسبة لعدد المواشي والحيوانات الأخرى التي تتغذى عليه ، كما أن المواشي لا تجد ما يكفيها من المؤونة خلال

الصيف غير تبن الشعير والقمح مع قلة مايتتج منه علاوة على عدم اعطائها أي نوع من الحبوب المركزة مثل الفول الذي لا يزرع في هذه البقاع إلا خضاراً فقط .

وأما الماعز فانه ليكثر في الواحات لرخص ثمنه ، وقلة تكاليفه وهو من النوع الأسواني البشاري الصغير الحجم ولبنه قليل لا يكفي أكثر من نتاجه .

والأغنام لا يربى منها إلا النوع الصعيدي القصير القامة الرفيع الذنب القصير الشعر وترجع قلة الأغنام بالواحات لقلة المراعي أيضاً .

ولكي نحسن مستوى هذه الأنواع يجب تطعيمها بدم جديد من سلالات جيدة من الأبقار البلدية والجاموسية والأغنام الأوسيمي والماعز البلدي وتوزع الأنواع الجيدة على القادرين على تحمل نفقات تغذيتها أولا ثم على الآخرين . . وإن ذلك ليتطلق تعلقاً ملموساً بتحسن الزراعة لايجاد المراعي والعلف اللازم لهذه الحيوانات .. !!

تاسعاً : ﴿ منح الأهالي حق التملك ﴾ :

لم يمنح القانون أهل الصحراء جميعاً حق تملك الأرض وإنما جعل لهم الانتفاع حقاً موروثاً على أن الحكومة اذا شاءت أن تأخذ قطعة أرض من أحد الأهالي انتزعتها منه بغير مقابل من الثمن إلا لما يقوم عليها من أشجار وبناء ..

وهذا أمر يضعف الرغبة في التوسع في الزراعة والإصلاح ، فكيف يصلح اليوم ما هو غير واثق من بقائه في قبضة يده، والإصلاح يكلف نفقات باهظة . . لذا فإني أرى منح الأهالي حق التملك للاراضي الواقعة في حيازتهم كما هو الحال في وادي النيل على ألا يجوز البيع إلا لمصري وطني وليس للاجانب حق امتلاك أرض في الصحراء، وكل بيع يقع بين وطني وأجنبي في الصحراء باطل ويخول للحكومة الاستيلاء على الأرض مع حرمان البائع والمشتري من جميع الحقوق فيها .. وبهذا نصل الى القصد من عدم إعطاء حق التملك للبدو وهو الحد من شهوة الشراء عند الاجانب في أراضي الصحراء وفي نفس الوقت ندفع الملاك على الاصلاح والتوسع في الزراعة .

عاشراً : ﴿ ماء الفيضان ﴾ :

ان المتجول في ربوع الواحات الخارجة بين بولاق وباريس يرى تلالا طمية هي من نفس التربة التي تتكون منها الجزر النيلية . وأكبر الظن أن هذه التلال آثار ترسب قرين النيل في العصور القديمة فلا ريب أنها كانت تظفر بالكثير منه فماذا علينا إذا حققنا في جوف الصحراء ترعة كبيرة من عند نجع حمادي لكي تنقل الماء الذي يذهب سدى في البحر الى هذه المنخفضات للانتفاع به في مرافق الزراعة والانتاج .. ولعل في ذلك منافع

أخرى كإمكان توليد القوى الكهربائية عند مساقط الترعة وهي منحدرة الى منخفض الواحات كما هو الحال في واحة الفيوم وبحر يوسف .. !

وأخيراً أرجو ألاّ يستكثر قارىء هذه البنود العشرة على أهالي الواحات والصحراء تمشياً مع ما نقشه الرومان على صخور آثارهم بالواحات من قولهم « أهل الصحراء كثيرو الشكوى ناكرو الجميل » فإن تنفيذ هذه المشروعات سيعود على البلاد جميعها بالخير العميم وسينتفع أهل الصحراء ضمن المنتفعين .. فهذه ثروة قومية وكفى .. !!

معلومات عامة

١ — المكاييل المستعملة في الواحات :

ا — في سيوه : الصاع = $\frac{3}{4}$ الكيلة

ويزن صاع الزيتون الطازج : $2\frac{1}{4}$ ك . ج .

« « البلح الصعيدي : $2\frac{1}{2}$ ك . ج .

« « « القريمي : $2\frac{3}{4}$ ك . ج . في بدء الموسم

و $2\frac{1}{2}$ ك . ج . في نهاية الموسم أي بعد الجفاف . .

ويزن صاع البلح الغزالي : ٣ ك . ج في بدء الموسم و $2\frac{1}{2}$ ك . ج . بعد الجفاف

والميشة = ٤ صيعان

والغدارة : (مكيال للسوائل) = ٤ قُرب .. والقربة وزنها $\frac{1}{2}$ أقة .

ب — في الواحات البحرية : الصاع = $\frac{1}{2}$ كيلة

ج — في الواحات الداخلة : الوبية = $1\frac{1}{2}$ كيلة أي ثلاثة أرباع مصري .

والوبية = ١٠ ميشات

والميشة = ٤ أرطال .

د — في الواحات الخارجة : الوبية = ٢ كيلة وذلك في مدينة الخارجة والمحاريق . أما في بولاق وجناح وباريس فالوبية كالداخلة

٢ — الموازين المستعملة :

ا — في سيوه : الأقة .. أما الواحات الأخرى فالرطل .. !!

٣ — الاصطلاحات النقدية :

في سيوه : فرينو : $2\frac{1}{2}$ قرش

بحليقة : $\frac{1}{2}$ قرش وهذه اصطلاحات أُخذت من البدو الذين يختلفون

اليها كنيا . أما الواحات الأخرى فهي كبلاد القطر ..

٤ — التعامل : الأساس في التعامل بجميع الواحات في البيع والشراء أن يحدد السعر على أساس الكمية فالمقدار ثابت ولكن الثمن هو الذي يتغير .. إلا سيوه فإن الثمن هو الثابت القيمة والمقادير هي التي تتغير ، والوحدة في التعامل هو الريال ومثال ذلك إذا أراد أحد الأهلين شراء شيء سأل البائع « كم بريال » . ؟؟

٥ — أسعار اللحوم قبل الحرب :

النوع	سيوه	البحرية	الداخلة	الخارجة
الضأن :	١٢ : ١٠ الأقة	٣ر٥ الرطل	٣ر٥ الرطل	٣ر٥ الرطل
عجالي :	٨ : ٩ «	٢ر٥ «	٢ر٥ «	٢ر٥ «

البيض . كان يباع في سيوه من ٤ : ٦ بقرش وفي الواحات الأخر من ٨ : ١٠ بقرش

٦ — الطيور :

	الحمام بالزوج	الدجاج البلدي	الرومي الذكر	الرومي الأنثى	الأوز
سيوه	٦ : ٥	٦ر٥ : ٧ر٥ الواحدة	—	—	لا يباع
البحرية	٥ : ٤	٦ : ٤ «	٣٥ : ٢٠ الواحد	١٥ : ١٢ «	
الداخلة والخارجة	٣	٦ : ٥ «	٢٥ : ١٥ «	١٢ : ٨ «	

تعداد السكان

حسب ما جاء بالاحصاء الرسمي الذي أجري سنة ١٩٣٧

اسم البلد	جملة	إناث	ذكور
مرغيب وعبد القادر والمكسوارية	١٤٢١	٧١٣	٧٠٨
العامريّة	١٢٩٦	٦٥١	٦٤٥
أم زعيبو وسيدي كرير والهوارية	١١٧٠	٥٧٧	٥٩٣
إيكنجي مربوط والدريسة	٧٤٦	٣٠٩	٤٣٧
بهيج	١٣٥٦	٦٧٥	٦٨١
برج العرب	١١٩٠	٥٥١	٦٣٩
الحمام والغربانيات والمسفرة	٢٠٣١	٩٤٢	١٠٨٩
سيدي عبد الرحمن وغزال	٦٨٥	٣٠١	٣٨٤
العجمي والدواع البحري والدير	٧٠٤	٣٢٦	٣٧٨
العميّد والعلمين	٢٣١	١١٥	١١٦
جملة مربوط في تعداد ١٩٣٧	١٠٨٣٠	٥١٦٠	٥٦٧٠
« « « ١٩٢٧	١٦٥٦٣	٨٧٥٢	٧٨١١

يلاحظ أن تعداد السكان قد نقص في الفترة بين ١٩٢٧ — ١٩٣٧ ، حوالي الثلث وذلك لهجرة البدو من الصحراء الى الوادي في السبع سنوات القحط التي انحصر بين ١٩٣٠ و١٩٣٨ وعدم وقوع زيجات بين من ظل منهم في الصحراء لضيق ذات اليد وعدم الحصول

ومن طريف اصطلاحاتهم أن يقولوا على من يموت بغير القتل فلان ضاع بدلاً من فلان مات وذلك لموته ميتة طبيعية ولم يحصلوا من ورائه على دية. و(الولية) أي الزوجة ضاعت والحق في رقبتها .. أي أنها ماتت ولم يأخذ وليها لأنها لم تقتل ولم تطلق فلم يأخذ المهر الذي دفعه فيها .

الإسكندرية
البحر الأبيض المتوسط
نيل أولاد على
البحيرة
مريوط

تعليقات وشروح

(١) أنظر باب الحياة الاقتصادية قسم الزراعة (المناطق الجدباء)

(٢) الغرود : وتعرف بسافيات الرمال . وهي عبارة عن تلال رملية تنتقل مع الرياح من مكان الى مكان ، وتُغير على الدروب فتمحوها وعلى الأرض الزراعية فتحجبها وعلى العيون ومنابع المياه فتطمرها وقد اتُبعت في ايقافها سبل شتى منها زراعتها بالعبل أو الزراعة في شمالها وغربها ومن النباتات التي تصلح لايقافها (١) Acacia Seligna (٢) Acacia Cyansepiylle (٣) Tamarix (٤) Jpamea (٥) نخيل الباها Lporsbalus ويتكاثر بالعقل (٦) التين الشوكي Opantia وغير ذلك من النباتات التي تصنع جذورها شبكة سطحية تعوق تحرك هذه الرمال .

ولقد أضرت الغرود بقرى كثيرة في الواحات أهمها قرية الزيو بالواحات البحرية والموشية بالداخلة وتعتبر آفة الأراضي الزراعية بتلك المناطق .

(٣) منخفض القطارة : يقع منخفض القطارة في الجزء الشمالي من صحراء ليبيا المصرية في منتصف المسافة بين وادي النيل والحدود المصرية الغربية ، وتبلغ مساحته (١٩٥٠٠) كيلو متراً مربعاً ، وهذه المساحة تقارب مساحة الوجه البحري والبحيرات التي تقع في شمالي الدلتا ، ويبلغ متوسط عمقه ستين متراً ، ويأخذ انحداره نحو الانخفاض الى أن يبلغ أعمق أجزائه ١٣٤ متراً ، وهو بعد أعمق بقعة عرفت حتى الآن في أفريقيا .

(٤) أولاد علي : هم سكان الصحراء الليبية المصرية وينقسمون قسمين : أولاد علي الأبيض وهم القاطنون في المنطقة التي بين الاسكندرية والضبعة ، وأولاد علي الأحمر : وهم القاطنون بين الضبعة والسلوم . (انظر الفصحة التاريخية)

(٥) أغورمي : بلد أثري في سيوه وبه معبد آمون ، وهي أقدم من مدينة الاسكندرية فقد زارها الاسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق . م . وكانت في ذروة مجدها يؤمها كل قاصد من البلاد الأجنبية لزيارة المعبد والاسكندرية لم يتم تخطيطها بعد . ولقد تهدمت الآن وقامت على أنقاضها أغورمي الجديدة وظلت الأولى عامرة بالسكان الى ما بعد الفتح الاسلامي .

(٦) الزيتون : عزبة صغيرة تبعد عن سيوه ثلاثين كيلومتراً لجهة الشرق وكانت مملوكة لجماعة السادة السنوسية ولكن الحكومة اشترتها منهم عام ١٩٣٧ م .

وأما المراقي : فهي اقليم يقع غربي سيوه على مسيرة خمسة وعشرين كيلومتراً . وتدعى

المراغي أو مراقيا . وكانت ذات شهرة تاريخية فائقة . وقد قال المقريزي في ذلك «مدينة مراقيا كورة من كور مصر .. وهي آخر حدود أراضي مصر وفي آخر أراضي مراقية تلي أرض انطابلس (برقة) وبعدها عن مدينة صنترية (سيوه) نحواً من بريدين (وقدر ذلك أربعة وعشرون ميلاً) وكانت قطراً كبيراً به نخل كثير ومزارع ، وبه عيون جارية وبها الى اليوم بقية وثمرها جيد للغاية ، وزرعها إذا بذر نبت من الحبة الواحدة مائة سنبلة ، وأقل ما ينبت تسعون سنبلة وكذلك الأرز بها فإنه جيد زاكٍ ، وبها الى اليوم بساتين متعدّدة ، وكانت مراقيا في القديم من الزمان يسكنها البربر الذين نفاهم داود عليه السلام من أرض فلسطين فنزل بها منهم خلائق ومنها تفرقت البربر فنزلت زناته ومقيلة وحريسة الجبال ونزلت لواتة أرض برقة .. الخ .. فلما كان في شوال عام أربعة وثلثمائة من سني الهجرة المحمدية سنة ٩١٦ ميلادية جلا أهل لوبية ومراقية الى الاسكندرية خوفاً من صاحب برقة ، ولم تزل في اضمحلال إلى أن تلاشت في زمننا »

وأما خيسة فهي مزارع خصبة تقع بين مراقيا وسيوه وتعتبر أكبر مزرعة للزيتون في سيوه .

(٧) الأراضي البور في الصحراء : مقسمة بين العائلات تقسيماً عرفيًّا فلكل عائلة أو قبيلة القطعة الفلانية تنتفع بها فاذا ما جاء فيها مشروع عام كان أبناء هذه العائلة أو القبيلة هم الأحق بالانتفاع به قبل سواهم . هذا مع العلم بأن أراضي الصحراء جميعها ملوكة للحكومة وليس للأهالي في ملكها من فائدة غير حق الانتفاع بها فقط واذا أرادت الحكومة أخذها منهم لا تعوّضهم إلاّ عن القائم فوقها من زرع أو شجر إن كانت ذات زرع أو شجر . أما الأرض ذاتها فلا حق لهم في المطالبة عنها بشيء مطلقاً .. !!

(٨) القفيز : مكيال يساوي ثلاثة أعشار الكيلة في سيوه ونصفها في الواحات البحرية

(٩) العاقول : عشب شوكي معمر ، تتساقط على أوراقه نقط صلبة تعرف باسم (من الاسرائيليين) أو (المن الناري) وتستعمل أوراقه مدرّة للبول ، كما تستعمل أزهاره الحمراء مدرّة للبول وملينة .. وهو ينمو جيداً بالأراضي السبخة ، ويستعمل في سيوه لتسميد الأشجار خصوصاً الزيتون اذ يدفن في خنادق بحول الجذع فيتحلل ويصير دوبالاً ، وكانت مساحاته الواسعة التي لا يملكها أحد ، تباع بالمزاد العلني بين الأهلين ، بواسطة بيت المال وذلك قبل فتح محمد علي باشا لسيوه، وكانت تدفع من المتحصل من ثمنها أجور الرقاب ومؤذن المسجد العتيق والصقي العمومي وغير ذلك. أما الآن فلكل عائلة أن تنتفع بما ينمو حول زراعاتها منه أو تؤجر من يستخرجه من الأراضي البعيدة التي لا يملكها أحد .

(١٠) تقدر المساحات في سيوه بحساب الحوض الذي يساوي $\frac{1}{24}$ من الفدان .

(١١) الخطايا : جمع خطية .. ومعناها الحوية .

(١٢) أنظر (٦)

(١٣) باريس : قرية صغيرة تقع جنوبي الخارجة المدينة على مسيرة ٩٠ ك م. منها وهي أقدم من باريس العاصمة الفرنسية ، وبها آثار كثيرة .

(١٤) الحاريق : قرية صغيرة خربة شمالي مدينة الخارجة على مسيرة خمسة عشر كيلو متراً منها وكانت منفى المجرمين من المصريين قبل عام ١٩٢٠ م .

(١٥) القيراط : من الماء : هو المقدار الذي يكفي لري خمسة أفدنة شتاء وأربعة أفدنة صيفاً وعلى أساس القيراط يدفع الأهالي الضرائب للحكومة بحساب القيراط خمسين قرشاً .

(١٥م) رئيس الدواليب : رجل من أهل الواحات يعين في هذه الوظيفة التي غالباً ما تتوارثها عائلة واحدة في الواحات الداخلة والخارجة معاً .

(١٦) الساعة الرملية : تعتبر الساعة الرملية من أقدم ما استعمل لقياس الوقت . وهي عبارة عن قارورتين من الزجاج متصل رأس الواحدة منهما بالأخرى ، وفي إحداهما رمل وبينهما ثقب رفيع ينسرب الرمل منه ، إذ تجعل ذات الرمل في أعلا ، فينهال الرمل منها الى السفلى ، بحيث متى فرغ الرمل من العليا يكون قد مضى ساعة من الوقت ، فيعكس وضعها . ويرجع الرمل ينسرب الى الأخرى . وهلم جرًّا .

ولا يُعرف أصل منشأ هذه الساعة ، غير أن المؤرخ بيروس الكلداني ذكرها عام ٥٤٠ ق . م. وبذلك تكون قد عُرفت في زمانه ، على أن هذه الساعة لا تفي بالغرض المطلوب تماماً وذلك لشدة تأثر الرمل بالرطوبة .

(١٧) موطن قاعدة مركز الواحات الداخلة .

(١٨) الساعة المائية : تعتبر أول ساعة استعملت فيها قوة الصناعة ، ويقال إنها استعملت في الصين وبلاد آشور ومصر ، قبل استعمال الساعة الشمسية — المزولة — على أن حقيقة نشأتها مجهولة أيضاً ، وكانت في أول الأمر تجعل على طريقة سهلة المنال ، وذلك بأن يرضع مقدار من الماء في إناء شفاف ، منقوب من أسفله وعلى جدار الإناء علامات تفيد القياس ، فإذا ما أخذ الماء في التناقص ، قُدِّر الوقت على حسب العلامة التي وصل اليها ، وكان هذا النوع من الساعات مستعملاً في مصر في عهد البطالسة ، فأدخل عليه كتيسيبيوس أحد علماء الاسكندرية عام ٢٣٥ ق . م . اصلاحاً جليلاً إذ جعل الماء ينصب على دواليب تدور به ، ومنها تنتقل الحركة الى قاعدة صغيرة تظهر بشكل الماء من تحتها ،

وتأخذ في الارتفاع تدريجيًا مع ارتفاع سطح الماء ، مشيرة الى العلامات التي تقدر الوقت — ومخططة بشكل مضبوط — بعصى صغيرة ممدودة خارجة منها كالمنور .

وبعد انحطاط الدولة الرومانية انتقل استعمالها الى أوربا وقد اتقن الأقدمون في هذا النوع من الساعات .. والساعة المائية المستعملة ، بالداخلة تشبه الساعة الرملية المتقدمة الذكر غير ان جدار القارورتين مقسم الى ستة أقسام في كل منهما أي انها تقدر الوقت لست ساعات ثم ينعكس الوضع فتعد لست ساعات أخر ، وبذلك يجري العكاس وضعها أربع مرات في اليوم والليلة .

(١٩) المعجاج : عواصف رملية تقوم بالصحراء يسميها البدو كذلك

(٢٠) السكراس : انخفاضات مغلقة بالصحراء مليئة بالملح والتربة الخفيفة .

(٢١) المملكة البحرية : هي مملكة الوجه البحري إحدى المملكتين اللتين كانتا تقومان بأرض مصر ، التي كانت تدعى في ذلك الحين « أرض القطرين » البحري والقبلي وكان ذلك قبل حكم الأسر الفرعونية ، وقبل أن يعتلي « مينا » الملك الأول في العالم العرش .

(٢٢) سيزوستريس : ثاني ملوك الأسرة الثانية عشرة الذي حكم البلاد حتى عام ١٩٣٥ ق . م .

(٢٣) عودة المنحنب الأول من الشلال : ويقول أحمس بن إبانا بحار جلالته والفخار يملأ نفسه أنه بمهارته وذكائه تمكن من توصيل جلالة الملك المنحنب الأول من الشلال الى مصر في مدة يومين .

(٢٤) سكان البحر الأبيض المتوسط ، هم القرصان والمتيمون بالجزر الواقعة فيه .

(٢٥) هنا واحة سيوه والواحات البحرية .

(٢٦) حلفاء ملك الليبيين : كان هؤلاء الحلفاء مكونين من « سردينيين Sharden » و « شكالاشيين Shekkesh » و « صقليّين وآشيين » أو « الليبيين » المعروفين باسم « Ekwesh » وهم الذين سطوا على مصر في عهد المنحنب الثالث . و « أتركيين Etruscans » أو « Tyrsenians » المعروفين على الآثار باسم « ترش Teresh » وهؤلاء الأقوام أقدم من أتوا الى مصر من أوربا ، وكانوا ينهبون البلاد بالسطو وقد ورد ذكرهم في نصوص عهد المملكة الوسطى .. ولكنهم ليسوا أول الأوروبيين الذين أتوا الى مصر لأن المعروف عنهم أنهم عبروا البحر الأبيض المتوسط كثيراً فيما مضى ، وإليهم يعزى أصل الليبيين البيض البشرة ، ويظهر من عدد الأسرى والقتلى الذين أصيبوا من جيش الليبيين في معركته مع منفتاح أن عدد المحاربين كان لا يقل عن عشرين ألف مقاتل .

(٢٧) الأسرى عند قدماء المصريين : كان لهم مصائر ثلاثة : فإما أن يقتلوا وإما أن تقطع أيديهم ويتركوا . وإما أن يوسموا كعبيد في المعابد .

(٢٨) مكانة آمون في الحكومة المصرية : لقد تدخل آمون في شؤون الإمبراطورية أيام « حتشبسوت » و « تحوتمس الثالث » فالملك الأخير عرش مصر بكف « حتشبسوت » إقامة المحلات وإرسال البعثات الى الصومال لاحضار الخيرات له ، لكن هذا التدخل حصل بصفة استثنائية ، فلم يكن مطرداً ولا كثيراً ، فلما تولى « حريحور » الحكم تدخل هذا المعبود في شؤون الدولة بشدة لدرجة تحتم مشورته في كل أمر من أمور المملكة ، فالأمر الذي يوافق عليه آمون ، كان يحرك له رأس تمثاله إلى الأمام بقوة ، ويشفع ذلك بالنطق الآلي ، وزاد تدخل آمون مصادرة وصايا ومواريث أفراد الأسر لرؤساء كهنة آمون تحصل بناء على طلب هذا المعبود ، وعهد الكيفية الفصل الأمور الأهلية بالصبغة الدينية . .

(٢٩) تل بسطا : عاصمة البلاد المصرية في عهد الأسرة الثانية والعشرين الليبية وقد اختطها « شيشنق الأول » مؤسس الأسرة الليبية ، وموقعها شرقي الدلتا في الجانب الشرقي لمدينة الزقازيق حاضرة مديرية الشرقية ولا تزال بقية من أطلالها الى الآن وهي معمورة من الطين : .

(٣٠) مانيثون Manethon أو مانيثيرس : كاهن عين شمس ، وكان مصري الجنس ، عاش في حكم بطليموس الأول ، وهو أول مصري وضع باليونانية كتاباً عن ديانة قومه ، ثم وضع كتاباً آخر عن تاريخ الفراعين .

(٣١) الواحة الكبرى : هي الواحات الخارجة . .

(٣٢) فرطنيوم : Paretonium أو أمونيا Ammonia : ودُعيت أمونيا إشارة لعلاقتها بمعبد آمون المقدس ، وكانت مدينة عظيمة تابعة لمصر سياسيًا وموقعها على شاطئ أفريقيا الشمالي . وكانت هذه المدينة في الغرب ، و « فلوسيوم » في الشرق تسميا « قنطرتا مصر » وقد صاغ الشعراء من اسم المدينة « نعتاً Paretonius » لاستعماله في معنى عام للدلالة على كل ما هو مصري ، وتعتبر ميناء (واحة سيوه) حيث كان الذاهب الى المعبد يبحر إليها ثم يبدأ رحلاته على الإبل عبر الصحراء الى سيوه ، وكثيراً ما كان القورونيون والأنازقة يسلكون هذا الطريق الذي سلكه الاسكندر المقدوني ، وقد اتخذتها « كليوبترا » محطًا لفرارها هي و « أنطونيو » وكانت تدير دفة القتال ضد « أغسطس » فيها ، وهنالك لا تزال بقية من حمام « كليوباترا » الذي أنشأته لكي تقف بين أمواجه بزورقها حيث يحلو القول بين زرقة مائه الغريبة اللون وزرقة السماء الصافية الأديم . . وقد اتخذها الرومان حاضرة للصحراء

الغربية أبان حكمهم لمصر ، وكان أقليمها متاخماً لأقليم مريوط وما لبث أن انضم إليه لفقر الأول . وفي عهد الامبراطور «جستنيان» تم تحصينها حيث تقرر جعلها نقطة أمامية في خط الدفاع عن مصر إذا حدث هجوم من الغرب — كما كانت إبان الحرب الأخيرة — إذ هي مرمى مطروح .. !!

(٣٣) معبد آمون بسيوه : في عام ٥٨٨ ق . م . تولى « أبريس الأول » رابع ملوك الأسرة السادسة والعشرين . . فعين على الجزء الشمالي من الصحراء الغربية حاكماً يدعى « وح إب رع نوفر ... Wahibranofar » وهذا الحاكم أسس معبداً في الجزء الشمالي من مقاطعته يرجح أنه «معبد آمون» الموجود في « سيوه » ولو أنه لم يرد نص صريح على ذلك .. إلا أن الروايات التاريخية تشير إلى أنه قد شيد في المقاطعة الشمالية من الصحراء الغربية معبدان أحدهما عين موقعه بالضبط ، وهو الذي عاده «أمازيس» خلف «إبريس» في الواحات البحرية ، والثاني لم يعين موقعه .. وحيث أن معبد آمون في سيوه ، أحد المعبدين اللذين أقيما في القسم الشمالي من الصحراء الليبية ، فلا بد أن يكون هو الذي أقامه عامل « إبريس » وثمة دليل آخر نقيمه على صحة ما نقول « وهو مطابقة طراز المعبد القائم بين خرائب « أغورمي » لطراز أبلية ذلك العصر »

(٣٤) قورينا : Cyrena إحدى مدائن خمس شادها الإغريق في ولاية برقة الافريقية وبرقة هو الاسم الذي أطلقه العرب على ولاية في شمال أفريقية اسمها «قورنيقة Cyrenaica» نسبة الى « قورينا Cyrena » وكان الجزء الشمالي منها يعرف عند العرب باسم « بنطابوليس » أو « إبطابلس » Pentapolis أي المدن الخمس .. إذ اللفظ اليوناني Penta معناها خمسة و Polis معناها مدينة ..

أما هذه المدن الخمس فهي : (١) هسبريس Hesperis (٢) برقة Barca (٣) قورينا Cyrena (٤) أفولونيا Apollonia (٥) طوخيرا Teuchira أو أرسنوي Arsinoe وكانت « قورينة » أقدمها وأكبرها وأزهاها وأعمرها وقد أنجبت كثيرين من الفلاسفة والشعراء والقواد العظام ولها تاريخ طويل أخصه علاقتها بمصر في عصر البطالمة . . وكان مكانها على الجبل الأخضر ولا تزال آثارها باقية الى اليوم .

(٣٥) بطليوس : هو بطليوس بن لاجوس . . وهو قائد اغريقي رافق الاسكندر في سفرته الى سيوه وكان أحد قواده وهو بطليوس الأول الذي كانت مصر من نصيبه .

(٣٦) استرابو : Strabo : جغرافي إغريقي ولد في عام ٦٣ ق . م . وقد كتب عن كثير من البلدان في الممالك القديمة .

(٣٧) المسعودي: مؤرخ عربي توفي في سنة ٣٤٦ هـ. ٩٥٧ م. وهو صاحب كتاب مروج الذهب، وقد كتب في وصف آثار الاسكندرية ما اعتبره مؤرخو الافرنج مصدراً وثيقاً.

(٣٨) برقة: يطلق اسم برقة الآن على الاقليم الشرقي الشمالي من طرابلس وهو المتاخم لحدود مصر الغربية وقديماً كانت إحدى مدن قورنيقة.

(٣٩) كانت أول مدينة من جهة برقة هي «بانورموس» ويليها «قطابثموس» و«سيلنوس» و«برطنيوم» أو «أمونيا» وكانت هذه قصبة الاقليم ومقر الحكم، ويليها شرقاً «هرميا» و«لوكاسيس»

(٤٠) بونطابولس: أنظر (٣٤) تعليقات

المصادر

ديانة قدماء المصريين	للعلامة إسْتِنْدرُف الالماني
تاريخ مصر من أقدم العصور الى الفتح الفارسي	لبرستد
فتح العرب لمصر	لبتلر
مصر في قيصرية الاسكندر المقدوني	للاستاذ اسماعيل مظهر
بداءة عهد البطالمة	» » »
تاريخ مصر الى الفتح العثماني	
» » من عهد المماليك الى نهاية حكم اسماعيل	
خريدة العجائب	لابن الوردي
تاريخ مصر	لابن إياس
الاعتبار بواسطة عقد الامصار	لابن دقاق
الخطط	للمقريزي
مروج الذهب	للمسعودي
سيوه	لبلجريف
واحة سيوه	للدكتور حسين علي الرفاعي
الاشجار الخشبية	للمرحوم الأستاذ ابراهيم عثمان
النباتات الطبية والعطرية « تحت الطبع »	للاستاذ عز الدين وهاد
دائرة المعارف الاسلامية	للبستاني
» » البريطانية	
» » الفرنسية	
تقارير عن مياه الشرب المصرية	للدكتور أوديان
مجلة فلاحة البساتين	
» الفلاحة	
المجلة الزراعية المصرية	

نشرات المجمع المصري للثقافة العلمية

« قسم البساتين

مذكرات وأبحاث المؤلف الخاصة خلال إقامته بالصحراء

رواية الشيخ الطيب مسلم فقيه سيوه

مخطوط تاريخ سيوه للمرحوم الشيخ عمر مسلم ..

بعض مقالات متفرقة في الصحف

ازهار مربوط } البروفسير أوليفر
صانيات الرمال }

فهرس

	صفحة
الماء في الصحراء	٣
القسم العديم الماء	٣
القسم الموسمي الماء	٤
القسم الدائم الماء	٩
واحة صيره	١٠
قارة أم الصغير	١٥
الواحات الخارجة	١٥
حفر العيون	١٧
الواحات الداخلة	٢٣
الواحات البحرية	٢٦
واحة الفرافرة	٢٩
الى الصحراء	٣١
أحلام الصحراء	٣٥
الحياة في ربوع	٤٤
الطقس	٤٤
القبيلة	٤٥
في قضايا القتل	٤٦
في قضايا هتك العرض	٤٩
الزواج	٥١
اللغة والدين والصناعة	٥٣
صفات العرب	٥٦
الحياة الاقتصادية	٥٧

الزراعة	٥٧
المناطق النباتية البرية	٥٩
المناطق النباتية الزراعية	٦٣
الثروة الحيوانية	٦٥
التجارة	٦٧
لمحة تاريخية	٦٩
نظرة عامة فيما تتطلبه الصحراء والواحات من إصلاح	٨٣
المنطقة الساحلية	٨٣
الري	٨٦
ري الزراعات الحولية	٨٧
ري الحدائق	٨٨
منطقة الواحات	٩٤
معلومات عامة	١٠٤
تعداد السكان	١٠٦
خريطة مربوط	١٠٧
تعليقات وشروح	١٠٨
المصادر	١١٥

فهرس التعليقات

	صفحة
الغرود	١٠٨
منخفض القطارة	١٠٨
أغورمي	١٠٨
الزيتون والمراقي أو مراقيا	١٠٨
تقسيم الأراضي البور في الصحراء	١٠٩
العاقول	١٠٩
تقدير مساحة الأرض بسبوه	١١٠
باريس	١١٠
المحاريق	١١٠
الساعة الرملية والساعة المائية	١١٠
موط	١١٠
العجاج	١١١
المملكة البحرية	١١١
سكان البحر الأبيض المتوسط	١١١
حلفاء ملك الليبيين	١١١
الأسرى عند قدماء المصريين	١١٢
مكانة آمون في الحكومة المصرية	١١٢
تل بسطا	١١٢
مانيتون	١١٢
فرطنيوم أو أمونيا	١١٢
معبد آمون بسبوه	١١٣
قورينا	١١٣
بطليموس	١١٣
استرابو	١١٣
المسعودي	١١٤
برقة	١١٤
مدائن الصحراء القديمة	١١٤

ملحوظة : جاء في صفحة ٦٥ (١ — الثروة الحيوانية) وفي الحقيقة هي رقم (٢) من الاقتصاديات الثلاث بالصحراء — الزراعة — والثروة الحيوانية — والتجارة